أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم

تأليف
أحمد بن محمد طاهون

الكتاب الثاني

الطبعة الأولى عام ١٤١١ من الهجرة
١٩٩٠ من الميلاد
«حقوق الطبع محفوظة للمؤلف»

تقديم

بحمد اللهِ وتوفيقِه يُسعِدني أن أُقَدِّمَ الكتابَ الثانِيَ من « أمثال ونماذجَ بشرية من القرآن العظيم » .

إنَّ القرآنَ الكريمَ هو معجزةُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ الباقيةُ بعده ، تشهدُ له إلىٰ يوم القيامةِ بالصِّدقِ والأمانةِ ، وأنَّه مُبَلِّغٌ عن ربِّه ، الذي أرسله بكتابه المُبينِ الفارقِ بين الشكِّ واليقين ، الذي أعجزت البُلغاءَ مُعَارضَتُه ، فلا يأتُون بمثله ، أو بسورةٍ من مثله ، ولو كان بعضُهم لبعضٍ مُعينًا وظهيرًا .

لقد جعل اللهُ أمثالَهُ عِبَرًا لِمَن تدبَّرها ، وأثنىٰ سبحانه علىٰ أهلِ العلمِ الذين يَعْقِلُونَها ، ويفهمُون مرامِيَها ، فقال جلَّ شأنُه : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ** ﴾ (العنكبوت :٤٣) .

وقد جاء عن جابر رضى اللهُ عنه أنَّ النبيَّ ﷺ تَلا هـٰذه الآيةَ فقال : « العالِمُ مَن عَقَلَ عن اللهِ تعالَىٰ ، فَعمِلَ بطاعتِه واجتنبَ سخطَه » .

ضَرَبَ اللهُ الأمثالُ للناس في القرآن العظيمِ ، كما أنطق بها نبيَّه الأمينَ ﷺ لتنبيه الناسِ إلى ما فيه صلاحُ أمورِهم في الدنيا ، ونجاتُهم في الآخرة ، وكرَّر سبحانه المواعظَ والقَصَصَ في كتابه لإزالة حُجُبِ الغفلةِ ، وإنَّ القصةَ مهما طالتْ يصِحُّ أن نطلقَ عليها – أيضًا – لفظَ : المَثَل ، لِمَا فيها من العظات والعبَر ، والمقاييسِ التي يُعرَف بها الخيرُ والشرُّ ، ونُدرِكُ بواسطتها ما هو طيِّب ، وما هو خبيثٌ ، يقول سبحانه من سورة النُّور : ﴿ **وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ .

(الآية : ٣٤) .

إنَّ الغايةَ هي هدايةُ الخلْقِ إلىٰ الحق ، وتنويرُ البصائر ، وتطهيرُ النفسِ من الشُّبه والشكِّ والوهْم ، والإرشادُ إلىٰ كل نافعٍ وجميل ، والدلالةُ علىٰ أسباب السكينةِ والسعادةِ في الدنيا ، والفوزِ برضوان اللهِ في الآخرة .

إنَّ المثَلَ القرآنيَّ ، وإنَّ القصةَ القرآنيةَ لَمِن أعظمِ السُّبل لتنمية حبِّ الخير والحقِّ في النفوس ، ولبعثها علىٰ كراهة الشرِّ ، والنفور من الباطل ، والإقبالِ علىٰ ما فيه صلاحُها وفلاحُها لِتحظَىٰ بالسعادتين ، وتفوزَ بالحسنَيَيْن في الدنيا والآخرة .

وإنَّ مَنْهجَ هـٰذا الكتابِ في التقسيم وطريقةِ البحثِ يسيرُ علىٰ نفس النمَطِ في الكتاب الأولِ ، فقد اشترَكا في وضوح المنهَج ، وتَوَخِّي السهولةِ ، وطريقةِ التقسيم من حيثُ : الإشارة إلىٰ آسم السورةِ عند تناوُلِ المثَلِ أو القصةِ أو الشخصيةِ ، وتسلسُلِ الأرقام ، وطريقتها ، فالأرقامُ الحسابيةُ بجوار العناوين ترشِدُ إلى عددِها في الكتابين أي من (١ إلى ٨٤) فيهما، وقد رُقِّمَت صفحاتُ كلِّ كتابٍ منهما علىٰ حِدَةٍ ، وَزِيدَ في الكتاب الثاني رقمٌ آخرُ يربِطُه بالكتابِ الأول .

وأمَّا الترقيمُ الأبجديُّ مثل (ا ، ب ، ج ، د ، هـ) فهو خاصٌّ بالبحث الذي يَدُورُ حول قُطْبٍ واحدٍ في ضَوْءِ مَثَلٍ أو قصةٍ أو تحليلِ نفسيَّةٍ مع إلقاءِ ضوءٍ علىٰ بعض ما اشتملت عليه السورةُ الكريمةُ أحيانًا سعْيا نحو الغايةِ المنشودةِ ، وهي استخلاصُ العِبَرِ والعِظَاتِ ، أو الحِكَمِ أو الأحْكامِ ، والمعاني التي تُرغِّبنا في خير يُجْتَنَىٰ ، وتُنَفِّرُنا من شرٍّ لنبتعِدَ عنه .

ولذا قد يَرِدُ آسمُ السورةِ الواحدةِ في موضعَيْن أو مواضعَ من الكتاب ،

وذلك راجعٌ إلىٰ تَعدُّد الأمثالِ أو الشخصياتِ والـنماذج المضروبِ بها المثَل في السورة الواحدةِ ، فيتعدَّدُ تبعًا لذلك البحثُ ، وتتنوعُ العِبَر ، والأحكامُ ، والحكم .

إنَّ البحثَ في الأمثال والـنماذج البشريةِ في ظلال الكتابِ والسنةِ الهاديةِ أمرٌ مُمْتِعٌ للغاية ، إنه غذاءٌ للعقل ، ونورٌ للقلب ، وهدايةٌ وسكينةٌ للنفس ، ودليلٌ وبرهانٌ ساطعٌ ، ودواءٌ ناجِعٌ .

أرجو أن تجِدَ في هـٰذا الكتابِ العلمَ النافعَ ، والإقناعَ والإمتاعَ ، وادْعُ لأخيك الـمحتاجِ إلىٰ رحمةِ اللهِ وعفْوهِ بالمغفرةِ والرحمةِ والعفوِ والعافيةِ .

أسأل اللهَ أن يجعلَه عملًا خالصًا لوجهه ، وأن يُعِينَ عبْدَه الضعيفَ علىٰ مواصلة البحثِ ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبى الهُدَىٰ والرحمة .

أحمد بن محمد طاهون

جدة : ١٤١٠ من الهجرة
١٩٨٩ من الميلاد

* * *

٤١ - ١ - القلبُ القاسي ودواؤه .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ * ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ١٦ : ١٧ الحديد .

هاتان الآيتان الكريمتان من سورة الحديد ، وهي من السور المدنيةِ وآيُها تسعٌ وعشرون ، نزلت بعد الزلزلةِ ، وقد جاء في مسند الإمامِ أحمدَ عن العِرْباضِ بنِ ساريةَ : أن النبيَّ ﷺ ، كان يقرأُ المسبِّحاتِ قبل أن يرقُدَ ، وقال : « إنَّ فيهِنَّ آيةً أفضلَ من ألفِ آيةٍ » وَرُوي من طرق أخرى عند بعضِ أصحابِ السنَن ، وقال التِّرمذي : « حسَن غريب » .. واللفظ عند القرطبي « كان يقرأُ بالمسبِّحات قبل أن يرقُدَ » يعني بالمسبِّحات : « الحديد ، والحشر ، والصف والجمعة ، والتغابن » .

والآيةُ المشارُ إليها في الحديث – كما عند ابن كثير – هي والله أعلم : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] فهي التي جاء فيها أنها أفضلُ من ألفِ آيةٍ .

وقد جاء في سنن أبي داود ، في باب « رَدّ الوسْوسة » أن ابن عباس – رضي اللهُ

---

(١) الحديد : ٣ .

عنهما – نَصَح رجلًا كان يجد في صَدْره شيئا ، فقال له : إذا وجدتَ في نفسك شيئًا فقل : « هو الأوَّلُ والآخر والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيءٍ عَليمٌ » وقد جاء شَرْحُها في دعاءٍ واردٍ عن رسول اللهِ ﷺ ، وَلفظُه عند أحمدَ عن أبي هريرة : « اللهمَّ رَبَّ السمٰواتِ السبع ورَبَّ العرشِ العظيمِ ، ربَّنا وربَّ كلِّ شيء ، مُنزِلَ التوراةِ والإنجيلِ والفرقانِ ، فالِقَ الحبِّ والنَّوى ، لا إلٰهَ إلا أنتَ ، أعوذُ بِكَ مِن شَرِّ كلِّ شيءٍ أنت آخِذٌ بناصيته ، أنت الأوَّلُ ليس قبلك شيءٌ ، وأنت الآخِرُ ليس بعدك شيءٌ ، وأنت الظاهرُ ليس فوقَك شيءٌ ، وأنت الباطِنُ ليس دُونك شيءٌ : اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ ، وأَغْنِنَا من الفقْر » .

وجاء عند مُسلمٍ وفيه : « أعوذُ بك من شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أنت آخِذٌ بناصيتِهِ ، اللهم أنت الأوَّلُ فليس قبلك شيءٌ ، وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيءٌ ، وأنت الظاهرُ فليس فوقكَ شيءٌ ، وأنت الباطِنُ فليس دُونك شيءٌ ، اقْضِ عنَّا الدَّيْنَ ، وأَغْنِنا مِن الفقْر » وعند مسلم أنَّ أبا صالحٍ كان يأمرُ إذا أراد الشخصُ أن ينام : أن يضطجِعَ على شِقِّهِ الأيمنِ ثم يقول هذا الدعاءَ من « اللهم ربَّ السمٰواتِ ... إلى « وأغننا من الفقر » .

سبحانه وتعالى هو الأوَّلُ أي القديمُ الأزليُّ قبلَ كلِّ شيءٍ بلا نهايةٍ ، والآخِرُ أي الباقي الأبديُّ بعد كلِّ شيءٍ بلا نهايةٍ ، وهو سبحانه الظاهرُ بآياته ومصنوعاتِه ، والباطنُ بِكُنْه ذاتِه وصفاتِه .

وقد بدأت سورةُ الحديدِ بإخبارِ اللهِ تعالٰى أنه يُسَبِّح له ما في السمٰواتِ والأرضِ ، أي من الحيوانات والنباتاتِ وسائرِ المخلوقاتِ : ﴿ **وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾[1] أي : يُمجِّد اللهَ عزَّ وجل

---

(١) الإسراء : ٤٤ .

وَيُنَزِّهُه عن السُّوء : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1] أي ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ : الذي خضع له كلُّ شيء ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في خَلْقه وأمْرِه وشرعِهِ ، وقد انفرد سبحانه بِمُلْك السمواتِ والأرضِ ، وإنَّ خزائنَ المطرِ والنباتِ وسائرِ الرزق بيده وحده سبحانه وتعالى ، وبيده وحده الحياةُ والموتُ ، وهو سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ ، وعالمٌ بكل شيءٍ ، وهو مع عباده أين كانوا رقيبٌ عليهم ، شهيدٌ على أعمالهم ، جميعُ الخلقِ في عِلْمِه على السواء ، وتحت بصرِهِ وسمعِه ، فهو سبحانه يسمعُ كلامَهُمْ ، ويرى مكانَهُم ، ويعلمُ سِرَّهم ونَجْواهم ، فلا إلٰهَ غيرُه ولا ربَّ سِواه ، وفي حديثٍ غريب رواه عبادةُ بنُ الصامت : « إنَّ أفضلَ الإيمانِ أن تعلمَ أنَّ اللهَ معك حيثُما كنتَ » .

نقله ابنُ كثير رواية نُعَيم بن حماد .

وكان الإمامُ أحمدُ ينبِّه من الغفلة ويقول :

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تَقُلْ ... خلوتُ ولٰكِن قُل : عَلَيَّ رقيبُ

ولا تحسبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما يخفَى ، عليه يغِيبُ

وفي سورة الحديد – أيضا – بيانُ بعضِ آثارِ قدرةِ اللهِ تعالى في بدائعِ خَلْقِه مِمَّا يدل على الوحدانية ، وَيُبرهِنُ على عظمةِ المُلْك ، وكمالِ الحكمة ، وقد حَثَّت السورةُ على الإنفاق مِمّا جعل عباده مستخلفين فيه ، ورغَّب سبحانه في البذْل والمبادرةِ إلى المبرَّات ، والسخاءِ في سبيل الله ووعَد المنفقين بخيْري الدنيا والآخرة : ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) الحديد : ١ .

(٢) الحديد : ١١ .

ثم بَشَّرت السورةُ الكريمةُ الذين استجابوا للإيمان ، وأنفقُوا في سبيل الله بأنهم يومَ القيامةِ يسْعَى نورُهم بين أيديهم على الصراطِ وفي عَرَصَاتِ القِيامة ، بحسب أعمالِهم ، ليرشدَهم إلى جَنَّات النَّعيم ، ويُقال لهم : لكم البِشارةُ بجَنَّاتٍ تجرِي من تحتها الأنهارُ ماكثين فيها أبدًا .

وفي هٰذا اليومِ لا ينجو من الأهوال المُزْعجةِ ، والزلازِلِ العظيمةِ ، والأمورِ الفظيعةِ إلا مَن آمَنَ باللهِ ورسولِهِ ، وعَمِل بما أمر الله ، وتَرك ما عنه زَجَر ، وفي هٰذا اليومِ يتحسَّرُ الملحدون والمنافقون الذين أهلكوا أنفسَهم بالمعاصي والشهواتِ ، وتربَّصُوا بالحقِّ وأهله ، وأخَّروا التوبة ، وشكُّوا في البعث والحسابِ ، وخدعتْهم الأمانيُّ والأباطيلُ ، وَزَيَّن لهم الشيطانُ الشهواتِ والشبهاتِ حتى فارقُوا الدنيا ، فلو جاء أحدُهم يومَ القيامة بِمِلْءِ الأرضِ ذَهبا وَبِمثْله معه لِيَفْتَدِىَ به من عذابِ يومِ القيامةِ ما قُبل منه ، ويُقال لهم : ﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1] .

إن اللهَ عزَّ وجل يُعطي المؤمنين نُورًا يومَ القيامة على قَدْر أعمالِهم يمشُون به على الصراط ، ويُعطِي المنافقين – أيضا – نُورا ، ثُم يُسْلَبُ المنافقُ نورَه لنفاقِه ، فإذا بَقِىَ المنافقون في الظُّلمة لا يُبصرون مواضعَ أقدامهم ، قالوا للمؤمنين : ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾[2] وقال المؤمنون حين ذاك : ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾[3] ثم يُحال بين الفريقين ، إذ يفوزُ فريقُ المؤمنين برحمة اللهِ عزَّ وجلَّ ، أمَّا الفريقُ الآخرُ فإلى العذابِ والشقاءِ : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ

---

(١) الحديد : ١٥ .

(٢) الحديد : ١٣ .

(٣) التحريم : ٨ .

فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾[1] .

بعد أن بَيَّنت سورةُ الحديد هَذا الموقفَ يومَ القيامة لتشويق أهلِ العقلِ والبصيرةِ ، ليعملُوا بعمل أهلِ الجنَّة ، ولتخويفهم وتحذيرهم من النفاق وما يؤدى بالإنسان إلى الظُّلمات والعذابِ ، بعد ذٰلك عاتب اللهُ عز وجل قومًا من المؤمنين فَتَرت هِمَمُهم عن القيام بما نُدبوا لَهُ من الخشوع ، ورقةِ القلوب بسماع المواعظِ ، وتدبُّرِ القرآنِ ، ثم حذَّرهم سبحانه أن يعملُوا مثلَ أهلِ الكتابِ الذين طال العهدُ بينهم وبين أنبيائِهم ، فقست قلوبُهم ، وأعرَضُوا عن أوامرِ الله ، ثم أبان لهم سبحانه بِضَرْبِ المَثَلِ أنَّ القلوبَ القاسيةَ تَحْيا بذِكْرِ اللهِ عزَّ وجل ، وبتلاوةِ القرآنِ الكريمِ وسماعِهِ كما تحيا الأرضُ الميتةُ بالغيْث والمطَر . ولنتدبر :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[2] .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ : أي ألم يقرُب ويَحين .. يقول الشاعرُ مُتَّعظًا بالشَّيب ، معاتِبًا نفسه :

أَلَم يأنِ لِي ياقلْبُ أَنْ أتركَ الجَهْلا وأَنْ يُحْدِثَ الشَّيب المُبينُ لنَا عَقْلًا

وماضيه : أَنَـٰى بالقصْر يأْنِي أَنْيًا ، وإِنَىً ، وَأَناةً بمعنى حَانَ وقَرُب.

يقال : أَنَـٰى لك أن تفعلَ أي حَان ، وألم يأنِ لَكَ أن تفعلَ ، كما يأتي الفعل أَنَـٰى بمعنى أَدْرَكَ ونَضِج ، يقال : انْتَظِرْ إِنَـٰى الطعام ، وفي التنزيل : ﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَـٰهُ ﴾[3] .

﴿ أن تَخْشَعَ ﴾ أي تَذِلَّ وَتَلِينَ ، أي أما آنَ للمؤمنين أن تخشعَ قلوبُهم لِذِكْرِ

---

(١) الحديد : ١٣ .

(٢) الحديد : ١٦ .

(٣) الأحزاب : ٥٣ .

اللهِ ، وتَلِينَ عندَ الذكرِ والموعظةِ وسمَاعِ القرآن ، فتفهمَهُ وتنقادَ له ، وتسمعَ له ، وتُطِيعَهُ .

وقد جاء عن قتادةَ أن ابنَ عباس قال : إن الله استبطأَ قلوبَ المهاجرين ، فعاتَبَهُم على رأسِ ثلاثَ عشرةَ سنةً من نزُولِ القرآنِ فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية .

رواه ابن المبارك – والنقل عن ابن كثير

وروي أن المِزَاحَ والضَّحِكَ كَثُر في أصحاب النبيِّ ﷺ لمَّا ترفَّهُوا بالمدينة فنزلت هٰذه الآيةُ ، ولمَّا نزلت قال الرسولُ ﷺ : « إنَّ اللهَ يَسْتَبْطِئُكم بالخُشوع » فقالوا عند ذٰلك : خَشَعنا . (عن القرطبى) .

ورُوي أن ابنَ مسعود قال : لَمَّا قَدِمَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ المدينةَ ، فأصابوا من لينِ العيشِ ما أصابوا بعد أن كانوا في جهْد جَهيدٍ ، فكأنهم فَتَرُوا عن بعض ما كانُوا عليه فَعُوتِبُوا فنزلت الآية . (تفسير المراغى) .

وقال محمد بنُ كعب : كانت الصحابةُ بمكةَ مُجدِبين ، فلما هاجروا أصابُوا الريفَ والنعمةَ ففَتَرُوا عمَّا كانوا فيه ، فقَست قلوبُهم ، فوعظَهم اللهُ فأفاقوا . (القرطبى) .

وقد جاء عن عيسىٰ عليه السلامُ قوله : « لا تُكْثِرُوا الكلامَ بغيرِ ذِكْرِ اللهِ تعالىٰ فتقْسُو قُلوبُكم ، فإن القلبَ القاسي بعيدٌ من الله ، ولٰكِنْ لا تَعلمون » . من حديث لأنس بنِ مالك ذَكَره ابنُ المبارك كما في القرطبى .

وإذا كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ ، وهم مَن هُم في الورع والانقيادِ والطاعةِ قد عُوتبوا للانشغال بما يُضعفُ الخشوعَ في القلب ، ويُوهِنُ الهِمَمَ عن

تدبُّر المواعظِ والأمثالِ فماذا نقولُ عن حالنا وقد طال علينا الأمدُ ، وتكالبت علينا الأممُ المفسِدةُ بما لديها من جِيَفِ الشهواتِ ، وخَبيثِ الشُّبهات ، وَزَيْفِ المبادئ والأفكار ؟ ماذا نقول وقد كثُرت الصوارفُ الشاغلةُ عَمَّا هو خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ، أَمَا آن لنا أن نتعِظَ ونُفِيقَ ، ونتدبرَ تحذيرَ القرآنِ من التشبُّه بالأممِ التي قَسَت منها القلوب : ﴿ **وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ** ﴾[1] .

* * *

(١) الحديد : ١٦ .

٤٢ - ب - إحياء القلوب .

أسْعَدُ الناسِ حالًا ومآلًا مَن إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَ قلبُه ، وخشعت نفسُه ، وَمَن إذا وُعِظَ نفعتهُ العظةُ وزادته رقةً وليِّنًا ورغبةً ورهبةً ، وَمَن إذا تُلِيَت عليه آياتُ اللهِ زادته إيمانا ، وجعلته أكْثر إقبالًا على عمَل الآخرةِ ، ودعتْه إلى التطهُّر من أدناسِ الخطايا ، فجدَّدَ التوبةَ ، وسعىٰ فيما ينفعُه ، وانتهىٰ عَمَّا يضرُّه ، وقد أثنى اللهُ عز وجل على عباده الذين تَردُّهم خشيتُه عن معاصيه ، ويردعُهم تذكُّر سلطانه وعظمتِه وجبروتِه وانتقامِهِ عن الشرور والآثام ، وتذوبُ قلوبُهم خوفًا عندما تُزَيِّنُ لهم نفوسُهم المحرَّمات ، إذ يذكُرون المهيمنَ الجبارَ العليمَ بكل شيءٍ فلا تخفىٰ عليه خافيةٌ ، ولا يَعْزُبُ عن علمه مثقالُ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء .

ومن صفات المؤمنين الصالحين ما جاء في قوله سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زادتْهُم إيمَـٰنًا** ﴾[1] .

هـٰؤلاء هم أهلُ التقوىٰ والخشيةِ الذين قال اللهُ فيهم : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُم يَعْلَمُونَ** ﴾[3] .

---

(١) الأنفال : ٢ .
(٢) الأعراف : ٢٠١ .
(٣) آل عمران : ١٣٥ .
(٢٦٢)

من ثَمرات ذِكْرِ الله :

ومن بُشريات الخيرِ أنْ يَجِدَ المؤمنُ في قلبه رقَّةً ولِينًا وخوفًا عندما يذكُرُ اللهَ عزَّ وجل ، عندما يقال للعبد – مثلا – اتَّقِ اللهَ في مالك ؟ رَاقِبِ اللهَ في سِرِّك وعلانيتِك ؟ اذكر اللهَ عند غضَبِكَ ، واعلمْ أنه سبحانه أقدرُ عليك منك على أخيك الذي تَقْدِرُ على إيقاع الأذَىٰ به ظالمًا له ؟ اخْشَ اللهَ في قولك وفعلِكَ ، كُفَّ جوارِحَك عن معاصيه فإنه سبحانه ذو العِزَّةِ والجَبَروت ! .

ومن أعظم أسبابِ الخيرِ والبركات حُبُّ كلامِ اللهِ عزَّ وجل والإقبالُ عليه ، وتلاوتهُ ، وتدبُّرهُ ، والانتفاعُ بِحِكَمِه وأحكامِه ومواعظِه وأمثالِه ، وقد وضَّح الله لنا الطريقَ إلى الخير ، ودعانا إلى المبادرة إليه ، والإسراعِ نحوه بلا إبطاءٍ فقال من سورة الحديد : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ** ﴾ .

تخويفٌ وتحذير :

وحذَّر سبحانه عبادَهُ المؤمنين من التشبُّه بالذين حَمَلُوا الكِتَابَ مِن قبلهم من اليهود والنصارىٰ فإنهم لمَّا طال الزمنُ بينهم وبين أنبيائِهم ، وغرَّتهم الشهواتُ ، وفتنتهم الشُّبهاتُ بدَّلُوا كتابَ اللهِ الذي بأيديهم ، واشتَرَوْا به ثَمَنًا قليلا ، وَنَبَذُوا تعاليمَه وراءظُهورهم ، وأقْبَلُوا على الآراء المختلِفَةِ ، والأقوالِ المُبْتَدَعَةِ ، وقلَّدوا زعماءَ الضَّلالِ في الدِّين واتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا من دون الله ، وكثيرٌ منهم خرج عن أوامرِ اللهِ في الأقوالِ والأفعالِ ، ولذا قَسَت قلوبُهم ، فلا يَقْبلُون موعِظةً ، ولا تَلِينُ قلوبُهم بوعْدٍ ولا وعيدٍ إذْ رَانَ على هٰذه القلوبِ من آثار المعاصي والمخالفاتِ ما صرَفها عن الخير وجَرَّأهَا على الشرِّ .

وقد لفت اللهُ عباده الموحِّدين إلى هٰذا حتى لا يقعُوا فيما وقَع فيه غيرُهم :

﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

والأَمَدُ : هو الزمانُ ، وطال عليهم الأمدُ : أي طال العهدُ بينهم وبين أنبيائِهم ، ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي صَلُبت وصارت كالحِجَارة أو أشدَّ قسوةً . ﴿ فَاسِقُونَ ﴾ : أي خارجون عن حدود دِينِهم ، رافضُون لِمَا جاء فيه من الأوامر والنواهي ، فقلوبُهم لذَلك فاسدةٌ ، وأعمالُهم باطِلةٌ ، كما قال اللهُ فيهم : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[1] .

أي فَسدت قلوبُهم ، فَقَسَت ، وصار مِن سَجِيَّتِهم تحريفُ الكَلم عن مواضعه ، وتركُوا الأعمالَ التي أُمِروا بها ، وارتكبُوا ما نُهوا عنه ، ولهٰذا نهى اللهُ المؤمنين أن يَتَشَبَّهُوا بهم في شيء من الأمور الأصليةِ والفرعية .

مَثَل :

ثم ضَرب اللهُ عزَّ وجلَّ المَثَل لتأثير المواعظِ وتلاوةِ القرآنِ في القلوب فقال : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

فَتَأَمَّل الأرضَ الجَدْبةَ لا خُضرةَ فيها ولا زرْعَ ، يُسَاقُ إليها الماءُ ، وينزلُ عليها الغيثُ فتهتزُّ خَضِرةً نَضِرَةً بالزروع والثِّمار ، وكما يُحيي الغيثُ الأرضَ فتَبهجُ وتَسُرُّ ، وتصيرُ مصدرًا للخيرات والبركات ، فكذلك القلوبُ لا حياةَ لها إلا بذكر اللهِ ، وتلاوةِ آياتِ القرآنِ الكريم ، وتدبُّرها وسماعِها ، فذِكْرُ اللهِ عز وجل طِبُّها ، والقرآن الكريمُ يُنيرها ويبعثُ فيها الرحمةَ والخشيةَ ، فيصيرُ المؤمنُ مصدرًا

---

(١) المائدة : ١٣ .

للخير ، يُرجَىٰ بِرُّه ، وَيُؤمَنَ شَرُّه .

وكما يقول ابنُ كثيرٍ في تعليقه على هٰذا المثَلِ القرآنيِّ : فيه إشارةٌ إلى أنه سبحانه وتعالى يُلِينُ القلوبَ بعد قسوتها ، ويَهدِي الحَيارىٰ بعد ضَلَّتها ، ويُفَرِّجُ الكروبَ بَعْد شِدَّتها ، فكما يُحْيي الأرضَ الميْتةَ المجْدِبة الهامِدةَ بالغيْث الهتَّانِ ، كذٰلك يَهْدِي القلوبَ القاسيةَ ببراهينِ القرآنِ ، والدلائِلِ ، ويُولج إلى هٰذه القلوبِ النورَ بعدما كانت مُقْفلَةً لا يصِلُ إليها الواصلُ ، فسبحان الهادي لِمن يشاءُ بعد الإضلالِ ، والمُضِلِّ لمَن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاءُ فَعَّالٌ ، وهو الحكَمُ العدْلُ في جميع الفِعَال ، اللطيفُ الخبيرُ الكبيرُ المُتَعَال .

لقد ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ للناس كي يتدبَّروا ، وتَكْمُلَ عقولُهم ، ويَسترشدوا بها ، وقد جعلَ إحياءَ الأرضِ بالغيْث بعد موتِها مثَلًا لإلانةِ القلوبِ بعد قَساوتها بفضل ذِكْرِ اللهِ وتَدبُّرِ القرآنِ ، ولإحياء الكافرِ بالهُدَىٰ إلى الإيمانِ بعد موتِهِ بالكُفر والضلالةِ ، وكذٰلك لإحياءِ الأممِ والجماعاتِ بالإسلامِ بعد موتِها بالجهل والكفرِ : ﴿ **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ وهو تمثيلٌ بأمرٍ محسوسٍ تقعُ عليه عيونُنا ، ونراه بأنفسِنا ، نرىٰ الأرضَ يُساقُ إليها الماءُ فتُنْبِتُ بعد جَدْبٍ وتُخْرِجُ البركاتِ والخيراتِ بإذن ربِّها وفضلِه ، وقد سِيقَ لبيانِ أمرٍ معنويٍّ وهو أثرُ الذِّكْرِ وتلاوةِ القرآن وتدبُّرِه في القلوب ، وأنه يُحْييها كما يُحْيِي الغيْثُ الأرضَ ، فتصيرُ هٰذه القلوبُ بفضل الإيمانِ ومراقبةِ اللهِ وخشيتِهِ مَنْبَعًا للرقَّةِ والاستقامةِ والنُّبلِ ، وَتُعطِي أطْيَبَ الثَّمَراتِ كالأمانة والوفاءِ ، والمحبةِ ، والرحمةِ ، والإحسانِ وبذْلِ المعروفِ ، والخشوعِ ، والطاعةِ ، والصدقِ والهدايةِ .

ثم تأمَّل الطِّباقَ بين الإحياءِ والإماتةِ ، وكيف ساعد الجمعُ بين الأمرين المتضادَّين على زيادةِ الإيضاحِ والبيانِ ، وعلى بيان الغَرض من المثَلِ ، وهو

توضيح أثَرِ الإيمان باللهِ ، وذِكْرِه ، والعلمِ به سبحانه ، وتلاوةِ كتابهِ ومدارستِه توضيحُ أثَرِ ذلك في إحياء النفوسِ بعد موتِها إذ يصيرُ الإنسانُ نافعًا ومُتزيِّنَ الظاهرِ والباطنِ ، فهو يتصرفُ فيما يُريده مهتديًا بنور العلم والمعرفةِ والخَشْيةِ في قلبه ، بخلاف الملْحدِ والكافرِ والغافلِ ، ففي هـٰؤلاء صفاتُ الموتَـٰى لعدمِ اتصالِ بواطِنهم بنورِ العلمِ والفهْمِ ،والإدراكِ لما ينفعُهم في الحياة الأبدية ، ولمَا يعود عليهم بالخير والطمأنينةِ ، والبركةِ في الدنيا .

وقد أخرج البخاريُّ عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « مَثَلُ الذِي يَذكرُ رَبَّه والذي لا يذكرُ مَثَلُ الحَيِّ والميِّت » والمَثَلُ : أي الصفة « الذي يَذكر ربَّه » أي بنوعٍ من أنواع الذكرِ ومنه مدارسةُ العِلم ، وقراءةُ القرآنِ والحديثِ الشريف « والذي لا يذكرُ » أي ربَّه ، وهو الشخصُ الغافلُ الذي لا يفكِّرُ في العواقب ، ولا تنفعُه العِظةُ ، ولا تزجُره العِبَرُ .

« مَثَلُ الحيِّ والميِّت » أي صفةُ الذي يذكر ربَّه ويراقبُه مِثْلُ صفةِ الحيِّ ، وَوَجْهُ الشَّبَه بينهما أنَّ كلًّا منهما فيه نَفْعٌ ، ومُتزيِّنُ الظاهرِ والباطنِ .

أمَّا صِفةُ الذي لا يذكرُ ربَّه فَمِثْلُ صِفَةِ الميِّتِ في أن كلًّا منهما عاطلٌ ظاهِرُه ، وباطِلٌ باطنه ، فغيرُ الذاكرِ لم يتزيَّن بِحِلْيَةِ حياتِه ، ولم ينتفع بها ، وأمَّا باطنُه فلا خَيْرَ فيه لبطلانِ اتصالِه بنور العلمِ والإيمانِ والتفكُّرِ في المآل وهـٰذه صفاتُ الميِّت .

وفي هـٰذه الأمثالِ ما يشوِّقُ النفوسَ الطيبةَ إلى الرغبة في الخير ويبعثُها على السعْي فيما ينفعُها في العاجلِ والآجلِ ، وإلى النفور من التشبُّه بأهل الغفلةِ والجحودِ الذين لا يذكُرون اللهَ ويَنْسَون فضْلَه وإنعامَه ، ويغفلُون عن جبروته وانتقامِه من العصاة .

إن الذين لانَتْ قلوبُهم لذكرِ اللهِ وما نَزل من الحقِّ تسخُو نفوسُهم بالمال في سبيل اللهِ رجاءَ رحمةِ اللهِ وعن محبةٍ وإخلاصٍ ، وهم أولٰئك الذين آمنُوا بالله ورسلهِ ، وتتفاوتُ درجاتُهم بتفاوُتِ قوةِ الإيمانِ والأعمالِ والإخلاصِ ، وقد بشَّرهم ربُّهم بالأجر الكريم ، والنورِ على الصراطِ يومَ القيامةِ ، فقال بعد المَثَلِ الذي ضَرَبَه لإحياءِ القلوبِ بعد مَوْتِها : ﴿ **إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ** ﴾[1] أمَّا المكذِّبون بِحُجج اللهِ وبراهينهِ الدالةِ على وحدانيتهِ وصِدْقِ رسلِه فَياوَيْلَهم ويَاحسْرَتهم يومَ الدِّين : ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ** ﴾[2] .

اللهم احشُرنا في زُمْرة الصالحين .. آمين .. آمين .

* * *

(١) الحديد : ١٨ و١٩ .

(٢) الحديد : ١٩ .

٤٣ - ج - كمثل غيث أعجب الكفار نباته.

قال اللهُ تعالى من سورة الحديد : ﴿ **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وتكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا** ... ﴾ .

﴿ **لَعِبٌ وَلَهْوٌ** ﴾ اللعِبُ : مالا ثَمَرَةَ له كَلعِب الصِّبيانِ ، واللهْوُ : ما يَشْغَلُ الإنْسَانَ عَمَّا يَعْنيه وينفعُه ، ومن اللَّعِب ما رَغَّبَ في الدنيا ، ومن اللَّهْو ما ألهى عن الآخرة وشغَلَ عنها .

﴿ **وَزِينَةٌ** ﴾ ما يُتزيَّنُ به ، ومن شأن الكافرِ أنه يَتَزَيَّنُ بالدنيا ، وينافسُ فيها ولا يعملُ للآخرة ، وكذلك شأنُ كلِّ مَن تزيَّنَ في غير طاعةِ اللهِ عزَّ وجل ، ويُقال : زانَهُ زَيْنًا أي جَمَّله وحسَّنه ، وزيَّنه زانه أى جمّله ، والزِّيَانُ : كلُّ ما يُتَزَيَّنُ به ، والزِّينةُ : الزِّيانُ ، ويومُ الزينةِ هو يومُ العيدِ .

وزينةُ الإنسان تقواه وعملُه الصالحُ ومروءتُه ومنافستُه في الخيرات والمبراتِ ، وكلُّ ما كان من ثمرات الإيمانِ الصحيح .

وقد أمر اللهُ العبادَ بأخْذ زينتِهم بِلُبْس الثيابِ الطاهرةِ النظيفةِ الساترةِ للعورة عند قيامِهم للصلاة أو خروجِهم للمساجد : ﴿ **يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ** ﴾[1] .

والتفاخُرُ : هو المباهاةُ والتعاظمُ والتكبُّر ، يقال : فخَر الرجلُ فخْرا وفَخارا وفَخَارةً : تباهَى بما له وما لقومه من محاسِنَ ، وتكبَّر فهو فاخِرٌ وفَخُور ويقال :

---

(١) الأعراف : ٣١ .

فخَر فلانٌ فلانًا أي غَلَبَهُ في الفخْر ، وتفاخَر القومُ : فَخَرَ بعضُهم على بعض . ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أي يفخَرُ بعضُكم على بعضٍ بالدنيا أو بالأنسابِ أو بالمباهاةِ بالأموال وكثرةِ العُددِ والعَددِ وبالآباءِ وكان هٰذا من عَمَلِ الجاهليةِ ، وفي صحيح مسلمٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إليَّ أَنْ تواضَعُوا حَتَّىٰ لا يَبْغِي أحدٌ على أحَدٍ ، ولا يَفْخَرُ أَحَدٌ علىٰ أحدٍ » .

والمقصودُ – واللهُ أعلم – أن الدنيا تَنقضِي وتزولُ وتفنىٰ كما ينقضِي اللَّعِبُ واللهْوُ والزينةُ كتلك التي يَتَزَيَّنُ بها النساءُ ، وكما يزولُ التفاخرُ بالأنساب والأحسابِ والتكاثر بالأموال والأولادِ ، إنَّ شيئًا من ذٰلك الذي يَشْغَلُ أكثَر الناسِ لابقاءَ له ولا دوامَ ، فكذٰلك الدنيا التي هي زمنُ الأكلِ والشُّربِ واللَّهْوِ واللعبِ ستنقضِي وتزولُ ، وكما جاء على لسانِ عليٍّ لعمَّارٍ رضي الله عنهما : « لا تَحْزَنْ على الدنيا ، فإن الدنيا سِتَّةُ أشياءَ : مأكولٌ ، ومشروبٌ ، وملبوسٌ ، ومشمومٌ ، ومركوبٌ ، وزواجٌ ، فأَحْسَنُ طعامِها العَسَلُ وهو بَزْقَةُ ذُبابة ، وأكثرُ شَرابِها الماءُ ويَستوي فيه جميعُ الحيوان ، وأفضلُ ملبوسها الدِّيباجُ « الحرير » وهو نَسْجُ دودةٍ ، وأفضلُ المشْمومِ المِسْكُ وهو دمُ بَهيم ، وأفضلُ المركوبِ الفرسُ وعليها يُقْتَلُ الرجالُ ، وأمَّا الزواجُ فبالنِّساء .. وكلُّه – كما قال ما معناه – إلى انقضاء .

ثم ضرب اللهُ تعالى مَثَلَ الحياةِ الدنيا في أنها زَهْرةٌ فانيةٌ ، ونعمةٌ زائلةٌ فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ، وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللهِ وَرِضْوَٰنٌ ، وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أي مَطر ، ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الكُفَّارُ هنا الزُّرَّاعُ لأنهم يُغَطُّون البِذْر ، والمعنَىٰ أن الحياةَ الدنيا كالزرع يُعْجِبُ الناظرين إليه

لخُضْرَتِهِ بكثرة الأمطارِ ، ثم لا يَلْبَثُ أن يَصِيرَ هَشِيمًا كأن لم يكُن ، وَإذا أَعْجَبَ الزرْعُ الزارِعَ فهو غايةُ ما يُسْتَحسن .

وقيل : الكفارُ هنا هم الكافرون بالله عز وجل ،لأنهم أشدُّ إعجابًا بزينة الدنيا من المؤمنين ، وهـٰذا قولٌ حسَنٌ ؛ لأن التعظيمَ للدنيا وما فيها يَظْهَرُ في الكفَّار ، أمَّا أهلُ التوحيدِ ففيهم من الإعجاب بالدنيا فُروع تَحْدُثُ من شهواتهم ، وتَتقلَّلُ عندهم وتصغُرُ إذا ذَكَرُوا الآخرةَ .

﴿ ثم يهيجُ ﴾ أى يَجِفُّ بعد خُضْرتِه ، ﴿ ثم يكون حُطَامًا ﴾ أي فُتاتًا وَتِبْنًا فَيَذْهَبُ بَعد حُسْنِه ، كذلك دنيا الكافر .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ الغُرور : الخديعةُ ، فإنها تَخْدَعُ الكافِرَ وتَغرُّه ، أَمَّا المؤمنُ فالدنيا له متاعُ بلاغٍ إلى الجَنة .

إنَّ هـٰذا المَثَل القرآنىَّ يُنَبِّهُ مِن غَفْلة ، ويدعُو إلى إجالةِ الفِكْرِ في حالِ الدنيا لأنها تَغُرُّ حتى تَضُرَّ ، لكي يكونَ أهلُ العقل والبصيرةِ على بَيِّنة من أمرها ، وَتَصِحَّ نظرتُهم إليها فلا يتفانَوْنَ في خدمتها لأنها حينئذٍ تستخدمُهم ويصيرون لها أرقاءَ وخدمًا ، أَمَّا أهلُ البصيرةِ الذين عرفُوا حقيقةَ الدنيا واتخذوها مطيةً لآخرتهم ، ومزرعةً للدار الباقية ، فخدَمُوا ربَّهم ، وأطاعوا مولاهم سُبحانه ، وعبدوه حَقَّ عبادته فإنَّ الدنيا تَخدمهم ، وقد جاء في الحديث القدسى عن رب العزةِ والجلال : « يَا دُنْيا اخْدُمِي مَنْ خَدَمَنِي واسْتَخْدِمي مَنْ خَدَمَكِ » .

لقد هَوَّنَ هـٰذا المثلُ القرآنىُّ أمْرَ الحياةِ الدنيا ، وحَقَّرها ، وكشَفَ عن حقيقتها ، فهي ليست إلا مُحَقَّراتٍ من الأمور وهي : اللَّعِبُ واللَّهْوُ والزِّينَةُ ، والتفاخُرُ ، والتَّكاثُرُ ، وتأمَّل – يا ذا اللب – هـٰذه الكلماتِ ، وانظُر ماذا

ينفعُك منها بعد الرحيل عن هـٰذه الدنيا ؟ .. أمَّا الدارُ الآخرةُ فما هي إلا أمورٌ عِظَامٌ وهي : العذابُ الشديدُ ، والمغفِـرةُ ورِضْوانُ الله عز وجـل ، وتأمَّـل الحَالين ، وتدبَّر المَصِيرَيْن ، وانظُر بِعين الحكمةِ والبصيرةِ إلى هـٰذين الأمرين المتقابلين ، وبَادِرْ إلى السعْي فيما يُنجيك من العذاب الشديدِ والشقاءِ الدائم ، ويجعلُك أهلًا لرضوان اللهِ عزَّ وجلَّ تتقلَّبُ في نعيمٍ دائم .

وفي المثَل : شُبِّه حالُ الدنيا وسرعةُ تَقضِّيها مع قِلَّة جَدْواها بنباتٍ أنبتَه الغيثُ فاستوىٰ واكتهَلَ ، وأُعْجِبَ به الكفَّارُ الجاحدون لنعمةِ اللهِ فيما رَزَقَهُم من الغيث والنباتِ ، فبعث اللهُ عليه العاهةَ ، فهاج واصْفرَّ وصار حُطامًا عقوبةً لهم على جُحودِهم .

وقال ابنُ كثير : ضَرَبَ اللهُ تعالىٰ مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا في أنَّها زهرةٌ فانية ، ونِعمةٌ زائلة فقال : ﴿ **كمثَلِ غيثٍ** ﴾ وهو المطرُ الذي يأْتي بعد قُنوطِ الناس ، ﴿ **أَعْجَبَ الكفَّارَ نَباتُه** ﴾ أي يُعجِبُ الزُّرَّاعَ نباتُ ذلٰك الزرعِ الذي نَبَتَ بالغَيْث ، وكما يعجِبُ الزراعَ ذلٰك ، كذلك تُعْجِبُ الحياةُ الدنيا الكفارَ ، فإنهم أحرصُ شيءٍ عليها ، وأميلُ الناسِ إليها ﴿ **ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفرًّا ثُم يكونُ حُطَامًا** ﴾ أي يهيجُ ذلٰك الزرعُ فتراه مصفرًّا بعدما كان خَضِرًا نَضِرًا ، ثم يكون بعد ذلٰك كلِّه ﴿ **حُطَامًا** ﴾ أي يصيرُ يَبَسًا متحطِّمًا .

هـٰكذا الحياةُ الدنيا تكون أولًا شابةً ، ثم تكتهِلُ ، ثم تكون عجوزًا شوْهاءَ ، والإنسانُ كذلٰك يكون في أولِ عمـره ، وعنفـوانِ شبابـهِ غَضًّا طَرِيًّـا ليِّـنَ الأعطَافِ ، بَهِيَّ المَنْظَرِ ، ثم إنَّ الواحدَ مِنَّا يَشْرَعُ في الكهولة فتتغيَّرُ طباعُه ، وينفَدُ بعضُ قواه ، ثم يكبرُ فيصيرُ شَيْخًا كبيرًا ضعيفَ القُوى قليلَ الحركة ، يُعْجِزُه الشيءُ اليسيرُ ، كما قال تعالىٰ من سورة الروم : ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن**

ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وشَيْبَةً ، يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾[1] .

ولما كان هٰذا المثلُ دالًّا على زوال الدنيا ، وانقضائِها لا محالةَ وأنَّ الآخرةَ كائنةٌ لا محالةَ حَذَّرِ من عذابها ، وَرغَّب فيما في الآخرة من الخير ،لتنْبيه العقولِ والأفهامِ ، وللترغيب في العملِ الصالحِ المؤدِّي إلى النجاة ، فقال سبحانه : ﴿ وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي ليس فى الآخرة الآتيةِ القريبةِ إلَّا : إمَّا هَذا وإمَّا هذا : إمَّا عذابٌ شديد ، وإمَّا مغفرةٌ من الله ورضوانٌ .

﴿ وَمَا ٱلحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ أي : هي مَتاعٌ فَانٍ غَارٌّ لِمَن رَكَنَ إليه ، فإنَّه يغترُّ بها ، وتُعجِبه حتى يعتقِدَ أنه لا دارَ سِواها ، ولا معادَ وراءَها ، وهي حقيرةٌ قليلةٌ بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة وأخرجه البخاريُّ : « مَوضِعُ سَوْطٍ في الجنَّةِ خيرٌ مِن الدنيا ومَا فِيها » .

وفي تهوين أمرِ الحياةِ الدنيا والتحذيرِ من الركون إليها والتعلُّق بها جاء في الأثر : « مِن هَوَانِ الدنْيا علىٰ اللهِ أَلَّا يُعْصَى إلَّا فِيها ، ولا يُنَالُ ما عِنْدَه إلَّا بتَركها » .

والدنيا عند أهلِ العقلِ والبصيرةِ مزرعةٌ للآخرة ، فَمَن اتخذها مطيةً للدار الباقيةِ كانت خيْرا وبركَةً ، وقد جاء من وصيَّة شيخ لتلميذه : أَعْرِض عن الدنيا ، وانبذْها وراءك ، فإنها ليست بدارٍ ، ولا فيها مَحِلُّ قَرار ، وإنَّما جُعِلت الدنيا للعُبَّاد ، ليتزوَّدوا منها للمعَاد .

---

(١) آية : ٥٤ .

وفي الأثر : « الدنيا يومان : يومُ فرحٍ ، ويومُ هَمٍّ ، وكلاهما زائلٌ عنك ، فَدعُوا ما يزولُ ، وأَتعِبُوا أنفسَكم في العمل لِمَا لا يَزول » .

وفي الحكمة : الدنيا منازِل ، فَراحِلٌ ونازِلٌ .

وفي الشعر :

إذا أَبْقَتِ الدُّنْيا علىٰ المرءِ دِينَه ... فما فاتَهُ مِنْها فليسَ بِضَائِر

فلنْ تَعْدِلَ الدنيا جَناحَ بَعُوضة ... ولا وَزْنَ ذَرٍّ مِن جَناحٍ لِطائر

فَمَا رَضِيَ الدنيا ثوابًا لمُؤمن ... ولا رَضِيَ الدنيا جزاءً لكافر

إن الدنيا متاعُ الغُرور لِمَن اطمأنَّ إليها ، ولم يجعلْها ذريعةً للآخرة ومطيةً لنعيمها .

إن الدنيا متاعُ الغُرور إن ألـهتك عن طلَب الآخرة ، فأمَّا إذا دعتْكَ إلى طلَبِ رضوانِ اللهِ تعالى ، وطلَبِ الآخرةِ ، فَنِعْم المتاعُ ونعْم الوسيلةُ .

إن الناسَ في نظرتهم إلى الدنيا بيْن مُفْرِطٍ في التكالُب عليها ، ومفرِّط فيها منقطعٍ عنها ، والإسلامُ صَحَّحَ النَّظْرة ، وأخذ بيد الموحِّدين في الطريق الصحيح .

* * *

٤٤ ـ د ـ المبادرة إلى أسباب المغفرة والرضوان وأدب النفس المطمئنة.

ساقت سورةُ الحديدِ مَثَلًا يصِفُ حالَ الدنيا وسُرعةَ زوالها وتَقضِّيها لِئَلَّا يَغترَّ بها أهلُ العقلِ والفِطنة فيركنوا إليها ، أو يجعلُوها أكبرَ هَمِّهم ، وغاية ما يطمحُون إليه ، وَلينزِعَ حُبَّ الدنيا من نفوسِ المتهوِّرين في حُبِّها ، المُغَالين في التعلُّق بها فَشُبِّهت الدنيا بما فيها من زينة ولهْوٍ ولعبٍ وتكاثُر بأرض ينزلُ عليها الماءُ فَتُنبِتُ الزرعَ الذي يُبْهِجُ وَيَسُرُّ لنَضْرته ، وخُضرتِه ، وَرُوائِه ، وجَوْدةِ غَلَّتِه ، ونماءِ ثِماره ، وبينا هو على تلك الحالِ من الجمال والنَّضرةِ إذا به يَصْفَرُّ بعد الخُضرة ، ويَجفُّ بعد النَّماء والنَّضرة ، ثم يتكسَّرُ ويتفتَّتُ ، وكأنْ لم يكن .

وهٰذه حقيقة الحياةِ الدنيا تَغُرُّ وتخدعُ مَن يَرْكَنُ إليها ، وهي حقيرةٌ قليلةٌ فانية ، والدارُ الآخرةُ خيرٌ وأبقَى ، فَمَن جعل الدنيا مزرعةً للآخرة فأجاد زرعَه حَصَد وربِحَ ، وَمَن توانَى وغفَل وكَسِل نَدِم ولاتَ ساعةَ مَنْدَم .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1] أسلوبُ قَصْرٍ يؤكِّد المعنَى ويقرِّره في النفس ، وفيه ترغيبٌ في العمل للآخرة بجعْلِ الدنيا ذريعةً للآخرة ومطيةً لنعيمها ، قال سعيدُ بنُ جُبير : الدنيا متاعُ الغرورِ إن ألهتْك عن طلَب الآخرة ، فأما إذا دَعَتْك إلى طلب رضوانِ الله تعالى ، وطلبِ الآخرةِ فنِعم المتاعُ ونِعْم الوسيلة .

وَذَمَّ رجلٌ الدنيا عند عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه فقال عليٌّ : « الدنيا دارُ

---

(١) الحديد : ٢٠ .

صدقٍ لمَن صَدَقها ، ودارُ نجَاة لمن فَهِم عنها ، ودارُ غِنىً لمن تزوَّدَ منها » أي تزوَّدَ منها للآخرة بصالح الأعمال .

وفي ذٰلك أيضا يقول محمودُ الوراق :

لا تُتْبِعِ الدُّنيـــا وأيامَهـــا ذَمًّا وإن دارتْ بِك الدائـرهْ
مِن شَرَفِ الدُّنيا وَمِن فَضْلِها أنَّ بها تُسْتَـــدْرَكُ الآخِرهْ

ولمَّا كان هـٰذا هو حالَ الدنيا ، وأنها في حقيقتها فترةُ اختبارٍ وابتلاء ، وأن الآخرةَ هي دارُ القرار ، وفيها العذابُ الشديد ، وفيها النعيمُ الدائمُ لِمَن هم أهلٌ لرحمة اللهِ عز وجل ورِضْوانه ، مِمَّن نظروا في العواقب ، ولم تغرُّهم الدنيا بما فيها من لهْو وزخرفٍ ، بل إنهم زَكَّوْا نفوسَهم وطهرُوها من الشرك والشبهات ، وأخبتوا لربِّهم ، وأنابوا إليه ، وكانوا لأنفسهم يَمْهَدُون .. لما كان هـٰذا هو الحالَ حَثَّ السياقُ من سورة الحديد – بعد ضَرْب المثَل للدنيا –على المبادرة إلى فعْل الخيرات ، يقول الله تعالى لعباده : ﴿ **سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾[1] .

أي سارعوا مسارعةَ السابقين لأقرانهم في المِضمار إلى أسباب مغفرةٍ عظيمةٍ كائنةٍ ﴿ **مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ والكلامُ على سبيل الاستعارة ، أو المَجَازِ المرسَل واستعمالِ اللفظ في لازم معناه ، وإنما لزِم ذٰلك – كما يقول مفسِّر –[2] لأن اللازم أن يبادرَ مَن يعملُ ما يكون سببًا للمغْفِرَة ودخولِ الجنة ، لا أن يعملَه أو يَتَّصِفَ بذٰلك سابقًا على آخرَ .

وقيل المراد : سابِقُوا مَلَكَ الموتِ قبلَ أن يقطعَكم بالموت عن الأعمال

---

(١) الحديد : ٢١ .

(٢) روح المعاني للألوسي ، صفحة ١٨٥ ، جزء ٢٧ .

الموصلةِ إلى نيلِ ما عندَ اللهِ من الرحمة والمغفرةِ لتكونوا أهلًا لدخول الجنةِ ، وقيل : سابِقُوا إبليسَ قَبل أن يصدَّكُم بِغُرورِه وخِدَاعِه عن ذٰلك .

وقيل سَارِعُوا بالأعمال الصالحةِ التي تُوجب المغفِرةَ لكم من ربِّكم ، وقيل : سارِعُوا بالتوبة ، أي بادِرُوا إليها لأنها تُؤدِّى إلى المغفرة .

وعن على بنِ أبي طالب رضى الله عنه في الآية : كنْ أولَ داخلٍ المسجدَ وآخِرَ خارجٍ ، وقال عبدُ الله ، كونوا في أولِ صفٍّ القتال ، وقال أنسٌ : اشْهَدُوا تَكْبيرةَ الإحرام معَ الإمام ، وقيل : الصفَّ الأوَّل – أي في الصلاة – .

وكلُّ هٰذا من الأعمال الصالحةِ التي تُقَرِّب العبْدَ من ربِّه ، وتؤكدُ فضْلَ الصلاةِ وحضورِ الجماعاتِ ، والمبادرةِ إلى أداءِ الفرائضِ في أوَّلِ وقتِها .

وفي الآية الكريمةِ يحثُّ اللهُ عبادَهُ على المبادرة إلى الخيرات ، مِنْ فِعْلِ الطاعات ، وتركِ المحرَّمات ، التي تكفِّرُ عن العبد الزلاتِ ، وتُغْفَرُ له بها الذنوبُ والسيئاتُ ، وتُنيله ما عند الله من الثواب والدرجاتِ بفضله سبحانه وإحسانه .

إن الإنسان ممتحَنٌ بالخير والشرِّ ، وهما مُقتربان منه ، وإن الخير طريقُ الإنسان إلى جنات النعيم ، والشرَّ طريقُه إلى جنهمَ وبِئْس المصيرُ ، لذا فإن أهل العقلِ والحكمةِ يقتربُون دوما من الخير ، ويباعِدون أنفسَهم عن الشر ، ولا يحومون حوله خشيةَ الوقوع فيه ، ويجتهدون في المبادرة إلى الخيرات ما استطاعوا ، ويبذلون الجهدَ والطاقةَ في أن يعملوا عَمَلَ أهلِ الجنة ، وكأنهم في سباق .. وفي الحديث الذي رواه عبدُ الله وأخرجه البخارىُّ وأحمدُ : « لَلْجَنَّةُ أقربُ إلى أَحَدِكُم من شِرَاكِ نَعْلِه ، والنارُ مِثْلُ ذلك » وفي هٰذا الحديث تمثيلٌ يدلُّ على اقتراب الخيرِ والشرِّ من الإنسان ، إذ الأعمالُ هي السببُ في وصول الإنسانِ إلى إحْدىٰ

الدارين إمَّا الجنة وإمَّا النار ، وفي تمثيل الجنةِ بأنها أقربُ للمرء من شِراكِ نعلِه وَتمثيلِ النارِ بمثلِ ذٰلك ما يدلُّ على أن الإنسان مطالَبٌ ببذل أقصىٰ جهدٍ للاقتراب من الجنةوالابتعاد من النار ، لذا كانت الأوامرُ القرآنيةُ الداعيةُ إلى المبادرة إلى فِعْل الطاعات تُوحِي بمعنىٰ السرعة ، وفي السرعة جُهْدٌ وتوجُّهٌ وثباتٌ على الطريق المستقيم ، ولنتدبَّر من سورة آلِ عمران : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] وفي سورة الذاريات : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2] أي فاهربُوا من عقابه إلى ثوابه ، وتأمل — ياذا اللب — الحركةَ في الفرار وما يصحَبُه من حالةٍ نفسيةٍ مِمَّا يُؤكِّد أن أمرَ العذابِ الأخرويِّ عظيمُ الشأنِ ، شديدُ الهولِ ، وأنَّ العاقلَ البصيرَ هو مَن يَفِرُّ من معاصي اللهِ إلى طاعتِه ، ويبادرُ إلى التوبة من الذُّنوب ، وفي آيةِ سورةِ الحديد : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ والمرادُ جِنْسُ السماءِ والأرض ، وما أَعْظَمَ مُلْكَ اللهِ عزَّ وجل ! وإنَّ العَرْضَ أقلُّ من الطول ، ومن عادة العربِ أنها تعبِّرُ عن سَعَةِ الشيءِ بعرضه دون طُوله ، وقد جاء في أمثالِ حُكمائهم :

كأنَّ بلادَ اللهِ وَهــــي عَرِيضَةٌ ... علىٰ الخائِفِ المطلُوب كفَّةُ حَابِلِ

« الكفَّةُ » كلُّ شيءٍ مستدير مِثْلُ كفَّةِ المِيزان ، وَحِبالةُ الصائِد ، والجمْعُ كُفَفٌ وَكِفَاف ، والحابِل : هو الصائدُ بالحِبالة ، وفي البيت تشبيهُ بلادِ اللهِ الواسعةِ بكفَّةِ حابل ، أي بالمَصْيدة في ضيقها بالنسبة للخائِف المطلوب ، وفي التنزيل : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾[3] ، والشاهدُ هو التعبيرُ

---

(١) آية : ١٣٣ .

(٢) آية : ٥٠ .

(٣) التوبة : ٢٥ ، وفي الآية ١١٨ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ .

بقوله : « وهي عريضةٌ » عن سَعة بلادِ اللهِ عز وجل . وفي المَثَل : « يا حابِلُ اذكُرْ حَلًّا » يُضْرَبُ للتبصُّرِ في العواقب .

ثم بينت آيةُ سورةِ الحديد المستحقِّين لهٰذه الجنةِ الذين هم أهلٌ لرضوان الله ومغفرتِهِ ، ولنتدبَّر قوله تعالى : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ أي هٰذه الجنةُ هُيِّئت لأهل التوحيدِ الذين صَدَّقُوا رسلَ اللهِ عز وجل ، وفي سورة آلِ عمران قال تعالىٰ : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ، وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[1] .

ثم بينت آيةُ سورةِ الحديدِ أن هٰذا العطاءَ فَضْلٌ من الله ورحمةٌ : ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ** ﴾ أي هٰذا الذي أعدَّه اللهُ لأهلِ التوحيد هو من فضلِه وَمَنِّهِ عليهم ، ورحمتِهِ بهم ، وإحسانه إليهم .

وقد جاء في الصحيح : أن فقراءَ المهاجرين قالُوا : يا رسولَ الله ، ذَهَب أهلُ الدُّثور بالأجور ، والدرجاتِ العُلىٰ والنَّعيمِ المُقيم ، قال : « وَمَا ذاك ؟ » قالوا : يُصَلُّون كما نصلِّي ، ويَصومون كما نَصوم ، ويتصدقُون ولا نتصدق ، ويُعْتِقُون ولا نُعتق ، قال : « أَفَلا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلْتُموه سَبَقْتُم مَن بَعْدَكم ، ولا يكونُ أحدٌ أفضلَ منكم إلَّا مَن صَنَع مِثْلَ ما صنعتُم ؟ تُسبِّحون الله وتكبِّرون وتَحْمَدون دُبُرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين » قال : فَرجعُوا فقالوا : سَمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموالِ ما فعلْنا ففعلُوا مثلَه ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ** ﴾ . ﴿ **وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ أي واللهُ عزَّ وجلَّ واسعُ

---

(١) الآيات : ١٣٣ : ١٣٥ .

العطاء ، عظيمُ الفضلِ ، وَسِعَ عفْوُه المذنبين التائبين الراجين رحمتَه الخائفين من عذابه ، ويوفقُ عبادَه الصالحين لشكره وطاعتهِ ، ثم يَجْزِيهم في الآخرة ما أعدَّه لهم من النعيم كرمًا منه سبحانه وفضْلا .

وبعد أنْ دعا اللهُ عبادَه إلى المسارعة بالأعمال الصالحةِ والمبادرةِ إليها ليكونوا أهلًا لرضوان اللهِ ومغفرتهِ ، وإلى عدم الركونِ إلى الحياة الدنيا لأن ما فيها من خير أوشرٌ لا يدوم ، جاء بعد ذلك بما يُهوِّن المصائبَ على المؤمنين لتزكُوَ نُفوسُهم بالرضَى بقضاء اللهِ ، وبالإيمانِ بأنَّ كلَّ ما يقعُ للمرء مكتوبٌ مقدَّرٌ لا رادَّ له ، فقال سبحانه : ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾[1] .

﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ أي القَحْطُ وقلَّةُ النباتِ والثمارِ والجوائحُ في الزرع ونحو ذلك ، ﴿ **وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ** ﴾ أي بالأوجاع والأمراضِ وضيقِ المعاشِ ونحوِه ﴿ **إِلَّا فى كِتَابٍ** ﴾ يعني في اللوح المحفوظِ ، ﴿ **من قَبلِ أن نَّبْرَأَها** ﴾ أي من قبل أن نخلُقَ الخليقةَ ، ونبرأَ النَّسَمة ، وقال ابنُ عباس : من قبل أن يخلُقَ المصيبةَ ، وقال سعيد بنُ جبير : من قبل أن يخلُق الأرضَ والنفسَ .

والأحسنُ عوْدُ الضمير في ﴿ **نبْرَأَهَا** ﴾ على الخليقةِ والبريَّة لدلالة الكلامِ عليها كما قال ابنُ جرير ونقلَه ابنُ كثير عنه ، وجاء عن الحسن : كلُّ مصيبةٍ بين السماءِ والأرضِ ففي كتاب اللهِ من قبل أن يبرأَ النسَمةَ – أي يخلقَها – ﴿ **إِنَّ ذَٰلِكَ علَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ أي : إنَّ علمَه سبحانه بالأشياء قبلَ كوْنها ، وإنَّ كتابتَه لها طِبْقَ ما يُوجَد في حِينها سَهلٌ على الله عز وجل ، لأنه يعلمُ ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان ، كيف كان يكون .

---

(١) الحديد : ٢٢

قال ابن عباس : لمَّا خلق اللهُ القلمَ ، قال له : اكتُب ، فكتَب ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ .

ثم أدَّب اللهُ عبادَه لِيتلقَّوا قضاءَ الله بالقَبول والرضَى فلا تَجْزعَ نفوسُهم عند المصيبة ، ولا يغتروا عندَ النعمة ، ولا يَشِحُّوا بالخير والفضل ، فقال سبحانه : ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ أي لكيْلا تحزنُوا على ما فاتكُم من الرزق وذلك أنهم إذا عَلِمُوا أن الرزقَ قد فُرِغَ منه لم يحزَنُوا على ما فاتَهم منه ، وفي الحديث الذي رواه ابنُ مسعود – كما عند القرطبي – « لا يَجِدُ أحدُكم طعْمَ الإيمانِ حتَّى يعلمَ أنَّ ما أَصَابَهُ لم يكنْ لِيُخْطِئَه ، ومَا أخطأَهُ لم يكنْ لِيُصِيبَه » ثم قرأ : ﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ** ﴾[1] أي لكيلا تَحْزَنوا على ما فاتكُم من الدنيا ، فإنه لم يُقَدَّر لكم ، ولو قُدِّرَ لكم لم يَفُتْكُم ﴿ **وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ** ﴾[1] أي : من الدنيا ، أي لا تَفْخَروا على الناس بِما أنْعم اللهُ به عليكم ، فَإنَّ ذلك ليس بسعْيكم ولا بِكَدِّكم ، إنما هُو عن قَدَرِ اللهِ ورزقِه لكم ، فلا تتخذُوا نِعَم الله أَشَرًا وبطَرًا ، تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾[1] أي مُختالٍ في نفسه ، متكبرٍ فخورٍ على غيره .

قال عِكرمةُ : ليس أحدٌ إلا وهو يَفْرَحُ ويَحْزَنُ ، ولكن اجعلُوا الفرحَ شُكرًا ، والحُزنَ صبْرًا ، إذ الحزنُ والفرحُ المنهيُّ عنهما هما اللذان يُتَعَدَّى فيهما إلى مالا يجوز .

ومن صفاتِ المُخْتالين الذين يُبْغِضُهم اللهُ عزَّ وجل أنهم أَشِحَّاءُ بالخير ،

---

(١) الحديد : ٢٣ .

يفعلون المُنكرَ ، ويَحضُّون الناسَ عليه ، ويُعرِضُون عن أمر اللهِ وطاعتِهِ ، وفيهم يقول سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[٢] .

أسأل اللهَ نفسًا به مطمئنَّة ، تُؤمن بلقائه ، وتَرضىٰ بقضائه ، وتقنعُ بعطائه .

* * *

(٢) الحديد : ٢٤ .

٤٥ - هـ - الدنيا في نظر المسلم .

عُنِي الإسلامُ بتصحيحِ نظْرةِ الإنسانِ إلى الدنيا ، إذ الدنيا مَعْبَرُهُ إلى الدار الباقيةِ ، وفيها يَقْضِي ما قُدِّرَ له من السِّنين ، منذُ أن يَرىٰ النورَ حتى تضمَّه الأرضُ بعد أنْ كان يصولُ ، ويجولُ ، ويمشي في مناكبها ساعيًا مجتهدًا فيما قُدِّر له : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾[1] .

وفي أمثالِ الحكماء : الأرضُ تأكلُ مَن كانت تُطعِمُه ، وتُهينُ مَن كانَتْ تُكْرِمُه .

ومن أمثالهم : « مِنَ الدُّنيا علىٰ الدُّنيا دَليلٌ » ... وهـٰذا المَثَـلُ ، ما أَوْجَزَهُ ، وَأَحْكَمَهُ ! فالدنيا لها بدايةٌ ، وإنَّ كلَّ ما له بدايةٌ له نهايةٌ ، والدنيا لم تبْقَ لمن سبقُونا ، فهي إذن لن تبقَـىٰ لنا ، ولن نبقَـىٰ لها ، إذ اللهُ هو الباقي ، أي هو الدائمُ الوجودِ بعد كلِّ شيءٍ بلا انتهاءٍ الذي لا يقبلُ الفناء ، فهو الأوَّلُ بلا ابتداءٍ ، والآخِرُ بلا انتهاءٍ ، سبحانه وتعالى جلَّ شأنُه : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[2] ... ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾[3] وهو سبحانه الوارثُ بعد فناءِ الخلْق ، فترجِعُ إليه الأملاكُ بعد فَناءِ المُلَّاك ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾[4] ، وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[5] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ

---

(١) طه : ٥٥ .

(٢) الرحمن : ٢٧ .

(٣) طه : ٧٣ .

(٤) الحجر : ٢٣ .

(٥) مريم : ٤٠ .

مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] ، سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾[2] .

إن الدنيا لا يركنُ إليها إلا مغرورٌ ، ولا يطمئنُّ لها إلا مخدوعٌ ، أو هي كما قال البُلغاءُ : الدنيا أولُها عناءٌ ، وآخِرُها فناءٌ ، حَلالُها حسابٌ ، وحرامُها عقابٌ ، مَن صَحَّ فيها أَمِنَ ، وَمَن مَرِضَ فيها نَدِمَ ، وَمَن اسْتَغْنَى فيها فُتِن ، وَمَنْ افتقَر فيها حَزِنَ ، وَمَن ساعاها وسابَقَها فَاتَتْهُ ، وَمَن نَظَرَ إلَيْها – وَحْدها – أعمتْهُ ، وَمَن اعتَبَرَ بها بَصَّرَتْهُ .

وَيَلْفِتُ عليٌّ بنُ أَبي طالبٍ إلى عَدم الاطمئنانِ لها ، والركونِ إليها فيمثِّلُها بالحيَّةِ ناعمةِ الملمسِ ولكنَّها خائنةٌ تنقلبُ فتقتلُ ، يقول رضي الله عنه : مَثَلُ الدنيا مَثَلُ الحيَّةِ : لَيِّنٌ مَسُّها ، قاتِلٌ سُمُّها . – بفتح السين وضمها وكسرها –

وفي الحكمة : الدنيا لا تصفُو لشارب ، ولا تبقَى لصاحب ، ولا تخلُو من فِتنة ، ولا تُخْلِي من محنة .

وإنَّ العاقلَ البصيرَ هو الذي يتزودُ منها لآخرته ، ويأخذُ من نفسِه لنفسه ، ويتزودُ من يومِه لغدِه ، ومن صحتِه لمرضِه ، ومن غِناه لفقرِه ، وينظرُ إلى الدائمِ الباقي ، إذ اللذاتُ فانيةٌ وتَبِعَاتُها باقيةٌ : ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[3] .

وقد جاء في الأثر : الدنيا يومان : يومُ فَرَحٍ ، ويومُ هَمٍّ ، وكلاهما زائِلٌ عنك ، فَدَعُوا ما يزولُ ، وأَتْعِبُوا نفوسَكم في العمل لِمَا لا يزول .

---

(١) الحديد : ١٠ .

(٢) الحديد : ٣ .

(٣) الكهف : ٤٦ .

إنَّ الدنيا كما مَثَّلها بعضُ الحُكَماء تُشْبِهُ أَحْلام النائمِ تَنقضي وكأَنْ لم تكُن ، وأعقلُ الناسِ مَن ينظرُ لعمل الآخرة :

أَلا إنَّما الدنْيا كأَحْلام نائمٍ وما خَيْرُ عَيْشٍ لا يكونُ بدَائِمِ
تأمَّلْ إذا ما نِلْتَ بالأمسِ لَذَّةً فأفنيْتَها هَلْ أنتَ إلَّا كَحَالِم

وقَد ضَرَبَ القرآنُ الكريمُ للدنيا أكثرَ من مَثَل ، وقد رسَم في هذه الأمثلة أكثرَ من لوْحة فيها إيجازٌ وإعجازٌ وجمالٌ وقوةُ تأثيرٍ ، ويُبيِّن فيها حقيقةَ الدنيا ، لتبصير ذوى الفطرِ السليمةِ ، وأصحابِ الفكْرِ النيرِّ الصائبِ لعلهم يَرْجِعُون إلى خالقهم ، وَيَفيئُون إلى ظِلَالِ الحَقِّ فيعملُون للدار الباقيةِ ، وَيُحسنون في دنياهم ، ويَبْتغون فيما آتاهم اللهُ الدارَ الآخرةَ ، ويسْعَوْن لدينهم ، وفي إصلاح دُنياهم بما يُمَكِّنهم من حمايةِ الحقِّ ، ورَدْعِ الباطل ، وإرهابِ العدوِّ المتربصِ ، وترقيةِ الأمةِ لتتبوَّأَ المكانةَ اللائقة بها بَيْنَ الأمم .

وإنَّ المثَلَ الذي ساقتْه سورةُ الحديد للدنيا قد أبان الدوافعَ التي تُغري أهلَ الدنيا بالاطمئنان إلى حياتهم ، كما بيَّن سُرعةَ زوالِ الدنيا ، وسرعة ذهابِها بأن شَبَّهها بالنبات الذي ارتفعَ ، وطالَ ، وتطاولَ حتى أَعْجَبَ الزارعين والرَّائين ، وتعلقتْ به قلوبُهم ، ثم سرعان ما اصفرَّ بعد نُضْرة ، وَذَوَىٰ بعد قُوَّة ، ولم يلبَثْ أن تهشَّم ، وتحطَّم ، وتهاوَىٰ ، وتلاشَىٰ .

﴿ **ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا** ﴾[1] .

إنَّها لوحةٌ جميلةٌ ودقيقةٌ وواضحةُ الخطوطِ والمعالِم ، امتزجتْ فيها عناصرُ

---

(١) الحديد : ٢٠ .

متعدِّدةٌ لِتُرِيَكَ حقيقةَ المشبَّهِ الممثَّلِ لهُ ، ولتُحِيطَنا بما يَنْتزِعُ حُبَّ الدنيا من نفوس المبالِغين في حُبِّها ، المتهافِتين عليها ، المتقاتِلين على حُطامِها الفاني ، أَلا تَرَىٰ حَقارةَ الدنيا حين نتأملُ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وحين نتدبَّر : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ وحتى يُزَالَ الغِطَاءُ عن بصائر عشَّاقِ الدنيا يُريهم المَثَلُ صورةَ الغيْثِ يُصِيبُ الأرضَ بمائِهِ فتَخْرُجُ الأرضُ من بركاتها الزروعَ والثمارَ بما فيها من نُضْرةٍ وخُضْرَةٍ وألوانٍ ذاتِ بَهجةٍ ، وثِمَارٍ تَرْغَبُ فيها النفوسُ ، وتَمِيلُ إليها ، وَتُعْجِب الزرَّاعَ ، وتتعلقُ بها الآمالُ ، ثم لا تلبثُ هـٰذه المشاهِدُ الرائعةُ بما فيها من ألوانٍ وجمالٍ وحَرَكةٍ أن تتلاشَىٰ شيئًا فشيئًا ، فتصفرَّ الزروعُ بعد خُضرة ، وتَجِفَّ بعد النضَارة ، ثم تتحطمَ وتزولَ .

وهـٰكذا الدنيا كحُلْمٍ جَميلٍ يَغُرُّ ويَخْدَعُ وفي النهاية إذا أردتَ أن تَقْبِضَ بيديْك على شيءٍ منه تعودُ صِفْرَ اليدين ، خالِيَ الوِفَاض ، فكلُّ ما فيها من أسبابِ اللهْوِ ، واللعبِ ، والتكاثرِ ، والتفاخُرِ ، كلُّه مصيرُه إلى الزوال .

وَيُمَثِّل الرسولُ ﷺ الدنيا وخروجَ الإنسانِ منها بشخص يضَعُ إصبعَهُ في البحر ثم يُخْرِجُه ، وهو مَثَلٌ صادقٌ ، وموافِقٌ للحقيقة ، وموضِّحٌ لها ، فقد جاء عند مسلمٍ والتِّرمذى وابنِ ماجةَ عن قيس بنِ أبي حازم قال : سمعتُ مُسْتورِدًا أخا بَنِي فِهْر ، وهو يقولُ : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « ما الدنْيا في الآخرةِ إلَّا مِثْلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبَعه في اليمِّ ، فَلْيَنْظُرْ : بِمَ تَرْجِعُ ؟ » .. أي ماذا تأخذُ الإصبعُ من ماءِ البحْر .

وكان ﷺ يُبَصِّر أهلَ الإيمانِ بحقيقة الدنيا حتى لا تَشْغَلَهُم عن دينهم ، ولا تفتِنَهم عن طاعة ربِّهم ، ولا يشْغَلَهم ما فيها من لهْو ، ولعِب وتكاثرٍ ، وتفاخُر عن معالي الأمور ، وعن النهوض بأعباء الرسالةِ الكريمة ، وتبعاتِ الدعوة إلى

الله ، والجهادِ في سبيله ، ونشرِ العلمِ والعدلِ ، ولذا كان من دعائه ﷺ : « وَلَا تجعَل الدنيا أكبرَ هَمِّنا ولا مَبْلغَ عِلْمِنا » .

وفي الحديث الذي أخرجه مسلمٌ وبعضُ أصحاب السنن عن أبي سعيد الخدرى أن رسول اللهِ ﷺ قال : « إن الدنيا حُلوةٌ خَضِرَةٌ ، وإن اللهَ مُسْتَخْلِفُكم فيها ، فناظِرٌ كيف تعملون ؟ فاتقوا الدنيا ، واتَّقوا النساء » . زاد في رواية : فإنَّ أولَ فتنةِ بَني إسرائيلَ كانت في النِّساء » .

وعند النَّسائى : « فَما تَرَكتُ بعدِي فتنةً أضرَّ على الرجل من النساء » ولمَّا رآه عبدُ الله بنُ مسعود نائمًا على حصير مضفورٍ ، وقد أثَّر في جَنْبه الشريف ﷺ ، فقالوا له : يارسولَ الله ، لو اتخذنا لك وِطَاءً تجعلُه بينك وبينَ الحَصير ، يَقيكَ منه ؟ فقال عليه السلامُ : « مَالِي وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكبٍ استظَلَّ تحتَ شَجَرةٍ ، ثُم رَاح وتَركَها » أخرجه الترمذىُّ وصحَّحه .

وعند الترمذىِّ وابنِ ماجةَ عن سهل بنِ سعدٍ أن رسولَ الله ﷺ قال : « لو كانت الدنْيا تَعْدِلُ عندَ اللهِ جَناحَ بعوضَةٍ ما سقَىٰ كَافرًا منها شَرْبةً » .

وقد حذَّر النبىُّ ﷺ أصحابَهُ من زَهْرة الدنيا وزينتِها ، أي من بركات الأرض ، وإقبال خيراتِ الدنيا عليهم خشيةَ أن تُضْعِفَ هِمَمَهُم فيما خُلِقُوا مِن أَجْله ، وهو عبادةُ الرحمٰن ، وطاعتُه ، والجهادُ في سبيله ، وَجَعْلُ الدنيا قنطرةً للآخرة ، ومزرعةً لها ، كما أثنىٰ ﷺ على المال إذا أخذه المسلمُ بحقِّه ، ووضعَه في حَقِّه ، وسَخَا في ميادينِ البِرِّ والخيرِ ، وأعطىٰ منه ذوي الحاجة ، ومن توجيهاته في ذٰلك كما عند البخارى ومسلم والنَّسائى : « .. وإنَّ هٰذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ ، وَنِعْمَ صاحبُ المسلمِ هو : لِمَنْ أَعْطَىٰ منه المسكينَ واليتيمَ وابنَ السبيل – أو كما قال رسولُ الله ﷺ – وإنَّ مَن يأخذُه بغير حقِّه كالذي يأكلُ

ولا يشبَعُ ، ويكونُ عليه شهيدًا يومَ القيامة » .

وكما ذَمَّ الإسلامُ الدنيا ، وبين حقارتَها بالأمثال والبراهينِ والآياتِ ليقتلِعَ حُبَّها من قلوب المتهوِّرين في التعلُّق بها ، حتى تعتدلَ النظرةُ إليها ، وتنصرِفَ الهِمَمُ إلى اتخاذِ الدنيا مطيَّةً للآخرة ، كما فعل الإسلامُ ذلك فإنه أثنى على المال وسَمَّاه خيرًا ، وفضلًا ، وجعله سببًا لنيل ما عندَ اللهِ من الرحمة والثوابِ إذا اكتُسِبَ من حلال ، وأُنفِق في حلال ، وانتفعَتْ به البلادُ والعبادُ ، وأُعدِّت به العُدَّةُ لحماية العقيدةِ والمقدَّسات ، وَحَثَّ اللهُ عبادَهُ على السَّعْي في جوانب الأرضِ وعلى اتخاذ الحِرَفِ والمِهَنِ وطَلَبِ العلمِ حتى لا يقعَ المسلمون تحت أَسْرِ الأُمَمِ الماديَّةِ الملْحِدَةِ ، ولنتدبَّر قولَه تعالىٰ : ﴿ **وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾[1] وَإِنَّ المالَ يكونُ خَيرًا ما دام المقصودُ منه طلبَ الحقِّ ، قال تعالىٰ : ﴿ **إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾[2] .. وقال سبحانه : ﴿ **فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ** ﴾[3] ، والمالُ لَمْ يكُنْ خيرًا وفضلًا من اللهِ إلّا لأنه مَكْتَسَبٌ من حِل ، وَيُنْفَقُ فِيما يُرْضِي الرزَّاقَ الوهابَ .

فطُوبَىٰ لِمَن جَعل الدنيا ذريعةً للآخرة ، ومطيةً لنعيمها ، وكانت دنياه عونًا له على طلب رضوانِ اللهِ عَزَّ وجلَّ .

---

(١) القصص : ٧٧ .

(٢) البقرة : ١٨٠ .

(٣) الجمعة : ١٠ .

٤٦ - أ - طوبى لمن استمسك بالعروة الوثقى.

إن الإيمانَ إذعانٌ وخضوعٌ واعتقادٌ جازمٌ بأن اللهَ واحدٌ لا شريكَ له ، وأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن مشابهة المخلوقين ، ومنفرِدٌ بالمُلك والسلطانِ في السمَـٰوات والأرضِ ، وأن له سبحانه كُلَّ صفاتِ الكمال ، وكلَّ نعوتِ الجلال ، وأنه وحده هو الوهَّابُ الرزَّاقُ ، وأن عِلْمَهُ محيطٌ بكل شيءٍ ، وأن له كمالَ القدرة ، وكمالَ الحِكمة ، وكمالَ التدبير .

وإن هـٰذا الاعتقادَ أمرٌ تهدي إليه الفطرةُ ، وتُرشِدُ إليه المشاهداتُ الكونيةُ ، فأماراتُه ساطعة ، والبراهينُ عليه واضحةٌ لا لَبْس فيها ، ولا إبهام ، ففي كل شيءٍ له آيةٌ ... تدلُّ على أنه واحد ، فَمَن هُدِي إلى الإيمانِ الصحيح فقد فاز بالسعادتين ، ومَن أعرض عنه خَسِر الدنيا والآخرةَ ، وذلك هو الخسرانُ المبين .

ولم يُجْرِ اللهُ عزَّ وجَلَّ أمْرَ الإيمان على الإجبار والقسْر ، ولـٰكِنْ على التمكين والاختيار ، قال سبحانه وتعالىٰ من سورة البقرة : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[1] .

﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ أي لا تُكْرِهُوا أحدًا على الدخول في الدين ، فإن الإسلامَ واضحٌ بيِّنٌ ، ودلائلُه وبراهينُه قائمةٌ جليَّة ، لا يحتاج إلى أن يُكرَهَ أحدٌ

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

على الدخول فيه ، بل مَنْ هَداه اللهُ للإسلام ، وشَرح صدرَهُ ، ونَوَّر بصيرتَه دخَل فيه على بَيِّنة ، ومن أَعْمَى اللهُ قلبَه ، وخَتَم على سمعه وبصرِه فإنه لا يُفيده الدخولُ في الدين مُكْرَهًا مَقْسُورًا .

والدينُ في هٰذه الآيةِ هو المعتَقدُ والمِلَّةُ ، والدعوةُ إليه سبيلُها الحُجَّةُ والبرهانُ ، وتَتِمُّ بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ التي تَتفتَّحُ لها القلوب ، وَتُقبِلُ عليها النفوسُ ، وَتُنير للعقل الطريقَ ، وتَهدي الإنسانَ إلى سبل الخير والنجاةِ والفلاح ، قال اللهتعالى : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾[1] .

وفي بيان أن أمرَ الإيمان مبنيٌّ على الاختيار لا على الإكراه يقول اللهُ تعالى : ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ** ﴾[2] .

أي لو شاء اللهُ لقسَرهم على الإيمان ، ولكنَّه سبحانه لم يفعل وبَنى الأمرَ على الاختيار ، وقد تميَّز الإيمانُ من الكفر بالدلائل الواضحة : ﴿ **قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ** ﴾ أي قد ظَهر أنَّ في الإسلام الرُّشْدَ والفلاح ، وأنَّ ما خالفه من المِلل الأُخرى غَيٌّ وضَلال .

﴿ **ٱلرُّشْدُ** ﴾ بالضم والتحريك والرَّشاد : الهُدى وكلُّ خير ، يقال : رَشَد يَرْشُد رُشْدًا ، وَرَشِدَ يَرْشَدُ رَشَدًا : إذا بَلَغ ما يُحِبُّ ، وَغَوَىٰ ضِدُّه ، و ﴿ **ٱلْغَىُّ** ﴾ مصدرٌ من غَوَىٰ يَغْوِي إذا ضَلَّ في معتقَدٍ أو رأْي ، وزوالُ الغَيِّ بالرُّشد ، كما أن زوالَ الجهْل بالعلم .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) يونس : ٩٩ .

وقد رَوى زيدُ بنُ أسلم عن أبيه قال : سمِعْتُ عمرَ بنَ الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أَسْلِمي أيتُها العجوزُ تَسْلَمِي ، إنَّ اللهَ بعَثَ محمدًا بالحق ، قالت : أنا عجوزٌ كبيرةٌ والموتُ إلىَّ قَريب ! فقال عمر اللهم آشْهَدْ ، وتلا : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ** ﴾ « القرطبي مجلد ٢ » .

وَنَقل ابنُ كثير عن ابن أبي حاتم ما رواه مملوكٌ نَصْرانِيٌّ لعمرَ بنِ الخطاب – رضي الله عنه : أن عمرَ كانَ يَعْرِضُ عليه الإسلام ، فيأبَىٰ المملوكُ ، فيقول عمر : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ** ﴾ ثم يقول لمملوكه هٰذا : لو أسلمتَ لاسْتعنَّا بِك على بعض أمورِ المسلمين .

وفي أسباب نزول الآيةِ رَوىٰ أبو داودَ عن ابن عباس قال : نزلت هٰذه الآيةُ في الأنصار ، كانت تكون المرأةُ مِقْلاتًا – أي التي لا يعيش لها ولد – فتجعلُ على نفسها إنْ عاش لها ولدٌ أن تُهوِّده ، فلمَّا أُجْلِيَت بنو النَّضِير – وهم من اليهود – كان فيهم كثيرٌ من أبناء الأنصار ، فقالوا : لا نَدَعُ أبناءنَا ! فأنزل الله تعالى : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ** ﴾ أي مَن شَاء التحق باليهود ، ومَن شاء دخَل في الإسلام ، إذ لا قسْرَ على الدخول في الدين .

قال النحاس : قولُ ابنِ عباس في هٰذه الآيةِ أولى الأقوالِ لصحة إسناده ، وأنَّ مِثلَه لا يُؤخذ بالرأي .

وقد جاء عن ابن عباس – أيضا – من طريق عِكرمةَ : أن رجلا من الأنصار اسمُه الحُصينُ كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلما ، فقال للنبى ﷺ : ألا أَستَكْرِهُهما؟ فإنهما قد أَبَيَا إلا النصرانية ، فأنزل اللهُ : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ** ﴾ رواه ابنُ جرير نقُلا عن محمد ابن إسحاق .

وفي رواية السُّدِّى : أن الحصينَ أراد أن يَبْعَثَ رسولُ الله ﷺ مَن يردُّهما ،

وقد اعتزما الخروج إلى الشام مع جماعةٍ نَّصارىٰ من التُّجار ، فنزلت الآيةُ ، وكما أنه لا إكراه في الدين ، فإنَّ الإسلامَ لا يَرْضَىٰ أن يُفْتَنَ مُسْلِمٌ عن دينه ، ولا يَقْبَلَ أن يَرْتَدَّ أحدٌ بعْد إيمان .

ثم بَيَّنت الآية الكريمةُ بعد ذٰلك أَنَّ من خَلع الأندادَ والأوْثانَ وما يدعو إليه الشيطانُ من عبادة كلِّ ما يُعْبَدُ من دون الله ، ووحَّد اللهَ فعبده وحده ، وشهِدَ أن لا إلٰـهَ إلَّا اللهُ وأن محمدًا رسولُ الله ، فقد أمسك بأوثقِ عُرىٰ النجاةِ باستقامتِه على الطريقة المثْلىٰ ، واهتدائِه إلى الطريق القويم الذي لا يَضِلُّ سالكُه ، ولا يَهْتدِي تاركُه ، فَمَثَلُه مَثَلُ المُمْسِكِ بِعُروة الحبْلِ المحْكَمِ المأمونِ الانقطاعِ لدىٰ حَمْلِ جِسْمٍ كبيرٍ ثقيل ، ولنتدبر : ﴿ **فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ ، وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ ، فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا** ﴾ .

وطاغوت : من طَغَىٰ يَطْغَىٰ – أو طَغَا يَطغُو – إذا جاوز الحدَّ بزيادةٍ عليه ، وهو عند سيبويه : اسمٌ مُذَكَّرٌ مفردٌ كأنه اسمُ جِنْس يقعُ للقليل والكثير وقيل : أصلُ طاغوت في اللغة مأخوذ من الطُّغيان – وهو مجاوزةُ الحدِّ في الشيء – يُؤدِّي معناه من غير اشتقاقٍ ، ويجوز تذكيرُه وتأنيثُه وإفرادُه وجمعُه بحسب المعنى ، فقد يأتي للواحد كما في قوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَد أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ** ﴾[1] وقد يكون جَمْعًا كما في قوله تعالى : ﴿ **أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ** ﴾[2] والجمْعُ : الطواغيت .

والطاغوت : هو الكاهنُ والشيطانُ وكلُّ رأسٍ في الضلال ، وتفسيرُه بالشيطان قَوِيٌّ جِدًّا ، فإنه يشملُ كلَّ شرٍّ كان عليه أهلُ الجاهليةِ من عبادة الأوْثانِ

---

(١) النساء : ٦٠ .

(٢) البقرة : ٢٥٧ .

والتحاكُمِ إليها ، والاستنصارِ بها .

والعُروة : هي مِقْبَضُ الشيءِ الذي يُمْسِكُ به مَنْ يأخذهُ كعُروة الدَّلْو والكُوزِ والحَبْل ونحوِ ذٰلك .

والوُثْقَىٰ : مؤنَّثُ الأوثقُ ، فُعْلَىٰ من الوَثَاقة ، والمقصودُ الحبْلُ الوثيقُ المُحكَمُ ، وَجَمْعُ الوُثْقَىٰ : الوُثْقُ مِثْل الفُضْلىٰ والفُضْلُ .

والانفصامُ : الانكسارُ من غير بينونةٍ ، بخلاف القصْم فإنَّه كسرٌ ببينونة ، قال الجوهرى : فَصْمُ الشيءِ كسرهُ من غير أن يَبِينَ ، تقول : فَصمتُه فانفصمَ وتَفصَّم مثلُه ، ومن معاني الفصامِ : الإقلاعُ ، تقول : أَفْصَمَ المطرُ : أي أقلع .

وفي قوله تعالى : ﴿ **فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا** ﴾ تمثيلٌ للمعلوم والنَّظرِ والاستدلالِ بالمشَاهَدِ المحسوسِ ، وهو العُروةُ من الحبْل الوثيقِ المحكم المأمونِ انفصامُها أي انقطاعُها .

وإنَّ تمثيلَ ما يُدرَكُ بالعقل والنظرِ والاستدلالِ بالمشَاهَدِ المحسوسِ يجعلُ السامعَ يتصوَّرُه كأنَّه ينظرُ إليه بِعَيْنه فَيُحْكِمُ اعتقادَه والتيقُّنَ به .

قال ابنُ كثير : أي فقد استمسكَ من الدِّين بأقوىٰ سبب ، وَشَبَّهَ ذٰلك بالعُروةِ القويَّةِ التي لا تَنفصم ، فهي في نفسها مُحكمةٌ مبرمَةٌ قويةٌ ، وَرَبْطُها شَديدٌ ، لهٰذا قال : ﴿ **فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا** ﴾ .

وقد اختلفت عبارةُ المفَسِّرين في المعنىٰ الذي استُعيرت له العروةُ ٱلْوُثقَى ، فقال مجاهد : العروةُ هي الإيمانُ . وقال السُّدِّىُّ : الإسلامُ . وقال ابنُ عباس وغيرهُ : لا إلٰـهَ إلَّا اللهُ . وقال أنسٌ : العروةُ الوثقى : القرآنُ . وقيل : هو الحبُّ في اللهِ ، والبُغْضُ في الله . وكلُّ هذه الأقوال صحيحةٌ ، ولا تَنافِي بينها لأنها ترجِعُ إلى

معنىً واحد ، وَمَنِ استمسك بهٰذه العروةِ الوثقىٰ ومات عليها كان من أهل الجنَّةِ ، فهي صِراطٌ مستقيمٌ طَرَفُه في أيدينا ومنتهاه الجنةُ بفضل اللهِ عز وجل .

قال معاذُ بنُ جَبل في قوله ﴿ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ أي لا انقطاعَ لها دون دخولِ الجنةِ ، وقال مجاهد : أي لا يغيِّر اللهُ ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ، أي لا يُزِيلُ عنهم اسمَ الإيمان حتَّى يكفروا .

ولما كان الكفرُ بالطاغوت ، والإيمانُ باللهِ مِمَّا يَنْطِقُ به اللسانُ ، ويعتقدُه القلبُ حَسُنَ في الصفات ﴿ سَمِيعٌ ﴾ من أجل النُّطق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ من أجل المعتقَدِ ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ثم جاء بعد ذٰلك تمثيلُ الكفرِ والجهلِ والشُّبْهةِ والشكِّ بالظلام ، كما استُعير النُّور للهُدىٰ والإيمانِ والعِلْمِ والحقِّ والتوفيقِ للحجَّة والبيانِ ، وذٰلك لبيان فضلِ اللهِ على أوليائِه الصالحين وخِذلانِه لأولياءِ الشيطانِ أربابِ الأهواءِ الضالِّين ، ولنتدبر : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1] .

فتأمل الساعِيَ في ظُلمةٍ حائرًا متخبِّطًا ، وانظرْ المهتدِيَ في سَيْره بالنور ، تُدرِكْ شرفَ الإيمان والحقِّ ، وفضلَ الإسلامِ ، وقُبْحَ الإلحادِ والضلالِ والباطلِ .

* * *

(١) البقرة : ٢٥٧ .

٤٧ - ب - أولياءُ اللهِ ... وأولياءُ الشياطين .

لفظُ الوليِّ : على وزن فعيلٍ بمعنَىٰ فاعل ، واللهُ عز وجل وليُّ المؤمنين أي ناصرُهم ومؤيدُهم ومُعِينُهم ، فهو سبحانه يُعين مَن يختارُ الإسلام ، ويُريد أن يؤمنَ حتى يخرجه بلُطفه وتأييده من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالةِ إلى الهُدىٰ : ﴿ **اللهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** ﴾[1] أو : اللهُ وليُّ المؤمنين يُخرِجهم من الشُّبه في الدِّين إن وقعتْ لـهم بما يَهدِيهم وَيُوفِّقُهم له من حَلِّها حتى يَخْرجُوا مِنها إلى نُور اليقين .

ففي الآيةِ الكريمةِ يُخبِرُ اللهُ تعالىٰ أنه يَهْدِي مَن اتَّبع رضوانَه سُبُلَ السلام ، فيُخرِج عبادَه المؤمنين من ظلمات الكفرِ والشكِّ والرَّيب إلى نور الحقِّ الواضحِ الجليِّ المُبين السهلِ المُنير ، وهـٰذا من أعظم النعمِ على عباده الموحِّدين الموفَّقين بفضل اللهِ ، وإحسانِهِ ، وهدايتِهِ لـهم إلى استعمال نعمةِ الدِّين ، والعقلِ ، والحواسِّ على الوجْه الصحيح ، إذ تَتَّجِهُ حواسُّ المؤمنِ البصير إلى النظر في الأكوانِ وإدراكِ ما فيها من بديعِ الإتقان فيزدادُ نورًا ويقينًا وإيمانًا ، كما يتجهُ عقلُه إلى النظر في المعقولات فيزيدُه ذلك سدادًا ورشادًا وهدايةً وتوفيقًا ، وبنظره فيما جاء به الدينُ من الآيات ، وما جاء به الوحْيُ من الحِكَم والأمثالِ والعظاتِ يَتِمُّ للمؤمن ما يصلُ به إلى أَوْجِ سعادتِه ، وَمُنتهَىٰ فوزِه وفلاحِه باتخاذه الأسبابَ الصحيحةَ التي تجعلُه أهلًا لرحمة اللهِ وعَفْوه ورضوانِه .

إنَّ اللهَ عزَّ وجل يُثبِّتُ أولياءَه الصالحين بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويُوفِّقُهم إلى الحقِ والخير ، ويسدِّدُ خُطاهم على طريق الهُدىٰ والنور ،

---

(١) البقرة : ٢٥٧

وإذا عَرضت للمؤمن شُبهةٌ لاح لَهُ شُعَاعٌ من نور الحقِّ يطردُ هٰذه الظُّلمةَ حتى يَخْلُصَ منها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[1] .

أمَّا الكافرون فإنَّ الشياطينَ أولياؤُهم يُخرِجونهم من نور البيناتِ التي تظهر لهم إلى ظُلمات الشكِّ والشُّبهةِ ، وتُزيِّنُ لهم ما هُم فيه من الجهالات والضلالاتِ ، ويَحيدون بهم عن طريق الحقِّ إلى الكفرَ والإفكِ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[2] ، وإن أهلَ الكفرِ على تعدُّد نِحَلِهم وكثرةِ أجناسِهم ومذاهبهم وَفرَقِهم أهلٌ للدخول في النار التي حَكَم اللهُ بها عليهم لكفرهم وضلالِهم عدلًا منه سبحانه ، لا يُسأل عما يَفعل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

ولمَّا كان الحقُّ واحدًا ، والكُفْرُ أجناسًا كثيرةً ، وكلُّها باطلة ، فقد وَحَّد اللهُ تعالىٰ لفظَ النُّور وجَمَعَ لفظ الظلمة « الظلماتِ » : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ فالحقُّ طريقٌ واحدٌ مستقيم ، والباطلُ طُرقٌ متعددةٌ فيها عِوَجٌ وانحرافٌ ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[4] إلى غير ذٰلك من الآيات التي في لفْظها إشعارٌ بتفرُّد الحقِّ ، وبانتشار الباطل وتفرُّقِه وتَشعُّبِه .

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .
(٢) البقرة : ٢٥٧ .
(٣) الأنعام : ١٥٣ .
(٤) الأنعام : ١ .

وقد جاء عن أيوب بن خالد – كما ذكر ابنُ كثير – قال : يُبْعَثُ أهلُ الأهواء – أو قال : يُبْعَثُ أهلُ الفِتَن – فَمَنْ كان هواهُ الإيمانَ كانت فتنتهُ بيضاءَ مُضِيئةً ، ومن كان هَواه الكفرَ كانت فتنتُه سوداءَ مظلمةً ، ثم قرأ هٰذه الآية : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ .

بعد أن أثبتت الآيةُ الكريمةُ أن اللهَ وليُّ الذين آمنُوا وأن الطاغوتَ وليُّ الكافِرينَ ضَرب اللهُ عز وجل بعد ذٰلك مثلًا لتأييد تلك القضيةِ ، وليقومَ شاهدًا على صِدْقها ، ودليلا على صِحَّتها ، فبين سبحانه وتعالى أن نبيَّه إبراهيمَ عليه السلامُ : كيف وفَّقَهُ اللهُ عزوجل وتولاه بِوَلَايته إلى الحُجَج القيمةِ التي أزال بها تلك الشبهاتِ التي عَرَضَها عليه خصمُه حتى فاز عليه وَفَلَجَ بِحُجَّته ، وأنَّ الذي حاجَّ كيف عَمِي عن نُور الحق ، فانتقل من ظلمة من ظلماتِ الشكوكِ والأوهامِ إلى أخرى ، وتردَّىٰ في مَهاوِي الهلاكِ بِوَلَاية الطاغوتِ له .

ولنتدبر قولَه تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِى حآجَّ إبراهيمَ فى رَبِّهِ ﴾ الاستفهامُ للإنكار والتعجُّب ، وفي الكلام تعجيبٌ من مُحَاجَّةِ نمروذَ في الله وكُفْرِه به ، وذٰلك أن نمروذَ بنَ كنعانَ مَلِكَ بابِلَ أنكرَ أن يكون ثَمَّ إلٰهٌ غيرُه ، كما قال فرعونُ لملئِه ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾[2] وما حَمَل نمروذُ علىٰ هٰذا الكفرِ والطغيانِ والمعاندةِ

(١) البقرة : ٢٥٨ .

(٢) القصص : ٣٨ .

الشديدةِ إلا تجبُّره وطولُ مُدَّتِه في حُكمِ الناسِ ، لأنه يُقال : إنه مَكثَ أربعَمائةِ سنةٍ في مُلْكه ولِهذا قال تعالى : ﴿ أَنْ ءَاتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ وكأنه طَلب من إبراهيمَ دليلًا على وجود الربِّ الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيمُ : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي الدليلُ على وجوده سبحانه حدوثُ هٰذه الأشياءِ المشاهدةِ بَعْد عَدمِها ، وعدمُها بعدَ وجودِها ، وهٰذا دليلٌ على وجود الفاعلِ المختارِ ضرورةً ، لأن الوجودَ بَعْد العدمِ ، ثم العَدمَ بعد الوجودِ لا يمكن حدوثُه بنفسه ، لأن هٰذه الأشياءَ لابُدَّ لها من مُوجِدٍ أوجَدها ، وهو الربُّ سبحانه الذي يدعو إبراهيم عليه السلام إلى عبادته وَحْده لا شريكَ له ، فعند ذٰلك قال المُحَاجُّ أي المُجَادِل – وهو النمروذُ: ﴿أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾. قال ابنُ كثير وإنما أراد النمروذُ أن يَدَّعِيَ لنفسِه هٰذا المقامَ عِنادًا وَمُكابرةً، وَيُوهِمَ أنَّه الفاعلُ لذٰلك، وأنَّه هو الذي يُحيي وَيُميت ، كما اقتدىٰ به فرعونُ في قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ ولهذا قال له إبراهيم لَمَّا ادَّعىٰ هذه المكابرةَ : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ أي : إذا كنتَ كما تَدَّعِي من أنك تُحيي وَتُميت ، فالذى يُحْيِي ويُميتُ هُو الذي يَتصرَّفُ في الوجود : في خَلْقِ ذَواتِه وتسخيرِ كَواكبه وحركاتِه ، فهٰذه الشمسُ تَبدو كلَّ يومٍ من المشرِقِ ، فإن كنتَ يانمروذُ إلٰهًا كما ادَّعيْتَ تُحيي وَتُميت ، فأْتِ بالشمس من المغرب ، فَلَمَّا عَلِم نمروذُ عَجْزَه وانقطاعَهُ ، وأنَّه لا يَقْدِر على المكابرة في هٰذا المقامِ بُهِتَ ، أي : أُخْرِس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجةُ ، قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي : لايُلهِمُهم حجَّةً ولا بُرهانًا ، بل حُجَّتُهم داحِضةٌ عند ربِّهم ، وعليهم غضبٌ ، ولهم عذابٌ شديد .

وعلى هٰذا فالمقامُ الأوَّل الذي قال فيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ فأجابه النمروذ : ﴿ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ كان هذا المقامُ

كالمقدِّمة لِلْمقَام الثاني الذي بُهِتَ فيه النمروذُ ودَهِشَ ، ولم يَجِدْ جَوابا وكأنما أَلْقَمَهُ إبراهيمُ حَجَرًا ، وَيُبين هٰذا المقامُ بطلان ما ادَّعاه النمروذُ في هٰذه المناظرةِ ، فقد انقطعت حجةُ هٰذا الكافرِ ، ولم يُمكِنْه أن يقولَ : أَنا الآتي بِها من المشرِق ، لأنَّ ذوي العقولِ يكذِّبونه .

إن النمروذَ هو صاحبُ النارِ والبعوضةِ ، وقد أَدَّاه طيشُه وإعراضُه عن قبول الهِداية ، وتكبُّرُه عن عَدَمِ نظره في الدلائل التي تُوصِّلُ إلى معرفة الحقِّ ، واستسلامِهِ للطاغوت ، واتباعِه لهواه ولشهواتِه التي زَيَّنَتْ له الغرور ، أَدَّاه هٰذا إلى الهلاك والعذابِ في الدنيا والخلودِ في نار جَهنَّمَ في الآخرة . لقد فتح اللهُ تعالىٰ عليه بابًا من البعوض فستَروا عينَ الشمس ، وأكلوا عسكَره ، ولم يتركوا إلا العظامَ ، وَدَخَلت واحدةٌ منها في دِماغه فأكلته حتى سَمِنَت البعوضةُ وصارت مِثلَ الفأرة ، فكان أعزَّ الناسِ عند النُّمروذ بعد ذٰلك من يضرِبُ دماغَه بِمِطْرَقةٍ عتيدةٍ لذٰلك ، فبقِيَ في البلاء مدةً اختلَفت الرواياتُ في تقديرها فكان يُضْرَبُ رأسُه بالمِرْزاب في هٰذه المدةِ كُلِّها حتى أهلكه اللهُ بها ، وانتقل النمروذُ بعد هٰذا الشقاءِ في الدنيا بسبب الكبرِ والغرورِ إلى عذابِ القبرِ وَضَمَّتِه التي تَخْتلِفُ بها أضلاعُهِ ، ثم الخلودِ بعد ذٰلك في عذاب جهنمَ وبئس المصير .

فطوبَىٰ لمن تدبَّر الأمثال ، وتفكَّر في الآياتِ ، وأذعنَ للحقِّ ، ووحَّدَ ربَّه ، واتَّبَعَ نبيَّه ﷺ .

لقد أثبت إبراهيمُ عليه السلامُ في هٰذه المناظرةِ أنّ لهٰذا الكونِ إلٰهًا واحدًا قادرًا على كل شيءٍ ، وأنَّه سبحانه لا شريكَ له في المُلك والتدبير ، وقَدَّم إبراهيم عليه السلامُ الدليلَ الذي يُنير للعقل طريقَه ، وألزم الخصْمَ الحجَّة ، وما زال البرهانُ قائمًا إلى يوم القيامة يدعو ذوي الأفهامِ من كل لغةٍ وجنسٍ إلى التفكرِ والتأمُّل طلبًا للحق ، وللرِّضىٰ به والإقبالِ عليه ، والإيمانِ به ، فمن اهتدىٰ

فلنفسه ، ومن عَمِيَ وضَلَّ فعليها ، واللهُ عز وجل مُحْصٍ على العباد أعمالَهم ومجازِيهم عليها .

وإن حِوار إبراهيمَ عليه السلامُ مع النمروذ يدلُّ على إثبات المناظرةِ والمجادلةِ بالتي هي أحسنُ وإقامة الحجة ، وفي القرآن الكريم والسنةِ النبويةِ من هٰذا كثيرٌ لِمَن تَأَمَّلَهُ ، قال الله تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[2] أي ليس عندكم حجةٌ بهٰذا .

وقد وصف القرآنُ خصومةَ إبراهيمَ عليه السلام قومَهُ وردَّهُ عليهم في عبادة الأوثانِ ، وإثباتِ الوحدانيةِ بالبرهان في عِدَّهِ سُور مِثْل : الشعراءِ والأنبياءِ والصافاتِ ، وقال سبحانه في قصة نوح : ﴿ **قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا** ﴾ الآيات إلى قوله سبحانه : ﴿ **وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** ﴾[3] من سورة هود ، وجادل رسولُ الله ﷺ أهلَ الكتاب وباهَلَهُمْ بعْد الحُجَّة ، وإن الاحتجاجَ بالعِلم مُباحٌ شائعٌ ، ولنتدبر : ﴿ **فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ** ﴾[4] .. فإذا أُريد بالمناظرة وَجْهُ اللهِ ، وكانت بين متقارِبَيْن أو مُسْتَوِيَيْن في مرتبةٍ فكريةٍ من العقل والفهمِ والإنصافِ ، وظَهَرالحقُّ بين المتناظِرَيْن ، وَقُبِلَ بعد ظُهوره كانت المناظرةُ خيرًا وبركةً وآتَتْ أعظمَ الثمار ، وإن لم يتحقق ذٰلك كانت مِراءً ومُكابرة .

---

(١) البقرة : ١١١ .

(٢) يونس : ٦٨ .

(٣) هود : ٣٢ : ٣٥ .

(٤) آل عمران : ٦٦ .

٤٨-أ- ولنجعلك آيةً للناسِ

سبحان الذي أوجدنا من العدَم . سُبحان مَن يُحْيي العِظامَ وهي رَميم ، سبحان ذي العظمةِ والجلالِ يقول للشيء كُن فيكون .

إنَّ قضية البعْثِ وإحياء اللهِ الناسَ بعد الموت قضيَّةٌ شَغَلت الناسَ قديما وحديثا ؛ فمنهم مَن آمَنَ ، ومنهم مَن كَفَر ، وقد أرسل اللهُ عزَّ وجلَّ الرسل ، وأنزل الكتبَ ، لهداية البشرِ ، وإرشادِهم ، وإصلاحِ نُفوسِهم ، وتنميةِ حياتِهم بالخير والبرِّ ، وإقامة الدليلِ على أن هناك حياةً أُخرى أبديةً بعد هذه الحياةِ الدنيا الفانية ، وأنَّ الناس كما أَوْجَدهم خالقُهم من العدم سَيُحييهم بعد موتهم : ويُحاسبُهم على أعمالهم ، لِيَجْزِيَ المحسِنَ بإحسانه ، والمُسِيءَ بإساءته .

إنَّ قضيةَ البعث هي قضيةُ مستقبلِ الإنسان ، إذ بعد هذه الحياةِ إمَّا نَعيم ، وإمَّا عذاب ، ولذا فإن أهلَ العقلِ والحِكْمةِ لأَنْفُسِهم يَمْهَدُون ، وللسعادة الأخرويةِ يعملون ، لا تَشْغَلُهم الفانيةُ عن الباقية ، ولا تَخْدعُهم العاجلةُ عن الآجلة .

إنَّ خصوم قَضيَّةِ البعْث هم أولئك الذين أَضَلَّتهم الشُّبُهاتُ ، وغَرَّتْهم الحياةُ الدنيا ، ولم يُؤمنوا بعالم الغيْب ، وأنكروا وجودَ اللهِ الخالقِ الحكيمِ المدبِّرِ العظيم ، الذي نطقت مصنوعاتُه بوحدانيته وعظمَتِهِ وكمالِ قدرتِهِ وسلطانِه ؛ ومن

هـٰؤلاء مَن عُرِفُوا باسم : الطبيعيين والدَّهريين الذين قالوا : إن هي إلَّا أرحامٌ تَدْفَعُ ، وأرضٌ تَبْلَع ، ومايُهْلِكُ الناسَ إلا الدهرُ .

وقد حَكَـٰى القرآنُ الكريمُ عن هـٰؤلاء مُبيِّنا بُطلان معتقداتِهم ، داحضًا أوهامهم ومزاعِمَهم بالدليل والبُرهان وبِضَرْب الأمثالِ . قال تعالـٰى من سورة الجاثية عن هـٰؤلاء : ﴿ **وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾[1] . ومن سورة الصافات : ﴿ **أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ** ﴾[2] ، ومن سورة الدُّخان يقول سبحانه : ﴿ **إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ** ﴾[3] وفي معظم سُورِ القرآن الكريم تأتِي قضيَّةُ البعْثِ وَيُقام عليها الدليل ، وَيُبَصَّرُ العبادُ بِما بعْد الموت ، وَيُلْفَتُون إلى كمال قُدرةِ الخالق ، وكمالِ حكمتِه ، وكمالِ علْمِه وسلطانِه .

ومن خصوم قضيةِ البعثِ الشيوعيون والوجوديون وسائرُ المادِّيِّين في عصرنا الحاضر مِمَّن لا يعترفون إلا بالوجود المادىِّ الذي تقعُ عليه العينُ أو تلمسُه اليَدُ ، أو يُشَمُّ بالأنف ، أو يُذاق باللِّسان ، أو تَسمعُه الأُذنان ، ويكفرون بالغيْب ، وبالمُثُل النَّبيلةِ ، والقِيَمِ العُليا التي جاء بها رسلُ اللهِ الكرام عليهم الصلاةُ والسلامُ لإصلاح الإنسان ، وترقيةِ حياتِه بجانبيها الروحىِّ والمادىِّ ، وخاتمُ الرسلِ هو النبىُّ محمدٌ ﷺ وهو مبعوثٌ إلى الناسِ كافة .

إنَّ التقدمَ العقلىَّ في العصر الحاضرِ غَرَّ كثيرا من الناس ، فأسلَمُوا الزمامَ

---

(١) آية : ٢٤ .

(٢) الآيات : ١٦ : ١٨ .

(٣) الآيتان : ٣٤ و ٣٥ .

للعقل وحْدَه مِمَّا أَدَّىٰ إلىٰ وضْع الناسِ على حافَّةِ هاويةٍ تُوشك أن تدمِّرَ حياتَهم تدميرًا بسبب الأحقاد التي تَغْلِي وتَفور في الصدور ، وبسبب الفسادِ الذي استشْرَىٰ في عالَم المدنيةِ المعاصرةِ مِمَّا لا يُنْكَرُ شرُّه ، ولا يَخْفَىٰ على أحَدٍ ضَرَرُه وضَرَاوتُه ، وَإِنَّ العقلَ لا غِنَىٰ له عن الوحْي والانقيادِ لِمَا جاء به رسلُ اللهِ الكرام ، ولقد أقام القرآنُ الكريم البراهينَ يخاطب بها العقْل ، وَيَهْدي بها القلبَ ، ولَفَتَ ذوي الألباب إلى الأدلةِ القائمةِ في نفس الإنسان ، وفي الآيات الكونيةِ في السمواتِ والأرضِ على وجود الخالقِ ووحدانيتِه ، وعلى أنَّ البعْثَ آتٍ لا ريْبَ فيه ، فكما يُحْيِي اللهُ الأرضَ الميتةَ فإنَّه سبحانه وتعالىٰ يُعيدُ الإنسانَ إلى الحياة بَعْد موتِه : ﴿ **وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ** ﴾ فاطر : ٩ .

ويقول سبحانه : ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ فصلت : ٣٩ .

إنَّ القرآنَ الكريمَ يُنير للعقْل طَرِيقَه ، ويُرشِدُه ، وَيُسَدِّدُه ، وقد قَدَّمَ البراهين التي تَجْلو قضيةَ البعث ، وتجعلُ الحُكْمَ فيها قاطعًا حاسِمًا لا يَأتيه الباطلُ من بيْن يديْه ولا من خَلْفِه ، ولا يَرتابُ فيه إلَّا مَن خَتَم الله على قلبِه وسمْعِه ، وَغَطَّى على بَصَرِه وبَصِيرته .

وهٰذا مَثَلٌ قرآنيٌّ : يتضمنُ آيةً ملموسَةً علىٰ البعْث والنُّشور ويُقَدِّمُ الدليلَ القاطع ، والبُرهانَ الساطعَ عليها ، يقول الله عز وجل من سورة البقرة : ﴿ **أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ**

حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِير ﴾ آية : ٢٥٩ .

عَقَّبَ التِّرمِذيُّ علىٰ هٰذا المَثَلِ القُرآنيِّ ، فقال : أَمَرَ اللهُ هٰذا الَّذي تَحَيَّرتْ نَفْسُه أن يَنْظُرَ إلى حِمَارِه كيف أحياه اللهُ ، فأراه اللهُ بِمَا حَضَرَهُ مَا غَابَ عنْهُ(١)

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ الكافُ في قوله : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى ﴾ بمعنىٰ مِثْل ، و﴿أَوْ﴾ للعطْف ، أي أوْ مِثْل الذي ، والقَرْيَة : الضَّيْعَةُ والمِصْرُ الجامعُ من قولهم : قَرَيْتُ الماءَ أي جَمَعتُه ، ولذا سُمِّيتْ القريةُ قَرْيةً لاجتماع الناسِ فيها ، والخاويةُ : الخَاليةُ ، أي ليس فيها أحدٌ من قولهم : خَوَتِ الدارُ تَخْوِي خَوَاءً وَخُوِيًّا .

وقولُه ﴿ علىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي ساقطةٌ سقوفها وجُدْرَانُها على عَرَصَاتِها(٢) والعَرِيش : سَقْفُ البيْتِ ، وكلُّ ما يُتَهَيَّأُ لِيُظِلَّ أو يُكِنَّ فهو عَرِيش .

فَوَقَفَ المَارُّ أمامَ مَشْهَد القريةِ مُتَفكِّرًا فيما آلَ إليه أمرُها بعد العِمَارة العظيمةِ ، وقال : ﴿ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وذلك لِمَا رأىٰ من دُثُورِها ، وَشِدَّةِ خَرَابِها ، وَبُعْدِها عنِ العَوْد إلى ما كانتْ عليه .

وَقَدْ أُبْهِمَ هٰذا المَارُّ ، كما أُبهِمَت القريةُ ، فلم يُذْكَر مكانُها وأصحابُها ، بل اقْتُصِرَ علىٰ الوصْف الذي به تُقَرَّرُ الحجَّةُ حتَّىٰ لا يَشْغَلَ

---

(١) من مخطوطة الترمذى الحكيم . المجلد الثاني صفحة ٩٢٧ (نقلا عن الأمثال في القرآن لمحمود بن الشريف) نشر دار المعارف .

(٢) عَرَصات : جمع عَرْصة وهي ساحةُ الدار ، والبُقعَة الواسعةُ بين الدور لابناء فيها ، وجمع التكسير عِرَاص .

القارئ أو السامعَ عنها شاغِلٌ ، فهو من الاختصار البليغ لينصرفَ التأمُّلُ إلى مواطنِ العبرةِ والعظةِ ، وقد اجتَهد المفسِّرون في البحْث عن القرية وَعَمَّن مَرَّ بها ، وقد نَقلوا عن جَمْع من الصحابة والتابعين أنه « عُزَيْر » ومنهم من قال : إنه إرْمياء وكان نَبيًّا ، وقيل غيرُ ذلك ، أمّا عن القرية فَمِن قائل : إنها بيْتُ المقدِس مَرَّ عليها بعد تَخريبِ بختنصرَ لَها وَقَتْلِ أهلِها ، وقيل : إنها القريةُ التي خَرَج منها الألوفُ حَذَر الموتِ : وقيل : إنها قريةٌ على شاطئ دِجْلةَ جاءها عُزيرُ فَنزل تَحْت ظلِّ شجَرةٍ ، وهو على حِمَارٍ لهُ ، فَرَبَط الحِمَار تحتَ ظِلِّ الشجرةِ ثم طاف بالقرية ، فلم يَرَ بها ساكنا ، وهي خاويةٌ على عُروشها ، فقال : أَنَّىٰ يُحيى هَـٰذه اللهُ بَعْد مَوْتِها ؟ يَتَعَجَّبُ من ذلك ، وَيَعُدُّه غريبا لا يكاد يَقَع ، وضرب اللهُ له المثَلَ في نَفْسِه بما هو أعظمُ مِمَّا سأل عنه : ﴿ **فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ** ﴾ أي أحياه بعد أن أَلْبَثَهُ مِائَةَ سنةٍ مَيِّتًا ، وقد عُمِّرَت القريةُ بَعْد مُضيِّ سبعين سنَةً من مَوْتِه ، وتكامَلَ ساكنُوها ، فلما بعثَه اللهُ – كما جاء عند ابن كثير – بعد موته ، كان أولَ شيءٍ أحيا اللهُ فيه عيناه لينظُرَ بهما إلى صُنْعِ اللهِ فيه ، كيف يُحيي بَدَنَه ؟ فلمَّا استقلَّ سويًّا قال اللهُ له ، أي بواسطة المَلَك ﴿ **كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ قالوا : وذلك أنَّه ماتَ أولَ النهار ، ثم بَعَثَه اللهُ في آخر نَهَارٍ ، فلمَّا رأى الشمسَ باقيةً ظَنَّ أنها شمسُ ذلك اليومِ ، فقال : ﴿ **أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ أي لم تُغيِّرْهُ السِّنُون والأعوامُ أي طعامُك وشرابُك باقٍ علىٰ طراوته وغَضارته .

وذلك أنه كان معه فيما ذُكِر ، عِنبٌ وتينٌ وعصيرٌ ، فوجده كما كان لم يَتَغَيّر منه شيء ، لا العصيرُ استحالَ ، ولا التينُ حَمُضَ ولا أنتنَ ، ولا العِنبُ تعفَّن .

﴿ **وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ** ﴾ أي كيف يُحْييه اللهُ عزَّ وجل وأنت تَنظُر ،

وانظُر إلى اتِّصالِ عِظَامِه وإحيائِه جُزءًا جُزءًا ، وَيُرْوَىٰ أنه أحياه اللهُ كذلك حتَّى صَار عِظَامًا مُلتئمةً ، ثم كَسَاه لحمًا ، حتى كَمُل حِمَارًا ، ثُمَّ جاءه مَلَكٌ فنفَخَ فيه الرُّوحَ فقام الحمارُ يَنْهَقُ ، وعلى هذا أكثرُ المفسِّرين .

وقيل : بل قيل له : وانظُر إلى حمارك قائمًا في مَرْبِطِه لم يُصِبْه شيءٌ مائةَ عام ، وإنما العظامُ التي نَظَر إليها عظامُ نَفْسِه بعد أن أَحْيا اللهُ منه عَينيه ورأسَه ، وسَائِرُ جَسَده ميِّتٌ ، قالوا : وَأَعْمَىٰ اللهُ العُيُونَ عن عُزَير وَحِمَارِه طولَ هٰذه المدَّة .

واللهُ أعلم .

* * *

٤٩ - ب - إن لنا في قصة عُزير والقرية لعبرًا .

جعل اللهُ عَزَّ وجَلَّ قصةَ عُزير آية لذوي العقولِ والبصائرِ ، وبُرهانًا ساطعًا على المَعَاد ، ودليلًا شاهدًا على أنَّ البعثَ بعد الموتِ وتفرُّقِ العِظَامِ آتٍ لا رَيْبَ فيه .

لقد مَرَّ عُزيرُ على قريةٍ فرآها وقد سقطت سقوفُها ، وانهارت جدرانها ، وخَلَت من الأحياء ، وصارت شديدةَ الدُّثورِ والخرابِ ، فوقف الرجُلُ مُتأمِّلًا ، مُتفكِّرًا ، مُتعجِّبًا من أَمْر هٰذه القريةِ ، مُتَسائلًا في نفسه : كيف يُحْيي اللهُ عَزَّ وجَلَّ هٰذه بعد موتِها ؟ فأراه اللهُ عزَّ وجلَّ آياتٍ بيناتٍ في نفسه وفيما حوله : إذْ أماته اللهُ مائةَ عامٍ ، ثم أحياه بعد أن فقَد الحِسَّ والحركةَ هٰذه المدةَ كلَّها ، فرأىٰ حولَه عجَبا ، رأىٰ القريةَ وقد عادت إليها الحياةُ والحركةُ والعمرانُ والخُضْرَةُ في أثناء هٰذه المدةِ ، ورأىٰ الناسَ فيها يَغْدُونَ ، وَيَروحونَ فيها ، كلُّ واحدٍ مِّنهم يسعَىٰ ، ويعملُ فيما يُسِّرَ له .

لقد جاءت هٰذه القصةُ بعد أن ذَكَر اللهُ عز وجل مُحَاجَّةَ إبراهيمَ عليه السلامُ لذٰلك الكافرِ الذي ادَّعَىٰ لنفسه الربوبيةَ ، وبعد إلزامِ هٰذا الكافرِ الحجةَ ، وبعد إقامةِ الدليلِ على أن لهذا الكونِ إلٰهًا واحدًا قادرًا على كلِّ شيءٍ ، وهو سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه ، ولا شريكَ له في المُلك والتدبير ، جاءتْ قصةُ عُزَير والقريةِ وما تضمنته من الغرائب والعجائب والعِبَر لإثبات البعْثِ والنُّشورِ بالدليلِ والبرهانِ الذي يَزِيدُ المؤمنَ إيمانًا ، وَيُخْرِجُ ذوي البصائرِ من ظلمات الشُّبَهِ إلى نورِ اليقين ، ويأخذُ بأيديهم من مسالكِ الحَيرةِ إلى استقامة

الفِكْرِ ، وطمأنينةِ القلبِ بما يُثْلِجُ الصدرَ ، ويملأُ النفسَ إيمانًا وسكينةً .

وما أعظَمَ فضْلَ اللهِ على أوليائه وأحبائهِ إذْ يَهديهم ، وَيُبصِّرُهم ، ويوفقُهم ، ويُخرجُهم بفضله وإحسانه من الحَيْرة التي تَعْرِضُ لهم إلى بَرْدِ الطمأنينةِ التي تُنيرُ القلبَ ،وتملؤه يقينًاوَثِقةً ،وهٰذامن أعظم النعمِ على الإنسان أن يُرزَقَ نفسًا مطمئنةً تُؤمِنُ بلقاءِ اللهِ ، وترضَىٰ بقضائه ، وَتَقْنَعُ بِعطَائِه ، وَتَسْعَىٰ في مرضاتِه سبحانه وتعالى ، وَتُفكِّرُ في آلائه ، وَتَعتبرُ بالحوادث ، وبمرور الأيامِ ، وتوالي الشهورِ والأعوامِ ، وانقضاءِ الأعمار ، وتعاقبِ الليلِ والنهار .

وفي قصة عُزير ما يَلفِتُ ذوي الأفهام إلى ضرورة الفِكْر في عجائب الكونِ ، وفيما يُصيب الإنسانَ ، وفي تَقَلُّب الأحوالِ ، والتغيُّرِ الذي يَطرأ على العُمران ، والتبدُّلِ الذي يُشَاهَد في الأرض الموات وقد أُرسلت السماءُ إليها الماءَ مِدرارًا ، أو امتدَّت إليها الأسبابُ بإجراء الماءِ ، وشقِّ الأنهارِ والقنوات ، وإخراجِ الماءِ من العيونِ ، وقد حثَّ الله عز وجل عباده على التفكُّر في ذٰلك وغيرِه ليُعِدُّوا أنفسَهم للحياة الأبديةِ بالإيمانِ الصحيح ، والعملِ الصالح ، واستقامةِ الفِكْر ، وطهارةِ النفسِ والقلبِ ، حَثَّ اللهُ عباده على التأمُّل بمثْلِ قوله تعالى من سورة الأنعام : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ** ﴾[1] .

ولنتدبَّر قوله سبحانه وتعالى من سورة فُصِّلَت : ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا**

---

(١) الآية : ٦ .

لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

وفي سورة الحجِّ في سياق إثباتِ البعثِ بعد الموتِ يقول سبحانه : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ، وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[2] .

وهٰذه آياتٌ بيناتٌ يراها الناسُ في كل مكانٍ وزمانٍ ،وإنَّ العاقلَ حقًّا هو الذي يُحيي قلبَه بماءِ التوحيد النقيِّ الخالصِ فيهتفُ دوما : سبحان مَن يُحيي الأرضَ بعد موتها ، سبحان مَن يُرسِلُ السماءَ مِدرارًا ، ويُجْرِي الأنهارَ ، وَيُفَجِّرُ العُيونَ ، سُبحان القويِّ القادرِ على كل شيءٍ . سبحان مَن يُحيي العِظامَ وهِيَ رَمِيمٌ .

إن العاقلَ البصيرَ يُدير فكرَه فيما حوله ، وفيما يقعُ عليه بصرُه وَحِسُّه ليعتبرَ ويزدجرَ ، ويقولَ كما قال عُزير : ﴿ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وكما قال إبراهيمُ – عليه السلام – : ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ .

وإن في عصرنا الحاضرِ لَعِبرًا ، وإنَّ في الحوادثِ والغِيَرِ التي مرَّت بنا لآياتٍ وبراهينَ ناطقاتٍ بوجود الخالقِ العظيمِ ووحدانيته وقدرته ، وبأن البعثَ بعد الموتِ آتٍ لا ريبَ فيه .

فكم مِن مُدنٍ وقُرىً كانت آهلةً وعامِرةً وقد خَرَّت على عُروشها بسبب الحروب والفِتَنِ ؟ فصارت كأن لم تَغْنَ بالأمس ! أو بسبب الزلازل والبراكين !

---

(١) الآية : ٣٩ .

(٢) الآيات : ٥ : ٧ .

وإن مسألةَ التصحُّر التي شغلت الناسَ في عصرنا الحاضرِ وحيَّرت الألبابَ لَمِنَ الآيات الكونيةِ الدالةِ على عَجْزِ البشر ، وعلى أن لهٰذا الكونِ مدبِّرًا حكيما يَخْتَبِر عبادَه بالشرِّ والخير ، فَمَن اعتبر وأحسَنَ فلنفسه ، ومن غَفَل وأساء فعليها .

إنَّ قصةَ القريةِ التي خَوَتْ على عُروشها ، وذَهبت عنها نضارةُ الحياة ، وحركةُ الأحياءِ لَتدعونا إلى التفكُّر في زحْفِ الصحراءِ الذي أصاب دولَ الساحلِ الأفريقي لسنوات متواليات ، ودعا ذوي الضمائرِ على مستوى الأفرادِ والجماعاتِ والهيئاتِ إلى المبادرة لتقديم العونِ لأهل هٰذه المناطقِ على قدْر الجُهدِ والطاقة ، وقد جَفَّ الضرع ، وذَبُل الزرعُ ، واحترقت الأرضُ بلهيب الشمسِ ، وأمسكت السماءُ ماءَها فلم تُرْسِلْه مِدرارًا ، وغار الماءُ في العيون ، فحاول الإنسانُ إخراجَه مُستعينًا بما أعطاه اللهُ من العِلم عن طريق بناءِ الآبارِ « الارتوازية » ، وَمَدِّ الأنابيبِ مجتهدًا في ذٰلك ما شاء اللهُ له أن يجتهِدَ ولكنَّ الأمر كان أقسىٰ وأشدَّ فلَحِق الناسَ من الشدَّة والضنْكِ والضيقِ ما شاء اللهُ أن يَلحقَهم ، وعاش الناسُ سِنينَ عِجافًا كسِنِي يوسفَ عليه السلامُ أو أشدَّ .

لقد مَرَّت هٰذه السنونَ على الناس في عدد من الدول وعلىٰ كثير من الناس مِمَّا رأيناه ، وسمِعْنا عنه ، وَنُقِلَت إلينا أخبارُه مرئيةً ومسموعةً ومقروءةً ، وقد أذاب ذٰلك الحَشَا ألمًا وَحُزنا ومشاركةً وِجْدانيةً لإخوانٍ لنا ، ولٰكنَّ السؤالَ الذي ينبغي لنا التفكُّرُ فيه : كَم مِن مُعتَبرٍ عاد إليه رشْدُه ، فآمن بربِّه ، ووحَّد خالقَه ، وصَرف جُهْدَهُ وقوَّتَه فيما ينفعُ به نفسَه آجلًا وعاجلًا ، واستقام على طريق الخير والهُدىٰ مسترشدًا بدين اللهِ عز وجل الذي رَضِيَه سبحانه لعباده ،

وهو دينُ الإسلامِ ، وهو دينُ إبراهيمَ الخليلِ وجميعِ الأنبياءِ والمُرْسَلين ، وقد بعث اللهُ عز وجل به خاتَمَ رسلِه ، وصفوةَ أنبيائِه محمدًا ﷺ ليجمعَ الناسَ على طريقٍ واحدٍ ، وليأخذَ بأيديهم إلىٰ سبيلِ النجاةِ والفوزِ بما يُحقق لهم خيْري الدنيا والآخرة ؟ .

كم من إنسانٍ عَدَّلَ سلوكَه ، فاتَّقىٰ ربَّه ، وانْزجر عن الهوىٰ ، وفَرَّ من الشبهات ، وترك الشهواتِ المحرَّمةَ ، وأطاع ربَّه وعبدَه وَحْده ، وأدَّىٰ فرائضه ، ونافس في الخيراتِ والمبراتِ وقد قوي إيمانُه بأنَّ الحياة الدنيا لَهْوٌ ولعبٌ وزِينةٌ ، وأنها تَغُرُّ وتَضرُّ إن لم نتخذْها مَعبرًا للحياة الأبدية ، وإن لم نَستعِن بها على طاعة اللهِ وعلى الازديادِ من الخير الذي يجدُه المرءُ في ميزان حسناتِه في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلَّا من أتىٰ اللهَ بقلب سليم .

وإننا كما رأينا زَحْفَ الصحراء ، وآثارَ القحطِ والجفافِ رأينا أيضا آياتٍ من رحمة اللهِ بالعباد ، وكم فَتَحَ اللهُ من رحمةٍ للعباد ، فجاءهم الخيرُ بعد أماراتِ اليأس ، وبعد زَحْفِ القُنوطِ على النفوس الغافلةِ .

لقد أرسلت السماءُ ماءَها على كثير من المناطق التي ابتُلِيَت بالقحْط والجفاف سِنينَ مُتواليات ، وَزَحَفَت عليها الصحراءُ فأكلت الأخضرَ واليابسَ ، فَلمَّا جَادَت السماءُ ببركاتِها عادتْ الحياةُ ، وانكسرت جيوشُ التصحُّر ، وولَّت مُدبرةً أمام زَحْفِ الخيرِ والنَّماءِ ، واهتزَّت الأرضُ بالخُضْرة ، وامتلأت النفوسُ بالأمل ، وأشرقت بضياءِ الفرحةِ ، وابتلَّت العروقُ ، وشَبِعَت البطونُ ، وامتلأت الضروعُ فيما بَقِي من البهائم حيًّا ، وسعِدَت الألوفُ بالفواكه والثمارِ والحبوبِ ، بعد أن كان لسانُ الحالِ في كل مكانٍ يقول : أنَّىٰ

يُحْيي اللهُ هـٰذه الأرضَ وتلك القُرىٰ بل والنفوسَ والأجسادَ التي ذَبُلَت أنَّى يُحييها اللهُ بعد القَحْطِ ، والجفَافِ ، والمَواتِ* !

فسبحان مدبِّرِ الأمرِ علىٰ مقتضىٰ حكمتِه وإرادتِه وَحْده .

ونعود إلى قصة عُزير والقرية والحمار والطعام .

* * *

(*) فى العقد الذى بدأ فيه تأليف هذا الكتاب وهو العقد الأول من القرن الخامس عشر من الهجرة (العقد التاسع من القرن العشرين من الميلاد) حدث من ذلك آيات بينات ، وشواهد ناطقات بقدرة الله ، وكمال حكمته ، وإرادته ، وسلطانه من ذلك : —

— الخسف الذى وقع لمدينة « أرميرو » بكولومبيا — أمريكا الجنوبية — وفى غمضة عين كان تحت سطح الأرض نحو ثلاثة وعشرين ألف شخص بمساكنهم ومتاجرهم وملاهيهم ومرافقهم وتحولت المدينة إلى بقعة كبيرة من الطين ولم يبق لشيء فيها أثر « راجع كتاب إلى البرهان يا أولى الألباب للمؤلف » .

— حدث جفاف شديد فى دول الساحل الأفريقى — جنوب الصحراء — فقد أرسلت الشمس أشعة من لهب ، وحبست السماء ماءها ، وجَدِبَتْ الأرض ، وقحط الناس ، وهلك الزرع والضرع ، وزحفت الصحراء على الخضرة ، وأصاب الناسَ بلاء عظيم ، امتحانا واختبارًا .

— أمَّا الأعاصير والفيضانات والزلازل فقد تعدَّد من ذلك وغيره ما فيه عبرة وعظة ، فسبحان من بيده الأمر كله .

٥٠ - ج - من علم اليقين ... إلى عين اليقين

جعل اللهُ عزَّ وجلَّ قِصَّةَ الرجل الذي أماته اللهُ مائةَ عامٍ ثم بَعثه برهانًا ساطعًا على البعث بعد الموتِ ، ودليلًا على المَعاد ، وآيةً للناس في كل زمانٍ ، وفي كل مكانٍ ، مَنْ عَاصَرهَا وَعَرف حوادِثَها ، وَمَن عَلِمَ بها إلى أن يَرِثَ اللهُ الأَرضَ وَمَنْ عليها ، فهو آيةٌ من آيات الله عزَّ وجلَّ شاهدةٌ بكمال قدرتِهِ سبحانه وعظيمِ سلطانِه : ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاس ﴾ .

قال الأعمشُ : مَوْضِعُ كَوْنِه آيةً هو أَنَّه جَاء شابًّا على حالِه يومَ ماتَ، فَوجَد الأبناءَ والحفَدةَ شُيوخًا .

قال عِكرمةُ : وكان يومَ مات ابنَ أربعين سنةً ، وقد رُوي عن عليٍّ رضي اللهُ عنه ما يُفَسِّر ذٰلك : وهو أن عُزيرًا[1] خرج من أهله ، وخَلَّف امرأتَه حامِلًا ، وله خمسون سنةً ، فأماته اللهُ مائةَ عام ، ثم بَعَثَهُ – أي علىٰ هَيْئَتِه التي كان عليها يومَ أماته – فرجع إلى أهله وهو ابنُ خمسين سنةً ، وله ولدٌ من مائةِ سنةٍ ، فكان ابنُه أكبرَ منه بخمسين سنة .

وقيل : جاء عزيرُ وقد هلك كلُّ مَن يَعرِف ، فكان آيةً لمن كان حيًّا من قومه إذْ كانوا مُوقنين بحالِه سَمَاعًا .

وقال ابنُ عطيةَ : وفي إماتة عُزَير هٰذه المدةَ ثم إحيائِه بَعْدها أعظمُ آيةٍ ، وأَمْرُه كلُّه آيةٌ غَابِرَ الدَّهر ، ولا يحتاجُ إلى تخصيص بعضِ ذٰلك دون بعضٍ ، وبعد أن أراه اللهُ سبحانه آيةً في نفسه ، ودليلًا على المعاد ، وعلى قدرة اللهِ عز وجلَّ على أن

---

(١) عُزَيْر : علمٌ أعجميٌّ يُمنع من الصرف ، ولوروده على صيغة المصغَّر « فُعَيْل » فإنه يُصرف أيضا « أى يُنَوَّن » لخفَّته بالتصغير .

يُعِيدَ الخِصْبَ والعُمرانَ إلى القرية التي تَعَجَّبَ من أمرها ، وقد أصابها خرابٌ شاملٌ ، ودمارٌ كامل ، فقال : أَنَّىٰ يُحْيِي هـٰذه اللهُ بَعْد موتِها ؟ . بعد ذلك نَبَّهه إلى الدليل الذي يُحْتَجُّ به على البعث في كلِّ زمانٍ ومكان ، وهو سُنَّته تعالىٰ في تكوين الحيوانِ ، وإنشاءِ لحمِه وعَظْمِه فقال : ﴿ **وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** ﴾ أي نرفعُها فنُركِّبُ بعضَها على بعض . والنَّشْزُ : في اللغة هو المرتفِعُ من الأرض ، قال مكيٌّ : المعنى : انظُرْ إلى العِظام كيف نَرْفعُ بعضَها على بعض في التركيب للإحياءِ ، لأن النَّشْزَ هو الارتفاعُ ، ومنه المرأةُ النَّشُوزُ وهي المرتفعةُ عن موافَقةِ زوجِها ، ومنه قولُه تعالى في سورة المجَادلة : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَانشُزُوا** ﴾[1] أي : ارتفِعُوا وانضمُّوا .

وقد قُرِئ : ﴿ **وانظُرْ إلى ٱلعِظَامِ كَيْفَ نَنشُرُها** ﴾ بفتح النون وضمِّ الشين والراء ، قال تعالى من سورة عبس : ﴿ **ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ** ﴾[2] ويكون نَشْرُها مِثْلَ نَشْرِ الثَّوب ، يقال : نَشَرَ الميِّتُ ينشُرُ نشورًا ، أي عاش بعد المَوْتِ ، فكأن الموتَ طَيٌّ للعِظام والأعضاءِ ، وكأنَّ الإحياءَ وجَمْعَ الأعضاءِ بَعْضِها إلى بعضٍ نَشْرٌ –أي على سبيلِ التمثيل– ويقال : نَشَرَ اللهُ الموتَى نشرًا ونشورًا بمعنى أَنْشَرَهم ، فَنَشَرُوا ، أي أَحْياهم اللهُ فَحَيُوا .

﴿ **ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** ﴾ والكِسْوةُ ما وَارىٰ من الثياب ، وقد شُبِّه اللحْمُ بها ، بجامعِ مُواراةِ ما تحتَهُ في كلٍّ منهما ، وقد استعار لَبيد الاكتساءَ للإسلام في قوله :

الحمـدُ للهِ إذْ لَم يَأْتِنِـي أَجَلِـي ... حَتَّى اكتسيْتُ من الإسْلامِ سِرْبالًا

---

(١) آية : ١١ .

(٢) آية : ٢٢ .

إن القادرَ على أن يكسُوَ هـٰذه العظامَ لحمًا ، وأن يُمِدَّها بالحياة ، بعد رَفْعِها من أماكنِها من الأرض ، وَضَمِّ بعضِها إلى بعضٍ للإحياء ، لقادرٌ على إعادة الحياةِ للقرية بعْد خَرابِها ، وللأرضِ بعْد مَوَاتِها ، وَإنَّ القادِرَ الحكيمَ الذي أَحْيا عُزَيرا بعد أن فقَد الحياةَ مائةَ سنةٍ ، لقادرٌ على إحياء الموتىٰ كلِّهم بعد لَبْث آلافِ السِّنين ، فبعضُ أفعالِه سبحانه وتعالى يُشبِهُ بعضا .

ولنتدبَّر – يا أحبابَ الله – قولَه تعالى : ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾[1] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾[2] ، وقوله : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾[3] .

وهـٰذا من أَقْوىٰ الأَدِلَّةِ على البعْث ، فالذي أوجدَ الإنْسانَ من العَدَم قادِرٌ على إحيائه بعد موتِهِ ، وتمزُّقِ جسدِه ، وصَيرورتِه تُرابًا .

﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أي فلمَّا ظَهَر له إحياءُ الميِّتِ عِيانًا قال : أَنَا أعلمُ عِلْمًا يقينيًّا مُؤَيَّدًا بآيات اللهِ في نَفْسي ، وفي الآفاق – أعلمُ – أَنَّ اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ لا يَستعصِي عليه – سبحانه – أمرٌ .

وقد رُوي أن اللهَ عز وجلَّ أحيا بعضَه ثُم أراه كيف أحيا باقِيَ جَسده ، قال قتادةُ : إنه جَعَلَ يَنظُر كيف يُوصَلُ بعضُ عِظَامِه إلى بعض ، لأنَّ أولَ ما خَلَقَ اللهُ منه رأسَه ، وقيل له : انظُرْ ، فقال عند ذٰلك ﴿ **أَعْلَمُ** ﴾ أي أعلمُ هـٰذا .

---

(١) الأعراف : ٩ .

(٢) الأنبياء : ١٠٤ .

(٣) الروم : ٢٧ .

قال مكّي : إنَّه أَخْبَرَ عن نفسِه عندما عَايَنَ من قُدرة الله تعالىٰ في إحيائِه الموتَىٰ ، فتيقَّنَ ذٰلك بالمشاهَدة ، فَأقرَّ أنَّه يعلمُ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير ، أي أعلمُ هـٰذا الضَّرْبَ من العِلْم الذي لم أَكُن أعلمُه على مُعَايَنَةٍ .

وهـٰذا على قراءة من قَرَأَ « أَعْلَمُ » بقطْعِ الألِف ، وهُم الأكثرُ من القرَّاء ، وقرأ حمزةُ والكسَائِيُّ بوصْلِ الألِف ، ﴿ **ٱعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أي إنَّ عُزَيْرَ نَزَّلَ نفسَه منزِلَة المخاطَبِ الأجنبيِّ المنفصِلِ ، فالمعنى : فَلمَّا تبيَّن له ، قال لنفسِه : ٱعْلَمِي يا نفسُ هـٰذا العِلْمَ اليقينَ الذي لم تكوني تَعْلمين مُعَاينةً ، أو أَنَّ المَلَكَ خَاطَبَهُ وقال : ﴿ **ٱعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ .

وفي حَرْف عبدِ الله ما يدلُّ على أنه أَمْرٌ من الله تعالىٰ له بالعِلم على معنى : الزَمْ هـٰذا العِلْمَ لِمَا عاينْتَ وتيقَّنْتَ ، وذٰلك أَنَّ في حرفه : قِيلَ ٱعْلَمْ . وهـٰذا مُوافِقٌ للأوامر قَبْلَه في قوله تعالى : ﴿ **ٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ** ﴾ و ﴿ **ٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ** ﴾ فكَذٰلك ﴿ **ٱعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ ...** ﴾ .

لقد عاينَ عزيرُ من براهينِ القدرةِ ، ودلائِلِ العظَمةِ ، وكمَالِ السلطانِ في : القريةِ ، وفي حمارِه ، وفي طعامِه ، وشرابِه ، وفي نفسِه ما زاده إيمانًا ويَقينًا وطمأنينةً ، وصارت قصتُه آيةً للناس تَهدِي المتدبِّرَ طَالِبَ الحقِّ إلى كمال قُدْرَةِ الله عزَّ وجلَّ ، وتُقدِّمُ البرهانَ الذي يُحْتجُّ به على إمكان البعثِ ، وأنَّ الساعةَ آتيةٌ لاريبَ فيها لِيُجْزَىٰ المحسِنُ بإحسانِه ، والمسيء بإساءته .

وفي إثباتِ البعث :

وبعد قصةِ عُزير قَدَّم لنا سياقُ الآياتِ من سورة البقرةِ مِثالًا آخرَ يدل على إثبات البعثِ ، وفيه دِلالةٌ على وَلَايةِ اللهِ لعباده المؤمنين وأنه سبحانه يُخرِجُهم من

الظلمات إلى النور ، فقد سأل إبراهيمُ عليه السلامُ ربَّه أن يُرِيَهُ كيف يُحْيي الموتَىٰ ليزدادَ يقينًا إلى يَقِينه ، ولنتدبَّر قولَه تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[1] .

لقد أراد إبراهيمُ عليه السلامُ زيادةَ العِلم بالعِيان والمشاهَدَة فسأل ربَّه أن يُرِيَه : كيف يُحيي الموتىٰ ؟ لأن إبراهيمَ عليه السلامُ لمَّا قالَ للنُّمروذِ ﴿ **رَبِّيَ الذى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ** ﴾ أَحبَّ أَنْ يَترقَّىٰ مِن علْم اليقينِ في ذٰلك إلى عَين اليقينِ ، وأن يرىٰ ذٰلك مشاهَدَةً فقال : ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ، قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِن ؟ قَالَ بَلَىٰ ، وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ ، وكان عليه السلامُ ثابتَ اليقينِ ، قويَّ الإيمانِ بقدرةِ اللهِ على البعث ، وإحياءِ الموتَىٰ ، وأنه سبحانه وتعالى يقولُ للشيءِ كُن فيكون ، وإنما طَلب المعاينةَ والرؤيةَ ، وذٰلك لأن النفوسَ مُستشرِفةٌ إلىٰ رؤيةِ ما أُخْبِرَتْ به ، وفي الحديث : « لَيْسَ الخبرُ كالمُعَايَنَة » رواه ابنُ عباس ، وقال الحسنُ وسعيدُ بنُ جُبير وغيرُهما : سأل ليزدادَ يقينًا إلىٰ يقينه ، فقولُه : ﴿ **أَرِنِي كَيْفَ** ﴾ طَلَبُ مُشَاهَدَةِ الكيفيةِ ، أي كيفيةِ جَمْع أجزاءِ الموتَىٰ بعد تفريقِها ، وإيصالِ الأعصابِ والجلودِ بعد تمزيقِها ، فأراد أن يترقَّىٰ من علْمِ اليقينِ إلى عَيْن اليقينِ .

تقطيعُ الطيور ثم إحياؤُها :

لقد سأل إبراهيمُ ربَّه أن يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيي الموتَىٰ لِيطمئنَّ قلبُه بحصول الفرقِ بين المعلومِ بُرهانًا والمعلومِ عِيانًا ، وقد أمره ربُّه أن يأخذَ أربعةً من الطير هي على ما

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

قيل: الديكُ: والطاووسُ، والحمامُ، والغرابُ، فأخذها وذَكَّاها، ثم قَطَّعها قِطَعًا صِغَارًا ، وخلَط لحومَ البعضِ إلى لحوم البعضِ مع الدمِ والريشِ حتَّى يكونَ أَعْجَبَ ، ثم جَعَلَ من ذٰلك المجموع المختلطِ جزءًا على كل جَبَل ، ووقف هو من حيث يَرَىٰ تلك الأجزاءَ ، وأمسك رءوسَ الطيْر في يده ، ثم قال عليه السلامُ: تَعالَيْنَ بإذن الله ، فتطايرت تلك الأجزاءُ ، وطار الدمُ إلى الدم ، والريشُ إلى الريش حتى التأمتْ هٰذه الطيورُ مِثْلَ ما كانت أولًا ، وبقِيتْ بلا رءُوسٍ ، ثم كَرَّر النداءَ ، فجاءتْه سعْيًا ، أي عَدْوًا على أرجُلهنَّ .

وكان إبراهيمُ إذا أشار إلى واحدٍ منها بغير رأسِه تباعَدَ الطائرُ وإذا أشار برأسه قَرُبَ حتى لَقِيَ كلُّ طائر رأسه ، وطارت بإذن الله : ﴿ **قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا** ... ﴾[1] ، ﴿ **فَصُرْهُنَّ** ﴾ معناه : فَقَطِّعهُنَّ ، يقال : صار الشيءَ يَصُوره أي قَطَّعَه ، والصَّوْرُ : القَطْع ، وقيل : المعنى أَمِلْهُنَّ إليك ، أي : اضممْهُنَّ ، واجمعْهُنَّ إليك ، يقال : رجُلٌ أَصْوَرُ إذا كان مائلَ العُنق ، فيكون المرادُ : فَأَمِلْهُنَّ إليك واجمعهُنَّ ثم قَطِّعْهُنَّ ﴿ **وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ أي عَزِيزٌ لا يَغْلِبُه شيءٌ ، ولا يمتنعُ منه شيءٌ ، وما شاء كانَ بلا مُمانِع ، لأنه العظيمُ القاهرُ لكلِّ شيء ، حكيمٌ في أفعاله ، وأقواله ، وشرعِه ، وقَدَرِه .

آمنتُ بالله ، وأسأله نفسًا به مطمئنةً تُؤمنُ بلقائه ، وترجو رحمتَه ، وعفوَهُ ، وإحسانَه ، وسترَه في الدنيا والآخرة .

* * *

(١) البقرة : ٢٦٠ .

من سورة إبراهيم

٥١ - ١ - وَيأتيه الموت مِن كل مكانٍ .

قال الله تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ إبراهيم : ١٨ .

هذه الآيةُ الكريمةُ من سورة إبراهيمَ ، وهي من السور المكيةِ ، وقيل ما عدا ثلاثَ آياتٍ نزلتْ في الذين حاربُوا الله ورسولَه وهي قولُه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] .

وقد بدأت سورةُ إبراهيمَ عليه السلامُ ببيان بركةِ القرآنِ الكريم ، ولَفْتِ العبادِ إلى شَرَفِ الكتابِ العزيز ، وما تضمَّنه من الخير والهُدىٰ والنور والرشاد ، قال تعالىٰ : ﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[2] .

أي أنزلنا إليك الكتابَ يا محمدُ لتُخرجَ الناسَ بدعائك إليه من ظلمات الكفرِ والضلالةِ والجهلِ إلى نور الإيمانِ والعلم ، وهذا على التمثيل ، لأن الكفرَ بمنزلة الظُّلمة ، والإسلامَ بمنزلة النورِ ، وَمِثْلُ ذلك يُقال في الخروج من البِدْعَةِ

---

(١) الآيات : ٢٨ : ٣٠ .

(٢) آية : ١ .

إلى السنَّة ، ومن الشكِّ إلى اليقين ، ومن الشُّبهات إلى الحقِّ الخالص . فقد استُعيرت الظلماتُ للكُفروالضلالةِ والبِدْعةِ والشكِّ بجامعِ الحَيْرةِ في كلٍّ وعدمِ الاهتداءِ ، أمَّا النورُ فقد استُعِيرَ للإيمان الصحيح كما يُستعار للسنَّة النبوية بجامع الاهتداءِ ، وتجنُّبِ المهالكِ . فإذا أراد اللهُ بعبدٍ خيرًا وفَّقه إلى الإسلام فيعيشُ في دنياه على بصيرة ، ويكونُ أهلًا لرحمة اللهِ في الآخرة : ﴿ **لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ** ﴾ أي بتوفيقه إيَّاهم ولُطْفِه بهم ، وأُضِيفَ الفعلُ إلى النبيِّ ﷺ لأنَّه الداعي والمُنذرُ والهادي . ﴿ **إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ** ﴾ فهو سبحانه العزيزُ الذي لا مِثْلَ له ولا شِبْه ، وقيل : ﴿ **ٱلعزيز** ﴾ الذي لا يَغْلِبُه غالبٌ ، وقيل : أي المَنِيعُ في سلطانه وَمُلكه ، وهو سبحانه ﴿**ٱلحميد**﴾ أي المحمودُ بكلِّ لسان ، والمُمَجَّد في كلِّ مكانٍ على كل حال .

والنورُ هو صراطُ اللهِ عزَّ وجلَّ أي الإسلامُ الذي هو طريقٌ مستقيمٌ لا عِوَجَ فيه ولا انحِرَافَ ، مَنْ سَار فيه نَجا وفاز إذ يَصِلُ بأهل الإيمانِ والعملِ الصالح إلى جَنَّات النَّعيم .

ثم بَيَّنَت السورةُ عظمةَ المُلك ، وقدرةَ الخالق على كلِّ شيءٍ لأنه مبدِعُ كلِّ شيءٍ ومليكُه ، ودلائلُ وجودِهِ ووحدانيتِه ، وكمالِ تدبيرِه وحكمتِه واضحةٌ بَيِّنةٌ في ملكوت السمٰواتِ والأرض ، لذا أنذرت السورةُ أهلَ الجحودِ والنكرانِ بالعذاب الشديدِ لأنهم آثروا الدنيا وزهرتَها واستحبُّوا البقاءَ في نعيمها على النعيم في الآخرة ، واجتهدوا في صرف الناسِ عن دين اللهِ الذي جاءت به الرسلُ الكرامُ ، فهم يعيشون على عِوَجٍ في الفِكْر والاتِّجاه ، وعدمِ استقامة ، مِمَّا أبعدهم عن الحقِّ ، وذَهب بهم بعيدًا عن الهُدىٰ والرشاد . وما أكثر هؤلاء وأمثالَهم في هٰذا الزمانِ من المُلْحدين وأربابِ الأهواءِ الذين لا هَمَّ لهم إلا الجَرْيُ وراءَ أغراضِهم

وما تُمليه عليهم شهواتُهم ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾[1] أي يطلبون لـها زَيْغًا وميْـلًا لموافقـة أهوائِهـم ، وقضاءِ حاجاتِهـم وأغراضِهم ، والسبيل : تُذَكَّر وتُؤنَّث .

ثم بَيَّن السياقُ فى سورة إبراهيمَ نعمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ على عبـاده بإرسال الرسلِ ، وإنزالِ الكُتبِ للتَّبيين والهدايةِ ، ومنهم موسىٰ عليه السلام الذي أرسله ربُّه ليُخرِجَ قومَه من الظلمات إلى النور ويذكِّرهم بأيَّام اللهِ وما وقع للأمم السابقةِ ليكونَ لهم في ذٰلك عبرةٌ وعظةٌ ، ولقد أنذرهم موسىٰ عليه السلام ، وبَيَّن لهم نعمةَ اللهِ عليهم ، وذكَّرهم بما وقَع لقوم نوح ولعادٍ وثمودَ وغيرِها من الأمم التي عاندت الرسلَ ، وأعرضوا عن الحُجج والبراهينِ وولَّوْا مُدبرين كأنَّهم حُمُرٌ مُستنفِرة فرَّت من الصياد مبتعدةً . ولنتدبر : ﴿ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[2] .

﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ قال أبو عبيدة : هو ضَرْبُ مَثَلٍ ، إذ لم يُؤْمِنُوا ولم يُجيبُوا ، والعربُ تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسَكَت : (قد رَدَّ يَدَهُ في فِيه) .

وقيل : إنَّ الأيدي هُنا النِّعمُ ، أي رَدُّوا نِعَمَ الرُّسُلِ بأفواهِهم ، أي بالنُّطْقِ والتَّكذيب ، وإنَّ مَجِيءَ الرسُلِ بالشرائع نِعَمٌ جليلـة ، والمعنىٰ : كَذَّبُـوا بأفواهِهم ما جاءت به الرسلُ ، وقال ابنُ عباس : لمَّا سَمِعُوا كِتَاب اللهِ عَجِبُوا

---

(١) إبراهيم : ٢ و ٣ .

(٢) إبراهيم : ٩ .

وَرَجَعُوا بأيديهم إلى أفواههم ، وقيل : إنَّ ذلك كنايةٌ عن الغيظ والحَنَق ، أي جعلوا أيدِيَ أنفسِهم في أفواههم لِيَعَضُّوها مِمَّا جاء به الرسلُ ، إذ كان فيه تَسفِيهُ أحلامِهم ، وشَتْمُ أصنامِهم ، وبالجملة فإن هذا التعبيرَ فيه قوةُ دلالةٍ على رفْضِ المعاندين والمكابرين والمتكبِّرين لِمَا جاء به الوحْيُ لـهدايتهم وخيرِهم وسعادتِهم في الدنيا والآخرة ، وفيه تقبيحُ عملِ مَن يرفضُ النصيحةَ ، ويأبىٰ الانصياع إلى دعاةِ الخيرِ .

ثم انتقل السياقُ إلى بيان ما كان عليه الرسلُ الكرامُ من رحمةٍ بالناس ودعوتِهم إلى الله بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ ، مع الصبرِ على أذىٰ المعاندين والمتعنِّتين : ﴿ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾[1] . وفي ذلك تسليةٌ للنبي محمدٍ ﷺ لِمَا كان يلقىٰ من أذى قومِهِ في مكةَ المكرمةِ ، وقد بَيَّنت الآياتُ أَنَّ الكفَّار كانوا يُخَيِّرون الرسلَ بيْن أن يعودُوا في مِلَّتهم أو يُخرجوهم من أرضهم ، وهـٰذه سنةُ الله تعالىٰ في رسله وعباده : ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾[2] . وقد وعد الله رسلَه بالنصر والتأييد والـتمكين ، وهـٰذا وعْدُ الله – عز وجل – لكل أمةٍ صالحةٍ تخاف موقفَها بين يدَيْ الربِّ ، وتَخشىٰ عذابَه ، وتراقبُـه في كل أمورِهـا : ﴿ **ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ .

أَمّا مصيرُ كلِّ متكبِّرٍ عن الهُدَىٰ ، مَعاندٍ للحقِّ مُجانبٍ له مُتباعدٍ عنه فهو الخيبةُ والخسران والعذابُ الشديدُ المتواصلُ الآلامِ من غيرِ فُتور ولا راحة : ﴿ **وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ**

---

(١) إبراهيم : ١٢ .

(٢) إبراهيم : ١٣ .

صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِن وَّرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[1] .

وَهَيَّا نتأمَّل للعِظَة والاعتبار ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ فانظُر هٰذا الهالِكَ في نار جهنَّمَ والعذابُ يأتيه من كل ناحيةٍ ، وأسبابُ الموتِ تندفعُ نحوه من كلِّ جهةٍ ، عن يمَينه وشمالِه ومن فوقِ رأسِه ومن تحتِه ومن قُدَّامِه وخلفِه ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَّهُم مِّن فَوقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾[2] .

ولزيادة الوضوح لِنَسْمَعْ ما قاله أهلُ العلمِ في شأن الهالكين وقد أحاطت بهم أسبابُ الموتِ وهم في جهنَّمَ ، وهم يتمنَّوْنَ لأنفسهم الموتَ ولكنَّهم يَظلُّون في عَذاب دائمٍ وَهُم في كامل الشعورِ والإحساس ، قال أهل العلم : إنه لا يَبقىٰ عضوٌ من أعضاء الهالكِ إلَّا وُكِّل به نوعٌ من العذاب لو مات سبعين مرةً لكان أهونَ عليه من نوعٍ منها يقعُ في لحظة ، إذْ هُناك . إمَّا حَيَّةٌ تَنهشُه ، أو عقربٌ تَلْسِبُه[3] ، أو نارٌ تسفعُه ، أو قيدٌ برجليْه ، أو غُلٌّ في عُنقه ، أو سلسلةٌ يُقْرَنُ بها ، أو تابوتٌ يكون فيه ، أو زَقُّومٌ أو حميمٌ أو غيرُ ذلك من العذاب الأليم . فالرجلُ من أهل النار لا يموت فيستريحَ ، وتُعَلَّقُ روحُه في حَنْجَرتِه – كما قال ابنُ جُريج – فلا تخرجُ مِن فِيه فيموتَ ، ولا تَرْجِعُ إلى مكانها من جوفه فتنفعَه الحياة ، وقيل : يخلقُ اللهُ في جسَده آلامًا كلُّ واحدٍ منها كألَمِ الموتِ : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾[4] .

هٰذه بعضُ أحوالِ أهلِ النَّار كما جاءت بذٰلك الآثارُ ، إنَّها الكُرَبُ العظام مع العطش الشديد ، وهناك يقرّب إلى فيهِ ماء حميم فيكرهه ، فإذا أُدني

---

(١) إبراهيم : ١٥ : ١٧ .

(٢) الزمر : ١٦ .

(٣) تلْسِبُه : لَسَبَتْهُ العقربُ ونحوها لسعته يقال : بات البعوض يلسِبنُا لسبًا ويقال : لسبه بالسوط : ضربه به ، وباللسان : سبّه فهو لاسب ولسّابة .

(٤) فاطر : ٣٦ .

منه شَوىٰ وجهَه ، ووقعت فروةُ رأسِه ، فإذا شَربه قَطَّعَ أمعاءَهُ حتى تخرُجَ من دُبُرِه .. يقول الله تعالىٰ : ﴿ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُم ﴾[1] ويقول : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾[2] (الترمذي/ حديث غريب) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾[3] .

إن أهل جهنَّمَ من المُلحدين والكفَّارِ والمشركين كانت لهم في الدنيا أعمالٌ طيبةٌ عَلَّقُوا عليها الآمال ، منهم من وصَل الأرحامَ ، وأغاث الملهوفَ ، وقدَّم العونَ للمحرومين ، وأحسَن إلى الجار ، وأتقنَ الصَّنعةَ ، ووفَّى بالوعد ، وقد صدرت عنهم هٰذه المكارمُ وهم على كُفرهم بالله ، وإدبارِهم عن الدِّين الحق ، وعنادِهم وشركِهم ، فإذا جاء الحسابُ كانت هٰذه الأعمالُ كرمَادٍ اشتدَّت به الريحُ في يوم عاصف .

* * *

(١) محمد : ١٥ .
(٢) الكهف : ٢٩ .
(٣) إبراهيم : ١٦ و ١٧ .

٥٢ - ب - أعمالهم كرماد اشتدت به الريح.

شَبَّه اللهُ عزَّ وجلَّ أعمالَ الكُفَّارِ في بُطلانها وعدمِ الانتفاع بها برماد مرَّت عليه ريحٌ شديدةٌ في يومٍ عاصف ، قال سبحانه : ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾[1] .

والمَثَلُ : مستعَار للصِّفة التي فيها غَرَابة ، وهو مرفوعٌ بالابتداء والخبرُ محذوف تقديره : وفيما يُتْلَىٰ عليكُم أوْ يُقَصُّ عليْكم ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كفرُوا بِرَبِّهِم** ﴾ ثم ابتدأ الكلام فقال : ﴿ **أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ** ﴾ أي كمَثَل رَمادٍ ، فجملةُ ﴿ **أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ** ﴾ مستأنَفةٌ على تقدير سؤالِ سائلٍ ، يقول : كيف مثلُهم ؟ فقيل : أعمالُهم كرمَاد . ويجوزُ أن يكونَ المعنَىٰ : مَثَلُ أعمالِ الَّذِينَ كفَرُوا بِربِّهم كرمَاد . ويجوزُ أن يكونَ : مَثَلُ مبتدأ وجملةُ « أعمالُهم كرماد » خبرٌ على معنىٰ : صفةُ الَّذين كفرُوا أعمالُهم كرمادٍ ، كما يقال : صفةُ فلانٍ أشقَر .

والرمادُ : ما بَقِي بعد احتراقِ الشيء ، والعصفُ : شِدَّةُ الرِّيح ، وَجُعِلَ العصْفُ في الآية لليوم ﴿ **فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ وهو لِمَا هو فيه وهو الريحُ . فضَرب اللهُ هٰذه الآيةَ مثَلًا لأعمال الكفارِ في أنَّه يمحقُها كما تَمْحَقُ الريحُ الشديدةُ الرمادَ في يومٍ عاصف ، وإنما كان ذٰلك لأنهم أَشْرَكُوا فيها غيرَ اللهِ تعالى ، كما قال سبحانه وتعالىٰ في سورة الفرقان : ﴿ **وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ**

---

(١) إبراهيم : ١٨ .

عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[1] .

مَثَّل اللهُ عزَّ وجلَّ أعمالَ الكفّارِ من المكارم والمروءاتِ وحُسنِ الخلقِ مَثَّلها في هُبوطها وذَهابِها هباءً منثورا لِبنائِها على غير أساسٍ من معرفة اللهِ والإيمانِ به ، ولخُلوِّها من الإحسان ، ولكونِها لغير الله عزَّ وجلَّ برماد طيَّرتْه الرِّيحُ العاصفُ ﴿ لَا يَقْدِرُونَ ﴾ يَعني الكفَّار ﴿ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ أي في الآخرة لا يَرون لأعمالهم أثرًا من ثوابٍ لإحباطِ أعمالِ البِرِّ بالكُفر ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ أي الخُسرانُ الكبيرُ ، وإنَّما جعَلَه كبيرًا بعيدًا لفوات استدراكِه بالموت .

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَقْبَلُ من العمَل إلَّا ما كان خالصًا لوجهِه موافِقًا لشرْعه ، فالعملُ المقبولُ هو العملُ الخالصُ ، الصَّوابُ ، فالخالصُ أن يكونَ لله لا لغيره ، والصوابُ أن يكونَ مِمَّا شَرَعه سبحانه على لسان رسولِه ﷺ ، وما خالف ذٰلك مردودٌ على صاحبه ، وفي تشبيه الأعمالِ المُحبَطَة بسبب الشركِ والكفرِ بالرَّماد الذي طيَّرته الريحُ في يوم عاصفٍ سِرٌّ بديعٌ وجمالٌ وروعَة .

وذٰلك – كما يقول ابنُ القيِّم –[2] للتشابُه بين أعمالهم وبيَن الرَّمادِ في إحراق النَّار ، وإذهابِها لأصل هـٰذا وهـٰذا ، فكانت الأعمالُ التي لغيْر اللهِ عزَّ وجلَّ وعلى خلاف ما أَمَرَ به طُعمةً للنَّار ، وبها تُسعَّرُ النارُ على أصحابها ، ويُنشئُ اللهُ سبحانه لهم من أعمالهم الباطلةِ نارًا وعذابًا كما يُنشئُ لأهل الأعمالِ الموافقةِ لأمرِه التي هي خالصةٌ لوجهه من أعمالهم نعيمًا أبديًّا فأثَّرت النَّارُ في أعمال أولٰئك حتَّىٰ جعلتْها رمَادًا ، فهم وما يَعبدون من دون اللهِ وقودُ النار .

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَضرِب الأمثالَ للناس ليتفكَّروا ، ويتدبَّروا ، وينتفعوا ، لينفعوا

---

(١) الآية : ٢٣ .

(٢) « في أمثال القرآن » .

أنفسَهم ، ويُخَلِّصوا مُهجَهم من عذاب جهنَّمَ وبئس المصيُر ، وإن أعمالَ البِرِّ التي يقدِّمُها عابدُ الوثَن ، أو الملحدُ ، أو المصرُّ على تَرْك الفرائض ، وعلى ارتكاب المعاصي الشاكُّ في البعْث والحسابِ والجَزاء هٰذه الأعمالُ التي يظنُّ هٰؤلاء أنها نافعتُهم في الآخرة ، وقد يعلِّقون عليها آمالَهم صَوَّرتْها الآيةُ تصويرا رائعًا بعناصَر مستمدةٍ من الكوْن وهي مِمَّا يُشاهده الناسُ ، ويروْنَه ، ويلمسُون بأنفسهم أثرَهُ ، فهٰذا ترابٌ متراكمٌ في يومٍ مُكفَهِرٍّ اشتدَّت ريحُه وعصفَتْ . فماذا تُبقِي من التراب المتراكِم ؟ إنها تُذرِّيه هنا وهناك ولا تُبقِي له أثرًا ، هٰذه الصورةُ مثَّلَت لنا المعنىٰ المرادَ ووضَّحتْه وفهَّمتْنا الشيءِ بنظيره ، فصِرْنا نشعر شعورًا قويًّا واضحًا بأن العملَ الصالحَ إذا قُدِّم لغير اللهِ ضاع على صاحبِه ، إذْ أَبْطَلَهُ الكفْرُ ، ومَحقَهُ الشركُ ، وفي ذٰلك عبرةٌ لذوي الألباب .

والله عز وجل يقول لعباده :﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[(١)] وبيَّن في موضع آخرَ أن الأمثالَ لا يعقلُها إلا أهلُ العلم ، في قوله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ** ﴾[(٢)] وبيَّن سبحانه في موضع آخرَ أن المثَلَ المضروبَ يجعله اللهُ سببَ هدايةٍ لقوم فَهِموه ، وسببَ ضلالٍ لقوم لم يفهموا حكمتَه ، وهو قولُه تعالى ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾[(٣)] .

وبيَّن سبحانه أنه لا يستحيي أن يضربَ مثلًا مَّا ، ولوْ كان المثَلُ المضروبُ

(١) الحشر : ٢١ .
(٢) العنكبوت : ٤٣ .
(٣) البقرة :٢٦ .

بعوضةً فما فوقها ، قيل فما هو أصغرُ منها لأنه يفوقُها في الصِّغَر ، وقيل : فما فوقَها أي فما هو أكبرُ منها ، وذلك في قوله جلَّ شأنُه : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾[1] ولذلك ضَرب سبحانه المثَل بالعنكبوت في قوله تعالى : ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ** ﴾[2] . وقد جاء ضَرْبُ المَثَل بالحمارِ في قوله تعالى : ﴿ **كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾[3] وبالكلبِ في قوله تعالىٰ ﴿ **فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ** ﴾[4] إلى غيرِ ذلك مِمَّا جاء في كتابِه العزيزِ ومِمَّا أوحىٰ به إلى النبيِّ ﷺ وجاءت به الأحاديثُ النبويةُ الشريفةُ .

وبعد أنْ ضَرَبَ اللهُ المَثَل لأعمالِ الكفارِ الذين جَحَدوا نعمةَ الربِّ الرزاق الوهابِ برماد هبَّت عليه الريحُ عاصفةً شديدةً فلم تُبق له أثر ، لفَت اللهُ عبادَه بعد ذلك إلى بُرهان دالٍّ على كمال قدرتِه ، وكمالِ سلطانه فقال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ** ﴾[5] أي ألَمْ ينته علمُك إلى ذلك ؟ فالرؤيةُ هنا رؤيةُ القلبِ الذي أيقنَ أنَّ هٰذه المصنوعاتِ تدلُّ علىٰ وجود صانِعها وعلى قدرته ووحدانيتِه وكمالِ حكمتِه ، وأنه سبحانه وتعالى يفعلُ ما يشاء ، ويَحكُم ما يُريد ، وإذا أراد شيئًا فإنَّما يقوله له كنْ فيكون ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ** ﴾[5] أيها الناسُ أي هو سبحانه قادرٌ على الإفناء كما قدَر على إيجاد الأشياءِ فلا تعصُوه فإنَّكم إن عصيتمُوه يُذهِبْكُم ﴿ **وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾[5] يعني : سِواكم أطوعُ

---

(١) البقرة : ٢٦ .

(٢) العنكبوت : ٤١ .

(٣) الجمعة : ٥ .

(٤) الأعراف : ١٧٦ .

(٥) إبراهيم : ١٩ .

لله منكم ، وفي هٰذا تنبيهٌ لذوي العقول والبصائرِ ليبادروا إلى التوبة ، ويرجِعوا إلى الله عز وجل .

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾[1] أي مَنيعٍ متعذِّر ، لأن القادر الحكيمَ لا يصعُب عليه ذلك ، وهو سبحانه يستدرجُ الملحدين والمشركين من حيث لا يعلمون ، وفي يوم القيامة يندمُ العصاةُ والمتكبرون والمتعنِّتون وأربابُ الأهواء والبدع ، وتشتدُّ حسرةُ الأتباعِ الذين ساروا وراء قادةِ الضلال ، ويتبرأ الشيطانُ من أعوانه ، ولا يَجِدُ في هٰذا اليومِ الشديدِ الهولِ الكفارُ والملحدون والجاحدون إلا الشقاءَ والخِزْيَ والندامةَ والذلَّ والصَّغَار . ولنتدبر قولَه تعالى يُنبِّه عباده لِئلَّا يَغْفلُوا في دنياهم عن توحيده وطاعتِه واتباعِ نبيِّه وإخلاصِ العبادة له سبحانه .

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[2] .. فهٰذا المشهدُ حين يَبْرُزُ الناسُ ويخرجوا من القبور للحساب فالجزاءِ ويرىٰ الكفارُ والملحدون والشاردون الأهوالَ وألوانَ الشقاءِ والعذابِ فيعظُم الندمُ ، ولا ينفعُ الندم ، كما لا ينفعُ الصبرُ إذ لا مَنْجَىٰ ولا مَهْرَبَ من عذابِ الله .

إنَّ الإنسانَ العاقلَ هو الذي ينظرُ في الأدلَّة ، ويؤمنُ بالحق ، ويتمسكُ به ، ولا يَجري وراء أربابِ الشهواتِ والأهواءِ من قادة الضلالِ والإلحادِ والبدعِ والشبُهاتِ .

وإن العاقلَ حَقًّا هو الذي يخالفُ هَواه وشيطانَه ، ويجعلُ هواه تَبعًا لما جاء به النبيُّ ﷺ ، وفي يوم القيامةِ يقوم الشيطانُ خَطيبًا في جهنَّم يتبرأُ مِمَّن أغواهم وأضلَّهم وفي هٰذا زيادةُ حسْرةٍ لهم : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ

---

(١) إبراهيم : ٢٠ .

(٢) إبراهيم : ٢١ .

أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُم لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

وبالسعادَةِ أهلِ الإيمانِ والعملِ الصالحِ في هـٰذا اليوم ..

* * *

(١) إبراهيم : ٢٢ .

٥٣ - ج - الكلمة الطيبة .

في سورة إبراهيمَ ذَكَر اللهُ تعالى مَثَلَ أعمالِ الكُفَّارِ وأنَّها كرَمَادٍ اشْتَدت به الريحُ في يومٍ عاصف ، وبيَّنت السورةُ الكريمةُ حالَ الأشقياءِ ، ومآلَ أمرِهم ، وما يُلاقونه من الشدائد والأهوالِ في نار جهنمَ التي لا يَجدون عنها مَحِيصًا : ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] وذَكرتْ بعد ذلك أحوالَ السُّعداءِ الذين صَدَقُوا اللهَ ورسولَه ، وأقرُّوا بوحدانيته سبحانه ، وبرسالة نبيِّه محمدٍ ﷺ وسائرِ النبيين والمرسَلين ، وأطاعوا ربَّهم فهؤلاء لهم جَنَّاتٌ فيها كلُّ صنوفِ النَّعيم والخير ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[2] .

بعد هٰذا ضَرب اللهُ عز وجل مَثَلا يُبيِّن حالَ الفريقين ، ويوضحُ الفرقَ بين الفِئتين ، وقد أُلبست في المَثَل المعنوياتُ لباسَ الحِسِّيات ليكونَ أوقعَ في النفس ، وأتمَّ لدىٰ العقلِ ، والأمثالُ لدىٰ العَربِ هي المَهْيَعُ المسلُوك ، والطريقُ المتَّبَعُ لإيضاح المعاني إذا أُريد تَثبيتُها لدىٰ السامِعين ، والتأثيرُ في نفوسهم .

وفي القرآن الكريم ، وفي السنة المطهَّرة كثيرًا ما تُتْبَعُ المسائلُ والأحوالُ بِضَرْبِ الأمْثَالِ لها ، لتستقرَّ في القلوب ، وترغِّبَ في خيرٍ يُجْتنىٰ ، أَوْ تنفِّرَ من شرٍّ يُجْتَنَبُ ، ويبقَىٰ أثرُ المعاني في النفوسِ واضِحًا جليًّا .

قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

---

(١) إبراهيم : ٢٢ .

(٢) إبراهيم : ٢٣ .

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1] .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي ألم تعلَمْ عِلْمَ اليقين كيف ضَرب اللهُ مَثَلًا وَوَضعَه الموضِعَ اللائقَ به ، و ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ نُصبت بِمُضْمَرٍ أي جَعَلَ كلمةً طيبةً ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو تفسيرٌ لقوله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ .. ويجوز أن يَنْتَصِبَ مَثَلًا وكلمةً بِضَرَبَ : أي ضَرَبَ كلمةً طيبةً مَثَلًا بمعنَىٰ جَعلها مثَلًا ، ثم قال : ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ على أنها خبرُ مبتدأ محذوفٍ بمعنى : هي كشَجَرةٍ طيبةٍ .

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يعني في الأرض .

﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها ورأسُها .

قال ابن عباس : الكلمةُ الطيبةُ لا إِلٰـهَ إلا اللهُ ، والشجرةُ الطيبةُ المؤمنُ ، وقال مجاهد وغيرُه : الكلمةُ الطيبةُ الإيمان ، وقال عطيةُ العوفي وغيرُه : هي المؤمنُ نفسُه ، وقال عكرمةُ وغيرُه : الشجرةُ النخلةُ ، فيجوزُ أن يكونَ المعنى : أصلُ الكلمةِ في قلبِ المؤمن – وهو الإيمانُ – شَبَّهَهُ بالنخلة في المنبت ، وشَبَّه ارتفاعَ عملِهِ في السماء بارتفاعِ فُروعِ النخْلةِ ، وشَبَّه ثوابَ اللهِ له بالثَّمَر .

إن الكلمةَ الطيبةَ تُثمر العملَ الصالح ، وإن الشجرةَ الطيبةَ تُثمِرُ الثمرَ النافع ، وإن الكلمةَ الطيبةَ عند جمهور المفسرين هي : شهادةُ أن لا إِلٰـهَ إلا اللهُ . وهي تُثمر الأعمالَ الصالحةَ الظاهرةَ والباطنةَ ، فكلُّ عملٍ صالحٍ مَرْضِيٍّ لله عزَّ وجلَّ ثَمرَةُ هٰـذه الكلمةِ .

---

(١) إبراهيم : ٢٤ و ٢٥ .

وكما جاء في الأثَـر الـذي يَرويـه أنسٌ رضي الله عنـه فإن الإيمانَ كمثَـل شَجرةثابتةٍ ، الإيمانُ عروقُها ، والصلاةُ أصلُها ، والزكاةُ فروعُها ، والصيـامُ أغصانُها ، والتَّأذِّي في الله نباتُها ، وحُسْنُ الخلُق ورقُها ، والكفُّ عن محارم اللهِ ثمرتُها .

وقـال الربيـعُ بنُ أنسٍ : كلمـةٌ طيبـةٌ ، هـٰـذا مَثَـلُ الإيمانِ : والإيمانُ الشجرةُ الطيبةُ ، وأصلُها الثابتُ الذى لا يزولُ الإخلاصُ فيه ، وفرعُه في السماء خشيةُ الله .

قال ابنُ القيم : والتشبيهُ على هٰذا القولِ أصحُّ وأظهرُ وأحسنُ ، فإنَّ الله سبحانه شَبَّه شجرةَ التوحيدِ في القلبِ بالشجرةِ الثابتةِ الأصلِ الباسقةِ الفروعِ في السماء علوًّا التي لا تزالُ تُؤتِي ثمارَها كلَّ حِين ، وإذا تأمَّلت هـٰذا التشبيه رأيتَه مطابقًا لشجرةِ التوحيدِ الثابتةِ الراسخةِ في القلب التي فروعُها من الأعمال الصالحة صاعدةٌ إلى السماء ، ولا تزال هـٰذه الشجرةُ تُثمر الأعمالَ الصالحةَ كلَّ وقتٍ بحسبِ ثباتِها في القلبِ ومَحبَّةِ القلبِ لها ، وإخلاصِه فيها ، ومعرفتِه بحقيقتها ، وقيامِه بحقِّها ، ومراعاتِه حقَّ رعايتها .

وقد جاء عن بعض السلفِ أن الشجرةَ الطيبة التي شُبِّه بها الكلمةُ الطيبةُ هي النخلةُ ، وقدوردت في ذٰلك أحاديثُ منها ما خرَّجه الدارقُطنيِّ عن ابن عمرَ قال : قَرأَ رسولُ اللهِ ﷺ : ﴿ **ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ** ﴾ فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « أتَدرون ما هِيَ ؟ » فَوَقَع في نفسي أنها النخلةُ . وخرَّجه البخاريُّ عنه بلفظ : كنا عند رسولِ اللهِ ﷺ ، فقال : « أخبروني عن شجرةٍ تُشبهُ الرجُلَ المسلمَ لا يتحاتُّ ورقُها لا صيفًا ولا شتاءً ، وتُؤتِي أُكلَها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها » قال ابـنُ عمـرَ : فوقـع في نفسي أنَّهـا

النخلةُ ، ورأيتُ أبا بكر وعمرَ لا يتكلمان ، فكرِهتُ أن أتكلَّم ، فلَمَّا لم يقولوا شيئًا قال رسولُ اللهِ ﷺ : « النخلةُ .. » الحديث .

وفي الأثر : « مَثَلُ المؤمن كالنخلة إنْ صَاحبتَهُ نفعَك ، وإن جالستَه نفعَك ، وإن شاورتَهُ نفعَك ، كالنخلةِ كلُّ شيءٍ منها يُنْتَفَعُ به » . وقد شُبِّه عملُ المؤمنِ للهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ وقتٍ بالنخلةِ التي تُؤتي أُكلَها في أوقاتٍ مختلفة .

وقال الضحاك : كلَّ ساعةٍ من ليل أو نهار ، شتاءً أو صيفًا يُؤكَلُ ثَمَرُ النخلِ في جميعِ الأوقاتِ ، وكذلك المؤمنُ لا يخلو من الخيْر في الأوقات كلِّها .

إن الإيمانَ ثابتٌ في قلبِ المؤمن ، وإن عملَه وقولَه وتسبيحَه عالٍ مرتفعٌ في السماءِ ارتفاعَ فُروعِ النخلةِ ، وما يكسبُ من بركة الإيمانِ وثوابِه كما يُنال من ثمرةِ النخلةِ في أوقاتِ السنةِ كلِّها .

فما أعظَم بركاتِ التوحيدِ النقيِّ الخالصِ من كل شائبةٍ من شوائب الشرك ، وما أعظمَ ثمراتِه في قلبِ المؤمن ، وأعمالِه ، وأقوالِه ، ومسالكِه ، إن من بركات شجرةِ الإيمان والإسلامِ في نفس المؤمن واتجاهِه وتفكيرِه إنَّ من هٰذه البركاتِ العلمَ والمعرفةَ واليقينَ والإخلاصَ ، والأعمالَ الصالحةَ ، والصفاتِ الممدوحةَ ، والأخلاقَ الزكيَّةَ ، والخصالَ الحميدةَ المرضيةَ ، فإذا كان العِلْمُ صحيحًا مطابقًا لما جاء به الوحْيُ ، وإذا كان الاعتقادُ مطابقًا لما أَخْبَرَ به اللهُ عزَّ وجلَّ عن نفسِه ، وأخبرت به عنه سبحانه رسلُه الكرامُ عليهم أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ السلام ، وكان الإخلاصُ قائمًا في القلب ، والعبدُ المؤمنُ مُراقِبًا للربِّ في أقواله وأعمالِه ومسالِكه ، عاملًا بما أَمرَ اللهُ به ، مُجتنبًا ما نهىٰ عنه .. إذا كان العبدُ الصالحُ على هٰذه الهدايةِ كانت شجرةُ الإيمانِ في القلب أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء ، وكان

العبدُ في رعايةِ اللهِ وحفظِه وكان دعاؤُه أرجىٰ للقبول ، أمَّا غِذاءُ هـٰذه الشجرةِ الإيمانيةِ فالمداومةُ على العملِ الصالِح ، وكثرةُ التفكرِ في آلاء اللهِ وبديعِ صُنعِه ، والاعتبارُ بالحوادث ، والإقبالُ على العِلم النافع ، والاجتهادُ في الطاعة .

وفي الحديث الذي أخرجه أحمدُ وبعضُ أصحاب السنن : « إن الإيمانَ يَخلُق في القلبِ كما يَخْلُق الثوب فَجَدِّدوا إيمانَكم » .

ويخلُق من خَلُق الثوبُ والجلدُ ونحوُهما خَلاقةً أي بَلِيَ وَرَثَّ ، وفي الحديث تمثيلُ الإيمان الذي لا يُنَمِّيه صاحبُه بكثرة الذكرِ والاستغفارِ والإقبالِ على العمل الصالح والتفكُّر والتذكُّر لعظمةِ اللهِ وجلالِه وكبريائِه وكمالِ صفاته ، إن هـٰذا الإيمانَ يَبْلى كما يَبْلَىٰ الثوبُ ، لهـٰذا قال الرسولُ ﷺ « فَجدِّدوا إيمانَكم » أي بكثرة قول : لا إلـٰهَ إلّا اللهُ ، وبما يَقتضِيه الإيمانُ من العمل والمسلَكِ والخُلق الكريم .. إنَّ الغرسَ إذا لم يتعهدْهُ صاحبُه أوشك أن يَهْلِكَ ويَجِفَّ ويبسَ ، ولذا كانَ العبدُ المؤمنُ في أشدِّ الحاجةِ إلى ما أمر اللهُ به من العبادات على تعاقُب الأوقات بالجوارح واللسانِ والفكرِ المستقيم والإخلاصِ لسقْي غِراسِ التوحيدِ ، وليظلَّ طيبُه صاعدًا في السماء من القلوب النقيةِ ، والنفوسِ الطيبةِ ، والجوارح التي تخدم ربَّها ، والألسنةِ الذاكرةِ الشاكرةِ .

* * *

٥٤ - د - الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .

الإيمانُ هو الرقيبُ الداخليُّ على أعمال المؤمنِ وأقوالِه ومسالِكه ، ومن ثمرات الإيمانِ الصحيحِ كفُّ الجوارحِ عن الشرِّ والسوءِ ، واستقامةُ التفكير ، وثباتُ الخُطَىٰ على طريق الحقِّ .

والمؤمنُ الصالحُ طاهرُ السريرة ، واسعُ الصَّدر ، عطوفٌ ، خيِّرٌ ، طيِّبُ الكلام ، عفُّ اللِّسانِ ، يُرجَىٰ خيرُه ، ويُؤْمَنُ شرُّه ، ويوثَق بذمَّتِه ، إذا عاهَد وَفَّىٰ ، وإذا قال صدَق ، أمينٌ ، متواضعٌ ، يحبُّ الخيرَ للناس ، ويسعىٰ في الإصلاح بين المتخاصمين ، يَبَرُّ والديْه ، ويصِلُ رَحِمَه ، ويُحْسِنُ إلى جيرانِه ، وهو يُطيع ربَّه ، ويؤدِّي فرائضَه ، ويتنافسُ في المبرَّات والخيرات .

إن الإيمانَ في قلب المؤمنِ كلمةٌ طيبة يصدُر عنها كلُّ طيِّبٍ وجميلٍ ونافع ، وإنَّ ما يصدرُ عن المرء من شرٍّ وسوءٍ يُحْوجُه إلى المبادرة بالقيام بعملية تصحيحٍ وإنابةٍ ورجُوع . وإنَّ كثرةَ الأدلةِ تُقوِّي الإيمان ، وإن التفكُّرَ الصحيحَ وكثرةَ ذِكْرِ اللهِ ، والتبارِي في ميادين الخيرِ والبرِّ والإحسان يزيدُ الإيمانَ ويُرسِّخُه ويجعلُ المرءَ أكثرَ رُشْدًا وهِدَايةً واستقامةً ونفعا .

واللهُ عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ**

رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] .

وإنَّه بفضل الكلمةِ الطيِّبةِ وثمراتِها يَنالُ المؤمنُ هٰذه الدرجاتِ في جنَّات النعيم ، والرزقَ الكريم والمغفرةَ والرضوانَ بسترِ العيوب ، ومحْوِ الذنوب بفضلٍ من علَّام الغيوبِ سبحانه وتعالى .

إنَّ الكلمةَ الطيبةَ كالشجرة الطيبةِ ، أصلُها ثابتٌ في الأرض وفرعُها باسقٌ في السماءِ ، والكلمةُ الطيبةُ يَبقىٰ في الناس خيرُها ويطيبُ في المجتمع أثرُها ، ويَحْسُنُ في الأمة جَناها ، ويصعدُ عنها إلى السماء العملُ الصالحُ والقولُ الحسَنُ ، وكما يَجنِي الناسُ من الشجرة الطيبةِ الثمارَ النافعة ، فإنَّهم يَجْنُون من الكلمة الطيبةِ كلَّ جميلٍ ونافعٍ ومفيد ، وفي ظلِّ الكلمةِ الطيبةِ يعيشُ الناسُ في وئام ومحبةٍ وسلامٍ وتراحمٍ وتعاطفٍ وتكافل ، كما تُظلِّلُ الشجرةُ الوارفةُ رحمةً بالناس ولُطفا ، وإن الشجرة الطيبةَ تُؤتِي ثمارَها كلَّ حين ، والكلمةَ الطيبةَ تُؤثِّر وتُنير في كل حين : ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2] أي فتكونَ لهم عبرةٌ من الأمثال ، وعظةٌ فيما تضمنَّته من الحِكم والأحكام والهدايةِ والإرشاد . وفيما دلَّت عليه من خيرٍ يتعلَّقُون به ، أو شرٍّ تُحَرِّضُهم على اجتنابه فينفرون منه ، وَمَن لم يتذكَّر ، ولم تنفعْه العظةُ فقد ظلَم نفسَه ، وجَنَىٰ عليها ، وكان كمَن بيَّن عنهم القرآنُ الكريمُ ﴿ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[3] .

أمَّا الكلمةُ الخبيثةُ فكالشجرة الخبيثةِ المجرَّدةِ من الثمر والورق ، وإذا أثمرت كان ثمرُها مرًّا ، والشجرة الخبيثةُ هي الشجرةُ التي تُجْتَثُّ وتُستأصَل ويُرمىٰ بجثَّتها

---

(١) الأنفال : ٢ : ٤ .

(٢) إبراهيم : ٢٥ .

(٣) الأعراف : ١٧٩ .

في الأرض فليس لها أصلٌ ثابتٌ ، بل تُلقَىٰ في الأرض بعد قَطْعِها وتصيرُ حطَبا ، كذلك الكلمةُ الخبيثةُ ليس لها في الأرض مستقَرٌّ ، وليس لها مَصْعَدٌ إلى السماء ، بل تَبْقَىٰ مُلقاةً في عنق صاحبِها ، دالةً على خُبثه ، وفسادِ نِيَّته . ولنتدبرْ قولَ الحقِّ تعالىٰ :

﴿ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴾[1] . الكلمةُ الخبيثةُ هي كلمةُ الكفر ، وقيل : الكلمةُ الخبيثةُ المرادُ بها الكافرُ نفسُه . والشجرةُ الخبيثة : هي التي لا تُعطِي خيْرا من ثمر أو ظِلٍّ بل هي مصدر أذىً ولا ورقَ لها ولا جذورَ في الأرض ، وقد ضُرِب المَثَلُ قديما لعدم الثباتِ والقرارِ بشجرِ الكَشُوت فقيل فيمن لا يُعرَفُ أصلُه في معرِض الهجاء :

وهم كَشُوتٍ فَلا أصلٌ ولا ورقٌ .

﴿ **ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ** ﴾ أي اقتُلِعَت من أصلها ، وجَثَّه قَلَعه ، واجتثَّه آقتلَعه من فوق الأرض ، والمقصودُ أنها ليس لها أصلٌ راسخٌ يَشْرَبُ بعروقِهِ من الأرض ﴿ **مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴾ أي من أصل في الأرض ، وقيل : من ثَبات ، فكذلك الكافرُ لا حُجَّةَ له ، ولا ثباتَ ، ولا خيرَ فيه ، وما يصعدُ له قولٌ طيِّب ، ولا عملٌ صالح .

وقد جاء عن عليِّ بن أبي طلحة في قوله تعالى : ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً** ﴾ قال : لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ﴿ **كشجرةٍ طيِّبةٍ** ﴾ قال : المؤمنُ ، ﴿ **أصْلُها ثابِتٌ** ﴾ أي لا إلٰه إلا الله ثابتةٌ في قلبِ المؤمن ﴿ **ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ** ﴾ قال : الشركُ ، ﴿ **كَشَجَرَةٍ خبيثةٍ** ﴾ قال : المشركُ ، ﴿ **اجتُثَّتْ من فوقِ الأرضِ مَا لَها مِن قَرَارٍ** ﴾ أي ليس للمشركِ أصلٌ يَعْمَلُ عليه .

---

(١) إبراهيم : ٢٦ .

وقال بعضُهم يَرْجِعُ المَثَلُ إلى الدعاءِ إلى الإيمانِ ، والدُّعاءُ إلى الشركِ لأن الكلمةَ يُفْهَمُ منها القولُ والدُّعاءُ إلى الشيء .

وقال الضحَّاك : ضَرَبَ اللهُ مثَلًا للكافر بشجرة اجتُثَّتْ من الأرض ما لها من قرار ، يقول : ليس لها أصلٌ ولا فرْعٌ ، وليس لـها ثمرةٌ ، ولا فيها منفعةٌ ، كذٰلك الكافرُ ليس يعمل خيْرا ، ولا يقولُه ، ولا يجعل اللهُ فيه بركةً ولا منفعة .

قال قتادةُ : سُئل رجلٌ من أهل العلم ، ما تقولُ في الكلمة الـخبيثة ؟ قال : لا أعلمُ لها في الأرض مستقرًّا ، ولا في السماء مَصْعَدا ، إلّا أَنْ تَلْزَمَ عُنُقَ صاحبِها حتى يُوافِيَ بها يومَ القيامة .

إنَّ الباطلَ لا يدوم ولا يثبُت ، بل هو زائلٌ ذاهب ، وإنَّ ثمرَهُ مُرٌّ كريهٌ كالحنظل ، وإنَّ المتدبِّرَ في حال البشرِ لَيَرىٰ في جَلاءٍ ووضوحٍ أن الشرورَ التي تُخيِّم بظلامها على حياة الناسِ إنما مصدرُها الكلمةُ الخبيثةُ ، كلمةُ الإلحاد ، وكلمةُ الشِّرك ، وكثرةُ البِدَع التي لا أصلَ لها من الدين الذي رَضِيَه اللهُ لعباده وأمرَهُم بالاستقامة على طريقه والثباتِ عليه ، وإنَّ الكلمةَ الخبيثةَ في الـمجتمعات الملحدةِ تكاد تدمِّرُ حياةَ أهلِها بالمفاسد والآثامِ وبتناقضِ الأفكار ، واختلافِ المذاهبِ والاتجاهات ، مما يَضَعُ العالَمَ في عصرنا على حافَّة هاوية .

أمَّا الحقُّ فإنه ثابتُ الدعائم ، متينُ الأركان ، قويُّ البنيان ، نَفْعُه عظيم ، وثمراتُه محببَّةٌ إلى النفوس ، وَظِلُّه دائم ، يَجِد الناسُ فيه الرَّوْحَ والراحَةَ ، والـمحبَّةَ والإخاء ، والعدلَ ، والرحمةَ ، والمواساةَ إذ الكلمةُ الطيبةُ تصحِّحُ نظرةَ الإنسان نحو الكونِ والحياةِ والإنسان ، وتُصحِّح المفاهيم ، وتجعل فكرَ المؤمنِ مستقيما ، وتدفعُ به في مدارج الكمالِ الإنسانيِّ بجانبيْهِ الروحيِّ والماديِّ فينفعُ نفسَه ،

وينفع أمتَه ، وينفع الناسَ أجمعين .

وأصحابُ الكلمةِ الطيبةِ لا تلعبُ بهم الشهواتُ ، ولا تُضِلُّهم الشبهاتُ ، لأنهم يعيشون على هُدىً ونورٍ من إيمانهم .

وبالكلمة الطيبة ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾[1] وبالكلمة الخَبيثة : يَخذلُ اللهُ أهلَ الشركِ والضلالِ : ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾[2] فهو سبحانه الذي يُثبِّت المؤمنين ، ويؤيِّدهم بالحق ، ويَعْصِمُهم من الزلَل ، وهو سبحانه الذي يُضِلُّ الظالمين ، ويخذلُهم لاختيارهم الباطل ، ويتخَلَّىٰ عنهم عند زَلَلِهم .

ألم تَر إلى بلال بنِ رباح رضَي اللهُ عنه وكيف كان يُعذَّب عذابًا شديدًا ليُفتَنَ عن دينِ الإسلام ، وَيُلقَىٰ في الرَّمضاء والحرُّ شديدٌ ، والشمسُ ترسِلُ في الظهيرة أشعةً من لهَب ، والحَجَرُ على صدْره ، والأولادُ الصغارُ يَصيحون به . وهو ثابتٌ على الحقِّ ، مُقيمٌ على التَّوحيد ، يلهَجُ قلبُه ولسانُه بكلمة : اللهُ أحَد .. أحدٌ .. أحدٌ .. فقد ثبَّته اللهُ بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا ، فلم يَنل منه التعذيبُ ، ولا الإغراءُ ، ولا السُّخريةُ وذلك بفضل حلاوة الكلمةِ الطيبة ، كلمةِ لا إلٰه إلا اللهُ التي من أجْلِها خُلِقَت السمواتُ والأرضُ ، وخُلِق الناسُ ليَميزَ اللهُ الخبيثَ من الطيِّب ، ويثبِّتُ اللهُ عز وجل بلالًا في أول منزلٍ من منازِل الآخرة ، عند الموتِ ، وعند النزول في القبْر ، ويثبِّته سبحانه وتعالىٰ في مواقِف القيامة ؛ فهو يشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ عندَ موته ، وهو يفرحُ عند البعْث

---

(١) إبراهيم : ٢٧ .

(٢) إبراهيم : ٢٧ .

بإيمانه وبنور عملِهِ الصالح فيقول : « الحمدُ لله الَّذي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ » وهو يفرحُ بلقاء ربِّه لأنه من السابقين إلى جنَّات النعيم كما أخبر الصادقُ الأمين ، وبلالٌ رضي الله عنه نَموذجٌ من الصِّدِّيقين والشهداءِ والصالحين والمبشَّرين بجنَّات النعيم مِمَّن يُثَبِّتُهم اللهُ بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا ، ويثبِّتُهم سبحانه به في الآخرة ، وكُلُّ واحدٍ منَّا في أشدِّ الحاجةِ إلى نورٍ من إيمانه وعملِه الصالح .

* * *

٥٥ ـ هـ ـ الويل لمن بدّل نعمة الله كفرًا .

الكلمةُ الطيبةُ ، والكلمةُ الخبيثةُ نقيضان ، وبهما تختلفُ النفوسُ ، فهناك النفسُ الطيبةُ المطمئنةُ آمنتْ بالحق ، واعتصمت بحبل اللهِ المتين ، وثبتتْ على صراطه المستقيم ، وهناك النفسُ الخبيثةُ ، انزلقت وراءَ الشبهاتِ ، وانغمست في الشهوات ، ونأتْ عن طريق الهُدىٰ ، واختارت سبيل الرَّدىٰ .

وبالكلمة الطيبةِ الثابتةِ ﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ** ﴾[1] .

وبالكلمة الخبيثةِ يَخذل ٱللهُ الظَّالمين وَيَفْعَلُ سبحانه ما توجبه الحكمةُ ، فهو سبحانه الذي يُثبِّت المؤمنين ، ويؤيِّدهم بالحق ، ويَعصِمُهم بفضله من الزلل ، وهو الذي يُضِلُّ الظالمين ويخذلُهم لميلهم للباطل ، ويتخلَّىٰ عنهم عنْد زللهم .

يُثبِّت اللهُ الذين آمنوا بالكلمة الطيبةِ التي ضَرَبَ لها المَثَلَ بالشجرة الطيبةِ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماء ، يثبِّتهم بها مدَّة حياتهم إذا وُجِدَ مَن يعملُ على فِتنتهم عن دينهم ، ويحاولُ زَلَلَهُم كما جرىٰ لعمَّار بنِ ياسرٍ وغيرِه من أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ ، ويثبِّتهم بها بعْد الموتِ في القبر الذي هو أولُ منزِلٍ من منازل الآخرةِ ، ويثبتهم في مواقف القيامةِ فلا يتلعثَمون ، ولا يَضطَرِبُون إذا سُئلوا عن مُعْتقَدِهم ، ولا تَذْهبُ بألبابهم الأهوالُ بفضل من الله عزَّ وجل .

أخرج ابنُ أبي شيبةَ عن البراء بنِ عازبٍ أنه قال في الآية : التثبيتُ في الحياة

---

(١) إبراهيم : ٢٧ .

الدنيا ، إذا جاء الملَكَان إلى الرجل في القبْر ، فقالا له : مَن ربُّك ؟ قال : ربِّيَ اللهُ ، وقالا : وما دينُك ؟ قال : ديني الإسلامُ ، وقالا : وما نبيُّك ؟ قال : نبيِّي محمدٌ ﷺ .

وذَكر البخاريُّ عن البراء بنِ عازب عن النبي ﷺ قال : « إذا أُقعِد المؤمنُ في قبره أتاه آتٍ ، ثُم يَشهَدُ أن لَّا إلٰهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله ، فذٰلك قوله ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ .

وجاء عن عثمانَ بنِ عفانَ رضِي الله عنه قال : « كان رسولُ الله ﷺ إذا فَرَغَ من دفْن الميتِ وقَف عليه ، وقال : استغفِروا لأخيكم ، واسألوا له التثْبيتَ ، فإنه الآن يُسأل » أخرجه أبو داود .

قال القفال وجماعة : ﴿ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي في القبر ، لأن الموتىٰ في الدنيا إلى أن يُبعثوا : ﴿ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي عند الحسابِ ، وحكاه الماورديُّ عن البَراء قال : المرادُ بالحياة الدنيا المُسَاءَلةُ في القبر ، وبالآخرة المُسَاءَلةُ في القيامة .

وقيل : يثبِّتهم اللهُ في الدَّارين جزاءً لهم على القول الثابتِ واليقين الصادقِ ، والإيمانِ الصحيحِ ، فلا تُضِلُّهم الشبهاتُ ، ولا تفتنُهم الشهواتُ ، وهٰؤلاء هم أصحابُ الكلمةِ الطيبةِ .

أمَّا أصحابُ الكلمةِ الخبيثةِ فقد جاء بيانُ حالِ أصحابِها في قوله تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ ٱللهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي عن حُجَّتهم في قبورهم كما ضَلُّوا في الدنيا بكفرهم ، فلا يُلقِّنُهم كلمةَ الحق ، فإذا سُئلوا في قبورهم – أي عن دين الإسلام ونبيِّه – قالوا : لا نَدري ، فيقول المَلَكُ : لا دريْتَ ولا تليْتَ ، وعند ذٰلك يُضرَب بالمقامع من حديد على ما ثَبَت في الأخبار ، وهٰؤلاء الظالمون هم أهلُ

الكفر والإلحادِ والشكِّ والشركِ والنفاقِ ، لأنهم ظلَموا أنفسَهم بتبديلهم فطرةَ اللهِ التي فَطَر الناسَ عليها ، ولعَدَم اهتدائِهم إلى القول الثابتِ .

أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس رضِيَ اللهُ عنهما قال : إنَّ الكافر إذا حضَره الموتُ تنزِلُ عليه الملائكةُ عليهم السلامُ يَضربون وجهَه ودُبُرَهُ ، فإذا دخَل قبْرَهُ أُقْعِد ، فقيل له : مَن ربُّك ؟ لم يُرْجِع إليه شيئا ، وأنساه اللهُ تعالىٰ ذِكْرَ ذٰلك ، وإذا قيل له : مَن الرسولُ الذي بُعِثَ إليك ؟ لم يَهْتَد له ولم يُرْجِع إليه شيئا ، فذٰلك قوله : ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وقيل في معناه : أي يُمهلهم حتى يزدادوا ضلالًا في الدنيا ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي مِن عذابِ قومٍ وإضلالِ قومٍ ، إن الله سبحانه وتعالىٰ يفعلُ ما يشاء ، ويَحكُم ما يُريد ، وبيده وحده الهدايةُ والإضلالُ بحسَبِ ما تقتضيه سُنَّتُه العامةُ التي سنَّها في عباده ، بحسب استعدادِ النفوس ، وقَبولِها لكل منهما ، وبقدرته سبحانه وإرادتِه يَهتدي مَن كان ضالًّا ويَضِلُّ من كان مُهتديا ، فإن بيده تصريفَ خلْقه ، وتقليبَ قلوبِهم ، يفعلُ فيهم ما يشاء .

الذين بَدَّلُوا نعمةَ الله كُفْرا :

وبعد أن ضَرب اللهُ عز وجل الأمثالَ بيانا لحالَيْ فريقَي السُّعداء والأشقياءِ ، وذَكر اللهُ سبحانه تثبيتَهُ وتوفيقَهُ في الدارين للسعداء وما ينالُ الأشقياءَ من الخِذلان والإضلال جزاءَ ما كسبتْ أيديهم من تدسِيَتهم لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام ، وبيَّن سبحانه أنَّ كل ذٰلك يَجري على مُقتضىٰ إرادته وحِكمتهِ وتدبيرِه في خَلْقه ، بَيَّنت الآياتُ من سورة إبراهِيمَ بعد ذٰلك أحوالَ الظالمين ، وَعَرَّفَت أنهم هم الذين بَدَّلُوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا ، وذكرتْ الأسباب التي أوصلتهم إلى سوء العاقبةِ مُعَجِّبا رسولَه مِمَّا صَنعوا من الأباطيل ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] .

البَوار : الهلاكُ ، يقال : رجلٌ بائِرٌ وقومٌ بُورٌ .

ويَصْلَوْنَها : يُقاسون حَرَّها .

والأندادُ : واحدُهم نِدٌّ وهو المِثْلُ والشبيهُ ، والمقصودُ الأصنامُ ونحوُها مِمَّا يُعْبَدُ من دونِ الله ، ﴿ لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي عن دينه .

والمصيرُ : المرجِعُ والمَرَدُّ .

عَدَّد سبحانه الأسبابَ التي أوقعت هٰؤلاء الأشقياءَ ومَن شايَعهم في سوء المنقلَبِ ، فهم قد جعلوا بَدَلَ نعمةِ الله عليهم الكُفْرَ في تكذيبهم محمدًا ﷺ حين بعثه الله منهم وفيهم ، فكَفَرُوا ، والمرادُ مشركو قريش ، وإن الآيةَ نزلت فيهم كما جاء عن ابن عباس وعليٍّ وغيرهما ، وفيهم وفي أمثالهم يقول الله تعالى لنبيِّه ﷺ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ﴾ أي ألم تعلَم ، وَتَعَجبْ من قوم بَدَّلُوا شكرَ النعمةِ غَمطًا لها ، وجُحودا بها كأهل مكةَ الذين أسكنهم اللهُ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إليه ثمراتُ كلِّ شيء ، وجعلهم قُوَّامَ بيته ، وشَرَّفَهم بإرساله خاتمَ رسلِه من بينهم فكفَروا بهٰذه النعم ﴿ وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ أي وأنزلوا مَن شايَعهم على الكُفر والضلالِ دارَ الهلاكِ الذي لا هلاكَ بعده ، ثم بَيَّن هٰذه الدار فقال سبحانه : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي هٰذه الدارُ هي جَهنَّمُ دارُ العَذابِ التي يقاسون حَرَّها ، وَبِئْسَ المُسْتَقَرُّ هي لِمَن أراد اللهُ به

---

(١) إبراهيم : ٢٨ : ٣٠ .

النَّكَالَ والوبالَ .

وقد وهبهم اللهُ العقلَ والذكاءَ ليتجهُوا إلى الخير ، وإلى هداية الناس ، ولكنهم اختاروا الضلالةَ ، فجعَلُوا لله نِدًّا وشريكًا ، وعبدوا الأصنام ونحوَها من دون الله ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ فعبدوا المخلوقَ وكفروا بالخالق ﴿ لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أي ليُبعِدُوا غيرَهم عن هداية الدينِ الحقِّ ، ولتكونَ عاقبةُ مَن شَايَعوهم على ضلالهم الوقوعَ في حَمْأَةِ الكُفْر والضلال .

إنَّ هـٰؤلاء أنموذجٌ من البَشر رزقَهم اللهُ الإيمان وهيَّأ لهم أسبابَه فاختاروا الإلحادَ ، واستعملوا نعمةَ الفهمِ والذكاءِ في الأذَىٰ والشَّرِّ وصرْفِ الناس عن اتباع الرسولِ ﷺ ، واتخذوا الأندادَ والأمثالَ فضلُّوا وأضلُّوا . وقد أمر اللهُ نبيَّه ﷺ أن يقولَ لهم على سبيل التهديدِ والوعيد : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَىٰ ٱلنَّارِ ﴾ أي تمتَّعُوا بما أنتم فيه سَادِرون ، من الإلحاد والشركِ ، والسعْي في إضلال الناسِ ، والصدِّ عن سبيل اللهِ ، فمهما طال بكم التمتُّعُ فإنَّ مصيرَكم ومرجِعَكم وموئِلَكُم إلى عذابِ جهنَّمَ ، وَسَمَّىٰ اللهُ عَمَلَهُم تمتُّعًا لأنهم تلذَّذُوا به ، وأحسُّوا بغبطةٍ وسرورٍ ، كما يتمتعون بالمشتهَيات من النِّعم ، وهو أسلوبٌ تَهَكُّمِيٌّ فيه توبيخٌ وتقريعٌ .

نسأل الله السلامةَ والتثبيتَ بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

* * *

العلاقة الأسرية ومسؤولية الفرد عن نفسه :

٥٦ - ١ - يوم يفرُّ المرء من أخيه والمسئولية الفردية

عَدَّدَ اللهُ – سبحانه وتعالىٰ – في سورة عبس آلاءَهُ على عباده ، وذكَّرهم بإحسانه إليهم في هٰذه الحياة الدنيا ، ليشكروا المنعِمَ ويوحِّدوه ويُطيعوه ، ويُعِدُّوا أنفسَهم لليوم الآخرِ بالإيمان الصحيح ، والعملِ الصالح ، والخُلُقِ الكريم ، ثم بَيَّنت السورةُ الكريمةُ تفصيلَ بعضِ أحوالِ يوم القيامةِ وأهوالِها التي توجب الفزع ، وتَبْعَثُ على الخوف من هٰذا اليومِ العظيمِ الكرب ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾[1] .

إنَّ هٰذا المشهدَ الحيَّ بما فِيه من حَرَكةٍ وَصَوْتٍ ، وذهولٍ ، وبما يُوحي به من الفَزَع والحَيرة والخوفِ على النفس ، إنه ليدعو أهلَ العقلِ والحكمةِ إلى التأمل في الدلائل التي ساقتها السورةُ الكريمةُ وغيرُها من سور القرآنِ العظيم التي تُرشد إلى وحدانية اللهِ عز وجل ، وإلى كمال قدرته ، وكمالِ رحمته بعباده ، وتُقِيمُ البرهانَ على صحة البعثِ وأخبارِ يومِ القيامة التي جاء بها الوحْيُ من عند ربِّ العالمين ، وإن هٰذا التأملَ ليَبْعَثُ أصحابَ القلوبِ الحيَّة على التزوُّدِ بصالح الأعمالِ ، لتكونَ نِبراسا يُضيء أمام المؤمن في ظلمات هٰذا اليوم .

---

(١) عبس : ٣٣ : ٣٧ .

إنه يومُ الفَزع الأكبرِ ، يومَ تَذهَل كلُّ مرضعةٍ عما أرضعت ، ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1] .

إنه اليومُ الذى يَرى فيه المرءُ أحبَّ الناسِ إليه ، وأقربَهم منه ، يَرى فيه أخاه ، ويرى أمَّه وأباه وزوجَه وبنيه ، ولكنه يفرُّ منهم ، ويبتعد عنهم ، لأن الهولَ عظيم ، والخطْبَ جليلٌ .

إنه اليوم الذي يقول فيه عيسى بنُ مريم عليه السلام : لا أسأله اليومَ إلا نفسي ، لا أسأله مريمَ التي ولدتني .

إنه اليوم الذي يقول فيه الوالدُ لولده : يابُنَىَّ ، أىَّ والدٍ كنتُ لك ؟ فيُثْني الولدُ بخير ، فيقول له : يابُنَىَّ ، إني احتجتُ إلى مثقالِ ذَرَّةٍ من حسناتك لعلِّي أنجو بها مِمَّا تَرىٰ ، فيقول ولدُه : ياأبت ما أيسرَ ما طلبتَ ! ولكني أتخوَّفُ مثل الذي تتخوَّفُ ، فلا أستطيع أن أعطِيَك شيئا .

إنه اليوم الذي يَلْقَىٰ فيه الرجلُ زوجتَه وقد أحسن إليها في الدنيا فيقول لها : إني أطلبُ إليك اليومَ حسنة واحدةً تَهَبِينَها لي لعلي أنجو مِمَّا تَرَيْن ، فتقول له : ما أيسرَ ماطلبتَ ، ولكني لا أُطيق أن أعطِيَك شيئا ، أتخوَّفُ مثلَ ما تخاف .

إن أحدًا لا يُغني عن أحد شيئا في هٰذا اليوم ، ولا تحمِلُ نفسٌ وِزْرَ نفس أخرى ، إن كل إنسان مسؤولٌ عن نفسه ، إنَّ كل فردٍ مسؤولٌ عن عقيدته وعن عمله ، وعن قوله ، وعن ماله ، وعن علمه ، وقد نبَّه الرسولُ محمدٌ ﷺ إلى هٰذا منذ فجرِ الإسلامِ حين قال : « يافاطمةُ بنتَ محمد – اعملي – فإني لا أُغني

---

(١) الحج : ٢ .

عنك من اللهِ شيئا » يحذِّر عليه السلام أقربَ الناس إلى قلبه ، حتى لا يغترَّ أحدٌ بنسب أو حسبٍ أو جاهٍ أو مال ، حتى ولو كان القريبُ رسولًا من رسلِ اللهِ المقرَّبين : ﴿ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يومَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[1] .

إنَّ أمرَ الساعةِ جِدُّ عظيم ، فطوبىٰ لمن وُعِظَ فاتَّعظَ ، ونُبِّهَ فتنبه ، ولقد عَظَّم الله عزَّ وجل شأن القيامةِ ، وأقام عليها البراهين ، وضَرب لها الأمثال ، وصوَّر أهوالها ، وشوَّق إلى نعيمها لئلَّا يكونَ لأحد عُذر ، ولا لعبد حجة .

إنها الحاقَّةُ أي الآتيةُ من غير شكٍّ ، وفيها يصيرُ كل إنسان حقيقًا بجزاءِ عملهِ ، وإنها القارعةُ التي تَقْرَعُ الناسَ بأهوالها وشدائِدها ، وإنها الطامَّةُ الكبرى أي الداهيةُ العُظمىٰ والساعةُ التي يُسلَّم فيها أهلُ النار إلى الزبانية ، وإنها الصاخَّةُ أي الصيحةُ التي تَصِخُّ الآذانَ صَخًّا أي تُصِمُّها بشدةِ وَقْعِها ، وأصلُ الصاخَّةِ من الصَّخِّ ، وهو الضربُ بالحديد على الحديد ، وبالعصا الصلْبة على شيءٍ مُصمَتٍ ، وَصَخُّ الصخرةِ وصخيخُها صوتُها إذا ضربتَها بحجَرٍ أو غيرِه ، فالصاخَّةُ كالقارعِة أي الحادثةُ العُظمىٰ التي عُبِّر عنها بالطامَّةِ الكُبرى ويكون نذيُرها ذلك الصوتَ الهائلَ الذي يَحْدثُ من تخريب الكونِ وَوَقْعِ[2] بعضِ أجرامِه على بعض ، ولكون هٰذه الحادثةِ تأتي بذلك الصوت المفزعِ سُمِّيَتْ صاخَّةً وقارعِة .

أو أنها سُمِّيت صاخَّةً لأنها بما تأتي به من ذلك الصوت تُصِخُ الآذانَ أي تُصِمُّها ، قال البغويُّ : الصاخَّةُ : يعني صيحَة القيامة ، سمِّيت بذلك لأنها

---

(١) المؤمنون : ١٠١ .

(٢) وَقْع : بسكون ثانية وفتح أوله مصدر وقَع بفتح وسطه يقَع وقْعاووقُوعا أي سقط ، والوقْعُ – أيضا – صوت الضرب بالشيء ، تقول : سمعت وقع أقدام ، ووقع المطر .

تُصِخُّ الأسماعَ ، أي تُبالغ في إسماعِها حتى تكادَ تُصِمُّها . قال ابنُ العربيِّ :الصاخَّةُ التي تورث الصمَمَ ، وإنها لمُسْمِعَةٌ ،وهٰذا من بديع الفصاحةِ ، ولعمرُ اللهِ ، إن صيحةَ القيامةِ لمُسْمِعَةٌ تُصِمُّ عن الدنيا ، وَتُسْمِع أمورَ الآخِرةِ . ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ أي فإذا جاء يومُ القيامةِ ، وما فيه من هولٍ عظيمٍ يَعْظمُ أسفُ الكافرين ، ويشتدُّ ندمُ المُلحِدين ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ أي في هٰذا اليومِ يهرُبُ المرءُ من أخِيه لا شتغالِه بنفسِه ، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾أي يَشغَلُه عن غيره أو لئلَّا يَروا ما هو فيه من الشدَّة ، وَقيل :لِعلْمِه أنهم لا ينفعُونه ولا يُغنون عنه شيئًا ، فكلُّ إنسانٍ يكون في شُغْل شاغلٍ عن غيرِه ، وفي الحديث الذي رواه ابنُ عباس أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « تُحشَرُونَ حُفَاةً عُراةً غُرْلًا » قال : فقالت زوجتُه : يارسولَ الله ، أَوَيَرى بعضُنَا عورةَ بعض ؟ قال : لكلِّ امرىءٍ مِّنهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه .. أو قال : « ما أشغلَه عن النظَر » !الترمذى. وفي رواية عائشةَ عند مُسلم : « ياعائشةُ ، الأمرُ أشدُّ من أن ينظُرَ بعضُهم إلى بَعْض » .

وقد جاء عن الحَسن : أنَّ أولَ مَن يَفِرُّ يومَ القيامةِ من أبيه إبراهيمُ ، وأولَ مَن يفرُّ من ابنه نوحٌ ، وأولَ من يفرُّ من امرأته لوطٌ ، قال : فيرَوْنَ أن هٰذه الآيةَ نزلتْ فيهم ، وهٰذا فِرارُ التبرُّؤ .

وجاء عن ابن عباس – كما ذَكَر الضحَّاكُ – : يفرُّ قابيلُ من أخيه هابيلَ ، ويفرُّ النبيُّ ﷺ من أُمِّه ، وإبراهيمُ عليه السلام من أبيه ، ونوحٌ عليه السلامُ من ابنه ، ولوطٌ عليه السلام من امرأته ، وآدمُ من سَوأَةِ[1] بَنيه ، ولنتدبر :

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

(١) السّوءة : الجيفة أو العورة .

ٱلْحِسَابِ ﴾[1] ، ويقول سبحانه محذِّرا عباده ، ومنبِّها إلى أن كُلَّ فرْدٍ مسؤولٌ عن نفسه أمامَ خالقِه حتى لا تغُرَّهم الأمانيُّ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2] .

وفي هٰذا اليومِ العظيمِ يكونُ الناسُ فريقين : فريقَ السعداءِ يظهرُ ما في قلوبهم من السرور والفَرح على وجوهـم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾أي : مُستنيرةٌ مسرورةٌ فرِحَةٌ قد ظهر البِشْرُ على وجوههـم ، هٰؤلاء هم أهلُ الجنَّة ، وهناك فريقُ الأشقياءِ الذين فَجَروا في أعمالهم ، وكفرت قلوبُهم يُلجِمُهم العرقُ ، ثم تقعُ الغَبْرَةُ على وجوههم : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ .

الغَبَرة : الغُبار والدُّخـان ، « تَرْهَقُهـا » أي تَغْشَاهـا ، « قَتَـرة » ذِلَّـة وشِدَّة ، والقَتَر في كلام العربِ الغُبارُ جَمْعُ القَتَرة ، و« الكفَرة » جمعُ كافرٍ وهو الذي يَجْحَد الحقَّ ، و « الفجَرة » جمعُ فاجِر وهو الكاذِبُ المفترِي على الله ، والفاسِقُ الخارجُ عن حدود اللهِ المنتهكُ لحرماته .

إن وجُوه هٰؤلاء يعلُوها الذلُّ ، ويظهرُ عليها آثارُ الـحسرةِ والـخيبةِ والندمِ يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلَّا من أتىٰ اللهَ بقلب سليم .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ

---

(١) غافر : ١٧ .

(٢) فاطر : ١٨ .

بِٱلعِبَادِ ﴾[1] .

إنَّه اليومُ الذي لا يُغني فيه أحدٌ عن قريب ولا نَسيب إذَا فَرَّقَ بينهما الدينُ ، ولقد ضَرَب لنا اللهُ عزَّ وجلَّ المثَلَ بابن نوحٍ عليه السلام . ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ * قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾[2] .

ولنسمَعْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ لنبيه محمدٍ ﷺ وكان حريصًا على هداية عَمِّه أبي طالب ، وشاء اللهُ عزَّ وجلَّ أن يموتَ الرجلُ على شِركه وضلالِه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[3] .

ولنتدبر قولَ اللهِ عزوجل يُعَلِّمُ نبيَّه والمؤمنين : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾[4] .

إن خائن العقيدةِ له مِيقاتُ يومٍ معلوم لا تنفعُه فيه قرابةٌ ولا تشفعُ له صِلةٌ ، ولا يُجْدِيه نَسَبٌ ، ولا تُغني عنه صلاتُ قُرباه ، ولو كان القريبُ رسولًا نَبِيًّا ، إذْ

---

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) هود : ٤٥ : ٤٧ .

(٣) القصص : ٥٦ .

(٤) التوبة : ١١٣ و ١١٤ .

كلُّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسه وَعَمَّا قدَّمت يداه ، وقد ضرب اللهُ عزَّ وجل المَثَلَ بامرأةِ نوحٍ وامرأةِ لُوطٍ تنبيهًا للعباد ، ليتزوَّدُوا ليوم المَعادِ ، ويَعْملُوا للآخرة ولا يَغْفُلوا ، قال سبحانه : ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ ، وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ** ﴾[1] .

* * *

(١) التحريم : ١٠ .

من سورة التحريم

٥٧ - ب - من التربية الصالحة في محيط الأسرة .

سورةُ التحريم من السور المدنيةِ ، وهي اثنتا عشرةَ آيةً ، وتُسمَّى سورةَ النبيِّ ، وقد نزلتْ بعد الحجُرات ، وترتيبُها في المصحف بعد سورةِ الطلاق ، وفي سورة الطلاقِ تنبيهٌ للمؤمنين إلى حُسْن معاشرةِ النساء ، والقيامِ بحقوقهنَّ ، وتعليمٌ للآداب والقواعدِ التي تَحْكُمُ العلاقةَ الزوجيةَ في حَالَيْ الرِّضَىٰ والغضب ، وأن تقومَ هٰذه العلاقةُ على الرِّفقِ والإحسانِ وتقوىٰ الله عز وجل . وفي سورة التحريمِ بيانٌ لما حصَل من بعض أزواجِ النبيِّ ﷺ معه ﷺ لتعليم الأمةِ ، والتوجيهِ إلى حسنِ السياسةِ في معاملةِ النساءِ ، والصبرِ على نُصْحِهنَّ وإرشادِهنَّ وتخويفهنَّ عقوبةَ اللهِ عز وجل ، وتحذيرِهنَّ من أى عملٍ فيه إيذاءٌ ، أو إساءةٌ بسبب الغَيْرةِ على الزوج ونحوِها : ﴿ **عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا** ﴾[1] وفي هٰذا ما يُوضِّح لنا العنايةَ ببيت النبوةِ ، وبما ينبغي أن يكونَ عليه أزواجُه ﷺ من طاعةٍ ، وإخلاصٍ ، والسعْي فيما من شأنه أن يكونَ سببًا للسكينة والهدوءِ وجَمْعِ القلوبِ في هٰذا البيتِ الكريمِ الذي هو قُدوةٌ للمسلمين والمسلمات في كلِّ زمانٍ ومكان .

إنَّ بيتَ النبوةِ كان مَهْبطَ الوحْي ، ومنزِلَ أوامرِ اللهِ ونواهيه ، ومنه يَخْرُجُ النورُ لهدايةِ الناسِ جميعًا وإرشادِهم ، وإصلاحِ نفوسِهم وأحوالِهم

---

(١) التحريم : ٥ .

وأخلاقِهم ، وإنَّ نساءَ النبيِّ ﷺ كان لهنَّ من الفضل والشرفِ ما ليس لغيرهِنَّ من النساء لِمَا منحهُنَّ اللهُ من صُحبة الرسول ، وعظيمِ المَحِلِّ منه ، ونزولِ القرآنِ في حقهِنَّ ، لـهـٰذا وَعَدَهُنَّ اللهُ بمضاعفة الأجرِ والثوابِ إن هُنَّ لَزِمْن طاعةَ اللهِ ورسولِهِ ، واستجبْنَ لأوامرِ اللهِ ، وَعَمِلْن الصَّالِحات ، قال تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ **وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا** ﴾[1] أي رزقًا كريمًا في جَنَّةِ الخُلد ، فإنهنَّ في منازلِ رسولِ الله ﷺ في أعلى عِلِّيِّين بفضل اللهِ وإحسانِه .

فقد جعل اللهُ عزَّ وجلَّ ثوابَ طاعتِهن أكثرَ مِمَّا لِغَيرهِنَّ لشَرَفِ منزلتهنَّ ، وفضْل دَرَجتِهنَّ ، وتقدُّمهن على سائر النساءِ أجمع ، وكذلك جعل اللهُ عقابَ معصيتهنَّ ، ولنتدبر : ﴿ **يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا** ﴾[2] .

قال ابنُ عباس في تفسير الفاحشةِ المبيِّنة هنا : هي النُّشوزُ وسوءُ الخُلق ، وقال : ما بَغَت امرأةُ نبيٍّ قط ، وإنَّما خانت في الإيمان والطاعةِ ، أي كما وقَع من امرأةِ نُوحٍ وامرأةِ لوطٍ عليهما السلامُ .

قال ابنُ كثير : وعلى كلِّ تقديرٍ فهو شرط ، والشرطُ لا يقتضي الوقوعَ أي قولُه تعالى : ﴿ **مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ** ﴾ ، وَكَما في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾[3] ، فلمَّا كانت مَحِلَّتُهنَّ رفيعةً

---

(١) الأحزاب : ٣١ .

(٢) الأحزاب : ٣٠ .

(٣) الزمر : ٦٥ .

نَاسَبَ أن يُجْعَلَ الذنبُ لوْ وَقَع منهنَّ مُغلَّظًا صيانةً لـجنَابِهنَّ ، وحِجَابِهنَّ الرَّفيع ، ولهٰذا قال سبحانه : ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ .

وفي هٰذا تحذيرٌ وتنبيهٌ وتخويفٌ من مخالفة أوامر اللهِ عز وجل وَلِيَظَلَّ بيت النبوةِ على ما يَليق به من الأدب العالي ، والخُلقِ الكريم ، والكمالِ الإنسانيِّ ، ولقد كان في هٰذا البيتِ الكريم القدوةُ والأسوةُ الطيبةُ .

وفي سورة التحريمِ جاء الخطابُ لحفصةَ وعائشةَ رضي اللهُ عنهما في قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَـٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[1] .

ففي هٰذا الآيةِ الكريمةِ حَثٌّ لهُمَا على التوبة ، أي إن تتوبا إلى اللهِ كان خيرًا لكما إذ قد صَغَت قلوبُكما ، أي : فقد مَالت قلوبُكما عن الواجب للرسول من حبِّ ما يُحِبُّه ، وكراهةِ ما يكرهُه ، وذٰلك أن النبيَّ ﷺ كان يشربُ عَسلًا عند زينبَ بنت جَحش ، ويمكُثُ عندها ، فدفعت الغَيرةُ عائشةَ وحفصةَ رضى اللهُ عنهنَّ جميعًا إلى التواطؤ ، واتفقتا على أن يجعلاه يَكْرهُ العسلَ . تقول عائشةُ كما جاء في الصحيح عند البخارى ومسلم : « فتواطأتُ أنا وحفصةُ على : أيَّتُنا دخل عليها رسولُ اللهِ ﷺ فلتقُل له : أكلتَ مَغافِيرَ ؟ إنِّي أَجِدُ منك ريحَ مَغافِيرَ ، قالَ عليه السلام : ولكني كنتُ أشربُ عسلًا عند زينبَ بنتِ جحش ، فلن أعودَ له ، وقد حَلَفْتُ ، لاتُخبري بذٰلك أحدًا ؟ وقد قال ذٰلك لإحداهما بعد أن سألتْـهُ : أأكلتَ مغافير ؟ وعند مسلم : فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال : بل

---

(١) الآية : ٤ .

شَرِبتُ عسلًا عند زينبَ بنتِ جحش، ولن أعود له» فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَىٰ ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (لعائشة وحفصة).

والمغافيرُ: بقْلةٌ أو صَمْغَةٌ مُتَغَيِّرةُ الرائحةِ فيها حلاوةٌ، واحدُها مَغْفورٌ، وكان النبيُّ ﷺ يُعجِبُه أن يوجَد منه الريحُ الطيبةُ أو يَجِدُها، وَيَكْرَهُ الريحَ الخبيثةَ لمناجاةِ المَلَكِ.

وقد تَضَمَّنَت الآياتُ من سورة التحريمِ التربيةُ العاليةُ، والتوجيهُ الكريمُ لزوجات النبيِّ ﷺ إذ الواجبُ أن تُحِبَّ الواحدةُ منهنَّ ما يُحبُّه ﷺ وتكرهُ ما يكرهُه، وكان عليه السلامُ يحِبُّ الطيبَ ويكرهُ الخبيثَ، وَيُحِبُّ الحقَّ ويكرهُ الباطِلَ، كما أن الواجبَ أن تكتُمَ الواحدةُ منهنَّ الحديثَ إذا طُلِب منها أن تكتمَهُ ولا تُخبِرَ به، فإن فعلت فقد مال قلبُها إلى الحقِّ والخيرِ، وأدَّت ما يَجِبُ نحوه ﷺ من الإجلال والتكريمِ، إذ الكلامُ وإن كان مُوَجَّهًا إلى عائشةَ وحفصةَ لِمَا حَدَث منهما بسبب الإفراطِ في الغَيرة إلَّا أنَّه من الأدب الواجبِ على سائر الزوجاتِ رضي الله عنهن.

ومع التوجيهِ بالتوبة، والإقلاعِ عن المخالفة حَذَّرهما اللهُ عزَّ وجلَّ من التعاون على ما فيه أذىً وإساءةٌ بسبب الغَيرة عليه والإفراطِ في ذلك: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1] أي إن تتظاهَرا وتَتَعاوَنا على النبيِّ ﷺ بما فيه إيذاءٌ ومخالفة وإساءةٌ، فإن الله هو وليُّه وناصرُه فلا يضُرُّه ذلك التظاهرُ والتعاونُ، وإنَّ جبريلَ وخيارَ

---

(١) الآية: ٤.

المؤمنين والملائكةَ أعوانٌ لهُ وأنصار ، ومعنى « ظهير » أعوانٌ ، وهو بمعنى ظُهَراء .

وفي سياق هـٰذا التحذير جاء التَّخويفُ بما يَشْتدُّ على المرأة أمْرُه وهو الطلاقُ ، وخصوصا أنهنَّ كُنَّ مُحِبَّاتٍ لرسول الله ﷺ ، حريصاتٍ على دوام العشرةِ معه ، قال أنسٌ كما عند البخارى : قال عُمر : اجتمع نساءُ النبيِّ ﷺ في الغَيْرة عليه ، فقلتُ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾[1] . فنزلت الآية[1] .

ولا شكَّ أنَّ المرأةَ الصالحةَ تكونُ مِعْوانًا لزوجها على ما فيه النفعُ والخيرُ ، ولا تَشغَلُه بالأمور المنزليةِ التي تكونُ دوافعُها الإفراطَ في الغَيرة أو الكبرياءَ أو نحوَذٰلك من الأمور التي لا علاقة لها بمعالي الأمور ، ولا صلَة لها بما يُحقِّقُ الخيرَ الآجلَ والعاجل ، ولا بالتعاون على طاعة اللهِ عز وجل ، وبتهيئةِ الجوِّ الأُسريِّ الذي يُتيحُ لربِّ الأسرةِ التفكيرَ فيما هو أجْدى نفعًا ، وأعظمُ فائدة ، وأكثرُ استقامةً على طريق الحقِّ والخيرِ والهُدى ، وهـٰذا توجيهٌ للنساء المؤمناتِ الصالحاتِ اللاتي يَرجُون خَيري الدنيا والآخرة ، ويسعَيْن لنيْل ما عند اللهِ من الرحمة والثوابِ ، بطاعة المرأةِ ربَّها ، ثم بعملها على تعزيزِ الأسرةِ المسلمةِ ودعْمِها بخلُقها الكريم ، وعَملها الصالحِ ، وطاعةِ زوجها ومعاونتِه على الخير ، والكفِّ عن التفكير في المشكلات الجانبيةِ التي تَشغَلُ بالَ الرجالِ ، وتُهْدِرُ الوقتَ وجزءًا من الجُهْد فيما لا خيرَ فيه ولا منفعةَ منه .

وهـٰذه لـمحاتٌ مِمّا جاء في سُورتي الأحزابِ والتحريمِ مِمَّا له صلةٌ بأدب الأسرة، وتوجيهِ زوجاتِ رسول الله ﷺ، وتأديب المؤمنات وتعليمهن وإرشادهن،

---

(١) الآية : ٥ .

وقد عُني القرآنُ الكريم بالأسرة وبَيَّن الأحكام والآدابَ التي تَضبط أمْرَها ، وتجعلُها على استقامةٍ في كل أمورِها ، وَتُوضِّحُ الحقوقَ والواجباتِ ، بما يَحفَظُ الأسرةَ من أسباب الضعفِ والانهيارِ والعَبث ، و يَجعُلها على المستوى الرفيع الذي يرجُوه الإسلامُ لـها ، لتكونَ الأسرةُ دعامةً متينةً صالحةً في بناء الـمجتمع الصالحِ السالمِ من كل آفاتِ الزَّيْغِ والانحراف ، وفي سيرة الرسولِ ﷺ ، وَسُنَّتِهِ الهاديةِ المنهلُ العذبُ لإرواء ظمأِ الطامحين إلى الـخير ، الراغبين في شفاء النفوس ، وسلامةِ الفكر ، واستقامةِ الخُلق ، وسكينةِ الحياةِ الزَّوجية ، وبناءِ الأسرةِ الواعيةِ الصالحةِ في المعتقدات والمسالكِ والفضائلِ والأعمال .

وقد ضَرَب اللهُ الأمثالَ في ختام سورةِ التحريم للتنبيه إلى مسؤولية الفردِ عن نفسه أمامَ ربِّه يومَ تُكْشَفُ الخَبايا ، وتَظهرُ النوايا ، ويُحَاسَبُ كلُّ إنسانٍ عن معتقداته وأقوالِه وأعمالِه ، حتى لايَتَّكِلَ أحدٌ على مكانة غيرِه وصلاحِه وتَقْواه ، وحتى لا يَغْترَّ أحدٌ بقرابته للنبيِّ محمدٍ ﷺ فيلجأ إلى التمنِّي ، ويتركَ الطاعةَ ، أو يُفَرِّطَ أو يُفْرِطَ ، ففي القيامة لا يُحَابَىٰ أحدٌ بسبب قرابتِه لنبيٍّ من الأنبياء ، أو ولِيٍّ من الأولياء ، أو طولِ صُحبتِه كصحبة الزوجةِ لزوجها الصالحِ التقيِّ ، كما لا يَضِيرُ المرأةَ الصالحَة فسادُ معتقدَات زوجِها ، وسوءُ مَسالكِه ، ما دام جوهرُ نفسِها نَقِيًّا خالصًا من كُدورة الشركِ والنفاقِ ومُحبِطاتِ الأعمال .

وقد ضَرب اللهُ عز وجل المثَل بامرأة نوحٍ وامرأةِ لوطٍ لتخويف أمَّهاتِ المؤمنين رضي الله عنهنَّ بأنهن لا يُفيدهن ، إن أتيْن بمعصيةٍ ، اتصالُهن بالنبيِّ محمدٍ ﷺ ، وكونُهنَّ في عِصمته ، وهـٰذا بفضل اللهِ من تمام تربيتِهنَّ ، وتوجيهِهنَّ الوِجْهَةَ الصالحةَ ، وَهُنَّ في بيت القُدوةِ الطيبةِ للمسلمين والمسلمات في كل زمانٍ ومكانٍ ، فخيانةُ زوجَتَيْ نوحٍ ولوطٍ للرسولين الكريمين دفعتْ بهما إلى نارِ جهنمَ وبئس المصيرُ ، ولم يُغْنِ زوجاهما الصالحان الكريمان المقرَّبان عنهما شيئًا .

٥٨ - ج - لا نجاة إلا بإيمان صحيح وعمل صالح .

قال الإمامُ ابنُ القيِّم في كتابه : « الأمثالُ في القرآن الكريم » اشتملتْ الآياتُ الثلاثُ في خِتام سورةِ التحريم على ثلاثة أمثال : مَثَلٌ للكافر ، ومَثَلين للمؤمنين ، فتضمَّن مثَلُ الكافر أنَّ الكافرَ يُعاقَبُ على كُفره ، وعلى عداوته لله ورسولِه ﷺ ، وأوليائِه ، ولا ينفعُه مع كُفره ما كان بينه وبينَ المؤمنين من لُحْمة نَسَب ، أو صِلةِ صِهْر ، أو سَبَبٍ من أسباب الاتصال ، فإن الأسبابَ كلَّها تتقطعُ يومَ القيامة ، إلا ما كان من هٰذه الأسباب مُتَّصِلًا باللهِ وَحْدَه على أيدي رسلِهِ عليهم الصلاةُ والسلام .

فلو نفعت وُصْلَةُ القَرابةِ والمُصَاهَرةِ والنكاح مع عدمِ الإيمانِ لنفعت الصِّلةُ التي كانت بينَ نوحٍ ولوطٍ عليهما الصلاةُ والسلامُ وامرأتيهما ، فلمَّا لم يُغْنِيا عنهما من الله شيئًا ، وَقِيلَ لهما ادخُلا النَّارَ مع الدَّاخِلين ، فقطعت الآيةُ حينئذٍ طمَع مَن ارتكَبَ معصيةَ اللهِ تعالى ، وخالفَ أمرَه ، ورجا أن ينفعَهُ صلاحُ غيرِه من قريبٍ أو أجنبيٍّ ، ولو كان بينهما في الدنيا أشدُّ الاتصال ، فلا اتصالَ فوق اتِّصالِ النبوةِ والأبوةِ والزوجيةِ ، ولم يُغْنِ نوحٌ عن ابنه ، ولا إبراهيمُ عن أبيه ، ولا نوحٌ ولوطٌ عن امرأتيهما من الله شيئًا ، قال اللهُ تعالى : ﴿ **لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى**

---

(١) الممتحنة : ٣ .

(٢) الانفطار : ١٩ .

نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[2] .

وفي المثَل الذي ضَرَبَهُ اللهُ للذين كفَروا يقول سبحانه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ، وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[3] .

ثم يقول ابنُ القيِّم : وهـٰذا كلُّه تكذيبٌ لأطماعِ المشركين الباطلةِ ، أنَّ مَن تعلَّقُوا به من دون اللهِ من قَرابة أو صِهرٍ أو نكاحٍ أو صُحبةٍ تنفعُهم يومَ القيامة ، أو تُجيرُهم من عذاب اللهِ تعالى ، أو تشفعُ لهم عند الله تعالى ، وهـٰذا أصلُ ضَلالِ بني آدم وشِركِهم ، وهو الشِّركُ الذي لا يَغْفِرُه اللهُ ، وهو الذي بَعَث اللهُ تعالى جميعَ رسلِه عليهم الصلاةُ والسلام ، وأنزل جميعَ كتبِه بإبطاله ومحاربةِ أهلِه ومعاداتِهم .

ثم يُشير ابنُ القيم إلى مناسبة المثَلِ لِمَا جاء في أولِ سورةِ التحريم من توجيهٍ وتحذيرٍ لأزواج النبيِّ محمدٍ ﷺ فيقول ابنُ القيم : ثم في هـٰذه الأمثال من الأسرار البديعةِ ما يُناسب سِياق السورة ، فإنها سِيقت في ذِكْرِ أزواج النبيّ ﷺ ، والتحذيرِ من تظاهُرِهِنَّ عليه ، وأنهنَّ إن لم يُطِعْنَ اللهَ ورسولَه ﷺ ، ولم يُرِدْن الدارَ الآخرةَ لن ينفعَهُنَّ اتصالُهن برسول الله ﷺ ، كما لم ينفع امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتصالُهما بهما ، ولـٰهذا ضُرِبَ لهما[4] في هـٰذه السورةِ مَثَلُ اتِّصالِ النكاحِ دون القرابة .

وقال يَحْيى بنُ سَلام التيميّ المفسِّرُ الفقيهُ : ضرب اللهُ هـٰذا المثَلَ يُحذِّر

---

(١) البقرة : ١٢٣ .

(٢) لقمان : ٣٣ .

(٣) التحريم : ١٠ .

(٤) لهما : أي لعائشة وحفصة وهما المتظاهرتان .

عائشةَ وحفصةَ ، أي لأنهما المقصودتان بقوله تعالى : ﴿ **وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ** ... ﴾الآية .

﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟** ﴾ .

ضَرْبُ المَثَل : يَعْني ذِكْرَ حالٍ غَرِيبةٍ لِتُعْرَفَ بها حالٌ أُخرى تُشاكِلُها في الغَرابة ، وقد ضَرب اللهُ هٰذا المَثَلَ تنبيهًا على أنّه لا يُغني أحدٌ في الآخرة عن قريب أو نسيبٍ إذا فَرَّق بينهما الدينُ ، فالقرابةُ ، والمخالطةُ ، والمعاشرةُ لا تنفع الكافرَ عند ربِّه ، وإنْ كان المخالَطُ نبيًّا ، إن لم يكن الإيمانُ حاصلًا في القلوب ، ثم ذَكَرَ المَثَلَ فقال : ﴿ **ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ** ﴾ وكان اسمُ امرأةِ نوحٍ واغِلةَ ، وقيل : والِهَةَ ، واسمُ امرأةِ لوطٍ والعةَ ، وقيل والهةَ ، وقد عاشرتا أشدَّ العِشرة والاختلاطِ نَبيَّين رسولين ، وكانتا في صُحبتهما ليلًا ونهارًا ، يؤاكلانهما ، ويُضاجعانهما ، ﴿ **فَخَانَتَاهُمَا** ﴾ أي في الإيمان ، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صَدَّقَاهُما في الرسالة ، فلم يُجْدِ ذٰلك كلُّه شيئًا ، ولا دفَع عنهما محْذُورا ، ولهٰذا قال سبحانه : ﴿ **فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا** ﴾ أي لكُفرهما ، ﴿ **وَقِيلَ** ﴾ أي للمرأتين عند موتِهما أو يومَ القيامةِ ﴿ **ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ** ﴾ أي الذين لا وُصْلَةَ بينهم وبين الأنبياء ، أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوحٍ وقومِ لوط .

والخيانةُ إنما كانت في الدِّين ، لأن نساءِ الأنبياءِ معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة لِحُرمة الأنبياءِ ، وقد سُئل ابنُ عباسٍ رضي اللهُ عنهما : ما كانت تلك الخيانةُ ؟ فقال : كانت امرأةُ نوحٍ تقول : زوجي مجنونٌ ، وأمرأةُ لوط تَدُلُّ الناسَ على ضيفه إذا نزلوا به .

وقال عكرمةُ : ﴿ **فَخَانَتَاهُمَا** ﴾ أي بالكُفر ، وعن ابن عباس : ما بَغَتْ

امرأةُ نبيٍّ قَط . وهـٰذا إجماعٌ من المفسِّرين ، إنما كانت خيانتُهما في الدين وكانَتا مُشركتين ، وقيل : كانتا مُنافقتين ، وقيل : خيانتُهما النميمةُ أي بنقل ما يَنزِلُ به الوحْيُ إلى المشركين ، وقيل : كانت امرأةُ لوطٍ إذا نَزل به ضيفٌ دَخَّنَتْ لتُعْلِمَ قومَها أنه قد نَزل به ضيفٌ، لمَا كانوا عليه من عَمَل السَّوء .

وقد قِيل في أسباب نزول المَثل : إن كفارَ مكةَ استهزءوا ، وقالوا : إن محمدًا – ﷺ – يشفعُ لنا ، فبيَّن اللهُ تعالى أنَّ شفاعتَه لا تنفعُ كفارَ مكةَ وإن كانوا أقرباءَ ، كما لا تنفعُ شفاعةُ نوح لامرأتـه ، وشفاعةُ لوطٍ لامرأته مع قُربهما لهما لكفرهما ، وقيل لهما : ﴿ **ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ** ﴾ في الآخرة ، كما يُقال لكفار مكةَ وغيرِهم .

لقد ضَرَب اللهُ عز وجل الأمثالَ للناس لعلهم يتذكَّرون وَلِتُوقِظَ من منام ، وتُنبِّهَ من غفلة ، كي يُقْبِلَ أهلُ العقل والحكمةِ على الحقِّ ويُؤمنوا به ، ويَسيروا في الطريق الصحيح الذي لا عِوَجَ فيه ولا انحرافَ لِيَصِلُوا إلى النجاة في يومٍ يَفِرُّ فيه المرءُ من أخيه ومن أمِّه وأبيه ، ومن صاحبتِهِ وبنيه ، ويقول فيه كلُّ واحد : نَفسي نَفسي ، إنه اليومُ الذي لا يُغني فيه أحدٌ عن أحد ، ولا ينفعُ الإنسانَ فيه إلَّا إيمانُه الصحيحُ ، ويَقِينُه الصادقُ ، وعملُه الصالح ، واقتداؤُه بنبيِّه .

إنَّ أبا لهبٍ وهو عبد العُزَّىٰ بنُ عبدِ المطلب كان كثيرَ الأذيَّةِ لرسول الله ﷺ ، وكان يسخَرُ منه ويحسُدُه على نعمة النبوة ، ولعتوِّه وتعنُّتِه كان من أهلِ النار ، ولم يشفعْ له أنه عمُّ النبيِّ محمدٍ ﷺ ، وفيه يقول الحقُّ تبارك وتعالى : بسم اللهِ الرحـٰمنِ الرحيم : ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ أي سيدخلُ جهنَّمَ ويُقَاسِي حَرَّ نارٍ ذاتِ شَرَرٍ ولهيبٍ وإحراقٍ

شديدٍ ، لقد آذى رسولَ اللهِ ﷺ : كما آذت امرأةُ نوحٍ وامرأةُ لـوطٍ النَّبيّين الكريمين عليهما الصلاةُ والسلامُ فقيل لهما ﴿ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ من أمثال أبي لـهبٍ وسائرِ المشركين والـملحدين والمنافقين والكافرين .

ولقد دعا عيسىٰ عليه السلام بنى إسرائيلَ إلى السير في الطريق الصحيح إذا أرادوا لأنفسهم النجاةَ والفوزَ يومَ القيامةِ بأن يَعبدوا اللهَ وحده ، ويُخلصوا الطاعةَ لله ، وبأن يتركوا الأوهامَ والأباطيلَ ، فليس لله ندٌّ ولا شريكٌ ولا ولدٌ ولا صاحبةٌ ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[1] .

فهل لعاقلٍ أن يرتكنَ إلى شفاعة أحدٍ من الـخلْق أو الانتسابِ إليه ، أو الاتصالِ به بأي سببٍ من أسباب الاتصال ، ويتركَ الأسبابَ الصحيحةَ التي تجعلُ الإنسانَ أهلًا لرحمة اللهِ وعفْوِه ، ويَرى أن ذٰلك يُنيلُه عَفْوَ اللهِ ورحمتَه يومَ الفزعِ الأكبر ، ويتعلقَ بمثل هٰذه الأوهام ، وقد أرسل اللهُ عز وجل الرسلَ ليدعُوْا إلى توحيد الله ، وطاعتِه ، والإذعان لأمره ، وإخلاصِ العبادةِ له ، والبُعْدِ عن الشرك ، وإن عيسىٰ ابنَ مريمَ عليه السلام لمَّا سأله ربُّه : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2] كان جوابُه أنْ نَزَّهَ اللهَ عز وجل عن الشريك والنِّدِّ ، فقال : ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾[2] ، ثُم قال مُبيِّنًا أنَّ دعوتَه قائمةٌ على إخلاصِ التوحيدِ كما دعا جميعُ الأنبياء : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى

---

(١) المائدة : ٧٢ .

(٢) المائدة : ١١٦ .

وَرَبَّكُمْ ﴾[1] .. والله عز وجل يقول لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2] .. فلا يُنالُ ما عند الله من الكرامة إلا بصحَّة العقيدةِ ، وإخلاصِ العبادةِ لله ، وامتثالِ أوامرِه ، أمَّا الشفاعةُ فهي للمذنبين من أهل التوحيد النقيِّ الخالصِ الذين أطاعوا ربَّهم ، وتكونُ بإذن الله وحْده وبفضلِه وإحسانه ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾[3] ، أي : لا يشفعُ مَن يأذنُ اللهُ له في الشفاعة كالنبى محمدٍ ﷺ إلَّا لِمَن أرادَ اللهُ سبحانه وتعالى أن يشفعُوا له ، وهم منه خائفون وَجِلون .

أما مَن لم يعبد ربَّه ، وَغَوىٰ مع الغَاوين ، وكَذَّب بيوم الدين ، وشَكَّ في البعث والحسابِ فهـٰذا لا تنفعُه يومَ القيامةِ شفاعةُ شافعٍ فيه ، لأن الشفاعةَ إنما تنجعُ إذا كان المَحِلُّ قابلًا ، فأمَّا مَنْ وَافَىٰ الله كافرًا يومَ القيامة فإنه له النارُ لا محالةَ خالدًا فيها : ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴾[4] .

إن الكافرَ يُعاقَبُ على كفره وعلى عداوتِه للمؤمنين ، ولا ينفعُه مع عداوتِه لدين الله ما كان بينه وبين المؤمنين من لُحمة نسَب أو وُصلة صِهر ، لأن في عداوة المؤمنين والكفرِ بالله وبرسولِه قَطْعًا للعلائق ، وفَصْمًا للصِّلات ، وَيَصيرُ عدوُّ اللهِ أبعدَ من الأجانب وأبعد ، وإن كان المؤمنُ الذي يَتَّصِلُ به الكافرُ نَبِيًّا . وقد مَثَّلَ الله ذلك بحالِ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ للعظة والاعتبار .

---

(١) المائدة : ١١٧ .

(٢) الأنبياء : ٢٥ .

(٣) الأنبياء : ٢٨ .

(٤) المدثر : ٤٣ : ٤٨ .

٥٩ - د - آسية امرأةُ فرعونَ ومريم ابنة عمران .

قال الله تعالى من سورة التحريم :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ ١١ و ١٢ .

ضَرْبُ المَثَلِ : ذِكْرُ حالٍ غريبةٍ لِتُعْرَفَ بها حالٌ أُخرى تُشاكِلُها في الغرابة .

وقد مَثَّل اللهُ عزَّ وجل حالَ المؤمنين في أنَّ وُصْلَةَ الكافرين لا تضرُّهم ، ولا تُنقِصُ شيئًا من ثوابهم وزُلفاهم عند اللهِ بحال امرأةِ فرعونَ ومنزلتها عند الله تعالى ، مع كونها زوجةَ أعْدىٰ أعداءِ الله الناطقِ بالكلمة العُظمى ، وهو من أكفرِ الكافرين ، وبحالِ مريمَ ابنةِ عمرانَ ، وما أُوتيت من كرامةِ الدنيا والآخرة ، والاصطفاء على نساء العالمين مع أنَّ قومَها كانوا كُفَّارا ، وفي طيِّ هذين التمثيلين تعريضٌ بأُمَّي المؤمنين المذكورتين في أوَّلِ سورةِ التحريم ، وما فَرَط منهما من التظاهُر على رسول الله ﷺ بما كرِهَه ، وتحذيرٌ لهما ، وفي التمثيل إشارةٌ وتنبيهٌ إلى أن من حق أُمَّي المؤمنين عائشةَ وحفصةَ رضي الله عنهما ومِن واجبهما أن تكونا في الإخلاص والكمالِ فيه كمثَلِ هاتيْن المؤمنتين امرأةِ فرعونَ ومريمَ ، وألَّا تتكلا على أنهما زوجا رسولِ الله ﷺ ، فإن ذلك الفضلَ لا ينفعُهما إلا مع كونهما مُخلصتين ،

مُحِبَّتين لما يُحِب رسولُ الله ﷺ ، كارهتين لما يكرهُ ، حافظتين للسرِّ إذا طُلب إليهما حِفْظُه وعدمُ إفشائه .

إنَّ اتصال المؤمنِ بالكافر لا يضرُّه شيئًا إذا فارقَهُ في كفره ، وفي عمله ، إذ إن معصية العاصي لا تضرُّ المطيعَ شيئًا في الآخرة ، وإنَّ تضرُّرَ أهلِ الطاعةِ والإيمانِ بما تجرُّه معاصي العصاةِ من العقوبات إنما يكون في الدنيا ، هذه العقوباتُ التي تَحِلُّ بأهل الأرضِ إذا أضاعوا أمْرَ اللهِ عزَّ وجل ، فتأتي عامةً ، كالزلازل والبراكين والخسفِ ، والقحطِ والأمراضِ ، والغلاءِ وغيرِ ذلك من الفتن ، والمصائبِ العامةِ التي يُبتلىٰ بها المؤمنون وغيرُهم في الدنيا ، واللهُ عزَّ وجل يقول : ﴿ **وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ** ﴾[1] أي واتقوا مصيبةً لا يقتصرُ نزولُها على الظالمين أهلِ المعاصي وحْدهم ، بل تعمُّ مَنْ لم يكونُوا منهم لتقصيرهم في الأمر بالمعروف والنهْي عن المنكر .

قال ابنُ كثير : وهٰذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ للمؤمنين أنهم لا تضرُّهم مخالطةُ الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً** ﴾[2] .

قال قتادةُ : كان فرعونُ أعْتَىٰ أهلِ الأرضِ وأبعدَهُم ، فواللهِ ما ضَرَّ امرأتَهُ كُفْرُ زوجِها حين أطاعت ربَّها ، لتعلموا أنَّ اللهَ حَكَمٌ عَدْلٌ ، لا يؤاخذ أحدًا إلَّا بذنبه .

وقالوا : لم يضرّ امرأةَ فرعونَ اتصالُها به ، وهو من أكفرِ الكافرين ، ولم ينفع

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

(٢) آل عمران : ٢٨.

امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتصالُهما بهما وهما رسُولا ربِّ العالمين . وفي ذٰلك عبرةٌ لكل ذي بصيرةٍ وفَهْم .

ومن العبر التي يخرجُ بها المتأملُ في المثَل الذي ضربَهُ لِلَّذين آمنوا بامرأة فرعونَ ومريمَ ابنةِ عمرانَ الترغيبُ في التمسك بالطاعة، والثباتِ على الدين، وعدمِ الزيْغ عن طريقه ، كما أن فيه حثًّا للمؤمنين على الصبر في الشدة ، أي لا تكونوا يا أهلَ الإيمانِ في الصبر أَضْعَفَ من امرأة فرعونَ حين صبرت على أذى فرعون .

وامرأةُ فرعون هي آسيةُ بنتُ مُزاحم ، وكانت آمنت بموسى حين سمعت بتلقُّف عَصَا موسى الإفْكَ : ﴿ **فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾[1] . وقيل : كانت آسيةُ عمةَ مُوسىٰ ، ولما اطَّلع فرعونُ على إيمانها خَرج على الملأ ، فقال لهم : ما تعلمون من آسيةَ بنتِ مزاحم؟ فأثْنَوا عليها، فقال لهم: إنها تعبدُ ربًّا غيري؟ فقالوا له : اقتُلْها ، فأوْتَدَ لَها أوتادًا ، وشدَّ يديها ورجليها ، فقالت : ﴿ **رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ** ﴾ووافق ذٰلك حضورُ فرعونَ ، فضحِكت حين رأت بيتَها ، فقال فرعونُ : ألَا تعجبون من جنونها ؟ إنَّا نعذّبُها وهي تضحك ، فقُبض روحُها .

وفي أثرٍ عن سلمانَ الفارسيِّ رضي اللهُ عنه : أنها كانت تُعَذَّب بالشمس فإذا آذاها حرُّ الشمس أظلَّتها الملائكةُ بأجنحتها ، وكانت ترى بيتَها في الجنة .

وفي أثرٍ عن أبي هريرةَ : أنَّ فرعونَ وتَدَ امرأتَه بأربعةِ أوتاد ، واستقبل بها الشمسَ ، وأضْجعَها على ظهرها ، ووضَع رَحىً على صدرها . وقيل : أَمَرَ

---

(١) الشعراء : ٤٥ : ٤٧ .

فرعونُ بأن تُلقىٰ عليها صخرةٌ ، فدعت المرأةُ الصالحةُ اللهَ فَرَقِيَ بروحها ، فأُلقيت الصخرةُ على جسدٍ لا رُوحَ فيه ، وعن الحسن : فنجَّاها اللهُ أكرمَ نجاة ، فرفعها إلى الجنة ، فهي تأكلُ وتشربُ ، وتتنعمُ فيها ، وذلك حين قالت : ﴿ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي من عمل فرعونَ ، وطلبت الخلاصَ منه ، وأعلنتْ براءتَها من عمله وهو الكفرُ والبطشُ بالعباد ، وسألت ربَّها النجاةَ من نَفْس فرعونَ الخبيثةِ و كِبْرِه وقسوتِه وتعنُّتِه .

﴿ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي من كل تابعٍ شايَعَ فِرعونَ على كُفره وظلمِه . .

وفي هٰذا الدعاءِ دليلٌ على أنَّ الاستعاذةَ بالله ، والالتجاءَ إليه وسؤالَهُ سبحانه الخلاصَ عند المِحَن والشدائدِ والنوازلِ من سِيَرِ الصالحين ، وسُنَنِ الأنبياءِ ، والمرسلين ، ومن دُعاء المرسلين : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] على لسان نوحٍ عليه السلام ، وجاء على لسان قومِ موسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2] وإنَّ جميعَ الأنبياءِ والمرسلين والصالحين سألوا اللهَ عز وجل ، وتضرعوا إليه ، والتجأوا إليه في مِحنهم وشدائِدهم ، وعند اشتدادِ الكربِ كانوا يفزعون إلى الله وحده ، كما التجأت آسيةُ امرأةُ فرعونَ رضي اللهُ عنها إلى ربها تطلب القربَ من رحمة الله ، والبعدَ من عذاب أعدائِه ، والنجاةَ من بطش فرعونَ ورجالِهِ ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ

---

(١) الشعراء : ١١٧ و ١١٨ .
(٢) يونس : ٨٥ و ٨٦ .

﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ . فاستجاب لها ربُّها ، وأُكرِمت بفضله وإحسانِه ، وأُرِيَت بيتَها في الجنة يُبْنَىٰ ، ثم رُفِعَت إليه لتنعمَ بالخلود في النعيم . ثم تأمل : كيف تنشرحُ الصدورُ المؤمنةُ بالرِّضَىٰ والمحبةِ حين تُذكَر امرأةُ فرعونَ ، وكيف تَصْعَدُ حين يُذْكَرُ فرعونُ اللعنات ، وترى النفوسُ فيه وفي أمثاله نموذجًا لضيق العقلِ ، وسوءِ الأدب ، وفساد التربية ، وقُبح السريرة ، والتواءِ الفكر ، وضلالِ المقاصدِ والاتجاهِ ، وقد أدَّاهُ كِبْرُه وغَشَمُه وخُبْثُه إلى سوء المصير ، وَصُبَّت عليه اللعناتُ صَبًّا ، وَجَرَّ معه الأشياعَ والأتباعَ إلى الخلود في الشقاء ، ولنتدبر من سورة القصص : ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾[1] .

فخُذ يا ذا اللبِّ من الأمثال العِبَرَ ، لِتحذرَ طريقَ الهالكين ، ولا تشايعَ الملحدين والضالين ، ولتلْزَمَ التواضعَ والرفقَ والسيرَ في طريق الصالحين .

ثم تأمل : كيف أثنى اللهُ عز وجلَّ على مريمَ بنتِ عمرانَ الصالحةِ القانتةِ الطاهرةِ : ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي حَفِظته وصانته ، والإحصانُ : هو العفافُ والحرية .

﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي : بواسطة المَلَكِ ، وهو جبريلُ ، فإنَّ اللهَ بعثَه إلى مريمَ فتمثَّلَ لها في صورة بشرٍ سويٍّ ، وأمره تعالىٰ أن يَنفُخَ بفيه في جَيْب دِرْعِها ، فنزلت النفخةُ فولَجتْ في فَرْجها ، فكان منه الحملُ بعيسى عليه السلام ، وفي قراءةِ أُبي « فَنَفخنْا فِي جَيْبِها مِن رُّوحِنا » وكلُّ خَرْقٍ في الثوب يُسَمَّى جَيبًا . .

---

(١) القصص : ٣٩ : ٤٢ .

فقد أرسل اللهُ عز وجل جبريلَ فنفخ في جيبها .

﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي روحًا من أرواحنا وهي روحُ عيسى عليه السلام .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ﴾ أي بقدَرِه وشرْعِه .

﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ أي من المُطِيعين ، وقيل من المصلِّين ، بين المغربِ والعشاءِ ، فقد كانت من أهل بيتٍ مطيعين لله عز وجل .

لقد أُعطِيت مريمُ من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاءِ على نساء العالمين ، وصَبَرت على أذى الكفارِ من قومها ، فمريمُ عليها السلامُ مَثَلٌ لأهل الإيمانِ في الطاعةِ ، والصبرِ ، والطهرِ ، والعفافِ ، والتصديقِ ، وسلامةِ الإيمانِ ، وقوةِ اليقين ، ونقاءِ القلب ، وصفاءِ النفس : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ * يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[1] .

وقد جاء في مسند الإمامِ أحمدَ أنّ ابن عباس قال : خَطَّ رسولُ الله ﷺ في الأرض أربعةَ خطوط وقال : « أتدرون ما هـٰذا » ؟ قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم ، فقال عليه السلامُ : أفضلُ نساءِ أهلِ الجنةِ خديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمةُ بنتُ محمد ، ومريمُ ابنةُ عمرانَ ، وآسيةُ ابنةُ مزاحم امرأةُ فرعون » .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال : « كَمُل من الرجال كثير ، ولم يكمُل من النساءِ إلا آسيةُ امرأةُ فرعونَ ، ومريمُ بنتُ عمرانَ ، وخديجةُ بنتُ خويلد ، وإن فضلَ عائشةَ على النساء كفضل الثريدِ على سائر الطعام » رضي الله عنهن .

---

(١) آل عمران : ٤٢ و ٤٣ .

من سورة الأعراف

٦٠-١ - آمن لسانه وكفر قلبه .

ضَرب اللهِ الأمثالَ للناس لعلَّهم يتذكرون .

وفي الأمثال التي جاءت على لسان رسولِه الكريم ﷺ ، وفي كتابه العزيزِ عِبرٌ وعظاتٌ ، وفيها حِكَمٌ وأحكامٌ ، والنفوسُ الطيبةُ تنفعُها الذكرى ، وتزيدُها إيمانا .

وفي القرآن الكريمِ تبصيرٌ وتنويرٌ ، وترغيبٌ وترهيبٌ ، وإنَّ الأمثالَ في القرآن لونٌ من ألوان الهدايةِ الإلٰـهيةِ تُغرِي النفوسَ وتحضُّها على الخير والبرِّ ، أو تردعُها وتمنعُها من الإثم والشرِّ ، كما أنها تشوِّقُ إلى الفضيلة ، وتبغِّضُ في الرذيلة ، وتدفعُ أصحابَ القلوبِ اللينةِ إلى الترقِّي في مدارج الكمالِ الإنسانى بجانبيه الروحىِّ والجسدى ، المادىِّ والعقلى .

وقد يجيء المثلُ لتقريب صورةٍ لـحالة نفسيةٍ لـنماذجَ بشريةٍ غرَّتها الشهواتُ العاجلةُ ، وفتنتها الشبهاتُ ، فآثرت ما يَفْنَىٰ على ما يَبْقَىٰ ، وتابعت الـهوىٰ ، وخادعت العَقْل بعد أن عرفتْ الحقَّ بالدليل والبرهان وخالفت العِلْمَ فاختارت الضلالةَ على الـهدى ، والظلامَ على النور ، فخسِرت ، وشقِيَتَ ، وتعِسَت .

وفي هٰـؤلاء وأمثالِهم جاء المَثَلُ المأثور : « آمن لسانُه وكفر قلبُه » ومن الأمثال الحكيمةِ التي جاءت على لسان الرسولِ ﷺ : « آمَنَ شِعْرُه وكفَر قلبُه » وقد قال ذٰلك في أميةَ بنِ أبي الصلت الثقفى ، وكان قد قرأ الكتبَ ،

ونظر في الآيات الكونية ، وقد عَلِم أنَّ اللهَ مرسِلٌ رسولًا في ذلك الوقت ، وتمنَّى أن يكونَ هو ذلك الرسولَ المرتقبَ ، فلما أرسل اللهُ عز وجل نبيَّه محمدًا ﷺ حسَده ، وكفَر به ، فهذا عَلِم الحقَّ ولم يعمل بما عَلِم ، آمن شعرُه الذي تضمَّن تأمُّلاته في الكونِ والحياة ، ولكنه نكَص على عَقِبيْه ، وكفر قلبُه ، ومن تأملاته في أبياتٍ له ، رواها ابنُ هشام يذكر قدرةَ اللهِ عزَّ وجل ، وفضْلَه في حماية البيتِ الحرام عامَ الفيل ، يقول أميةُ بنُ أبي الصلت :

إنَّ آياتِ رَبِّنا ثاقباتٌ ... لا يُمارِي فيهنَّ إلَّا الكفور

خُلِق الليلُ والنهارُ ، فكلٌّ ... مُستبِينٌ ، حسابُه مقدور

ثُم يجلُو النهارَ ربٌّ رحيمٌ ... بمهاةٍ شعاعُها منشور

حَبَس الفِيلَ بالمُغَمِّس حتى ... ظَلَّ يحبُو كأنَّه معقُور

ثم صوَّر الفيلَ بعد بُروكه ووقوعه إلى الأرض صوَّره بحجَرٍ تَحدَّر من جبلٍ حتى استقرَّ على الأرض ، وتحدَّث عن تفرُّق جيشِ أبرهةَ وتمزُّقِه وما وقع له من خِزْي الهزيمة ، ثم قال عن دينِ إبراهيمَ عليه السلام :

كلُّ دين يومَ القيامة عند اللـ ... ـهِ إلا دينَ الحنيفةِ بُور

فهو يقول : إنَّ آياتِ اللهِ الدالةَ على وجوده ووحدانيته ثاقباتٌ ، أي مضيئات واضحاتٌ ، لا يجادل فيهنّ ، ويخالفُ في دلالتها على وجود الصانع وكمالِ قدرتِه ووحدانيتِه إلا الجاحدُ الكفور ، ثم لَفت إلى تعاقب الليل والنهارِ وما فيهما من آية ظاهرةٍ واضحةٍ على وجود المدبرِ الحكيم ، ثم لفت إلى الشمس التي تنشرُ شعاعَها وتضيءُ الكونَ رحمةً بالعباد :

ثُم يَجْلُو النهارَ ربٌّ رحيمٌ ... بمهاةٍ شعاعُها منشور

والمهاةُ : الشمسُ ، سُمِّيت بذلك لصفائها ، والمَها من الأجسام : الذي

يُرى باطنُه من ظاهره ، ثم تحدَّث الشاعرُ عن فيلِ أبرهةَ مبينًا قدرةَ اللهِ في حبسه بالمغمِّس فما استطاعوا أن يدفعوه إلى البيت الحرام ، وكأنه عُقِر في مكانه ذاك ، والمغمِّس : موضعٌ بطريق الطائفِ على ثلثي فرسخٍ من مكةَ المكرمةِ ، وقد بَرك فيه فيلُ أبرهةَ ، وضربوه ليقومَ فأبىٰ ، وبعد ضربٍ شديدٍ وجَّهوه راجعًا إلى اليمن فقام الفيلُ يُهرول ، ووجَّهوه إلى الشام ففعل مثلَ ذٰلك ، ثم وجَّهوه إلى مكةَ فَبرك ، فأرسل اللهُ عليهم طيرًا من البحر مثلَ العصافير ، مع كل طائرٍ منها ثلاثةُ أحجار يحملُها : حجرٌ في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثالُ الحِمَّصِ والعدَسِ لا تُصيبُ منهم أحدًا إلَّا هلَك وليس كلُّهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ الذي منه جاءوا ووصف أميةُ هٰذا المشهدَ فقال عنهم وقد تركوا الفيلَ وهربوا :

خَلَّفُوه ثم ابْذَعــرُّوا جميعًــا كلُّهم عظْمُ ساقِه مكسور

وابذعرُّوا : أي تفرَّقوا ، وهي لفظةٌ توحي بشدة الخوفِ أيضا .

وفي هذا المشهدِ يقول آخر : نُفيل بنُ حبيب حين رأى ما نزل بأصحاب الفيل من النقمة :

أيـن المفـرُّ والإلٰـهُ الطــالبْ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغـالبْ

والأشرم : هو أبرهةُ ، وهٰذا البيتُ صار مثلًا يُضْرَب في الحالات المشابهة .

ثم نعود إلى إقرار أميةَ بنِ أبي الصلت بأنَّ كلَّ دينٍ يخالف دينَ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلامُ فهو دينٌ باطلٌ وزور ، وأصحابُه هلكىٰ يوم القيامة .

كلُّ دينٍ يومَ القيامة عند اللــ ـهِ إلا ديــنَ الحنيفــةِ بور

وفي رواية زور :

ويريد بالحنيفة : الأمة الحنيفة ، أي المسلمةَ على دين إبراهيمَ الحنيفِ عليه

السلامُ ، وذلك أنه حَنَفَ عمَّا كان يعبد آباؤُه وقومُه : أي عَدَل ومَال .

فهـٰذه بعضُ أبياتِ أميةَ في التوحيد ، ولكنه ضيَّع نفسَه بسبب الكِبر والغرورِ والحسدِ فكفر بنبى الهُدى والرحمة ، إذ آمن شعرُه وكفَر قلبُه ، وقد نَسَب ابنُ هشام إلى أميةَ من قصيدةٍ قولَه :

أَلا أيُّها الإنسانُ إيَّاكَ والرَّدىٰ فإنَّكَ لا تُخْفِي من اللهِ خافيًا
وإيَّاكَ لا تجعلْ مع اللهِ غيْرَهُ فإنَّ سبيلَ الرُّشْدِ أصبحَ باديًا

فهو يحذِّر مِمَّا يأتي به الموتُ ويُبديه ويكشفُه من جزاءِ الأعمالِ : « إيَّاك والردىٰ » كما يحذِّر من الشرك لأن الأدلةَ واضحةٌ والبراهينَ ساطعة .

وقد نُسِب البيتان أيضا إلى زيد بنِ عمرو بنِ نفيل الذي مات على التوحيد وأثنى عليه رسولُ اللهِ ﷺ . إلا أنه لم يدرك البعثة ، وكان ابنُه سعيدٌ صحابيًّا جليلا ، وتزوَّج فاطمةَ بنتَ الخطابِ رضي اللهُ عنها .

إن أميةَ بنَ أبي الصلت مثالٌ لمن آمنَ شعرُه وكفر قلبُه ، وهناك غيرُه كثيرون من العرب واليهودِ وغيرِهم ، مِمَّن آمنوا بعقولـهم وكفرت قلوبُهم لمتابعتهم الـهوىٰ ، ومخادعتِهم عقولَهم ، ومخالفتِهم العلم ، وانسلاخِهم من آيات اللهِ عز وجل بعد أن عرفوها ، فتلاعب بهم الشيطان ، وهؤلاء موجودون في كل زمان ، ومنهم أحبارٌ يهود ورهبانٌ نصارى عرفوا النبيَّ محمدًا ﷺ ، وأنه النبيُّ الذي بشَّرت به التوراةُ والإنجيلُ ولكن غلبهم الهوى ، واختاروا الضلالة ، وآثروا العداوةَ لرسول اللهِ ﷺ ولدينه حسدا وحقدا ، وإرضاء لشهوات النفس ، ومرضِ القلوب .

ومن هـٰؤلاء قومٌ تعلموا العِلم ، وقرأوا القرآن الكريم ، وعرفوا سنةَ النبـي ﷺ ، ودرسوا سيرتَه العطِرة ، ثم خدعهم الشيطانُ ، وغرتهم نفوسُهم الأمَّارةُ

بالسوء ، فآثروا الشبهات ، أو آزروا البِدَعَ والمنكرات ، أو زيَّنوا الباطل ، وأشادوا بأهله ، وركنوا إلى الدنيا ، وسكَنُوا إلى لذَّاتها ، وهـٰؤلاء وُجِـدوا في القـرون السابقة ، ومنهم في عصرنا الحاضر كثيرٌ ، فكم من رجل سعَىٰ بالفتنة ، وزيَّن الضلالَة ، وانسلخ من العلم ، ونبَذه وراءَ ظهرِه ، بعد أن قرأ القرآن ، ودرَس العلوم ، وعرَف الآياتِ ، ولم يعمل بما علم ، واتخذ العلمَ مطيَّةً للصِّيت بين الناس ، ووسليةً لأغراض دنيوية ، وشهواتٍ نفسية ، وفي الحديث : « العلمُ علمان : علمٌ في القلب ، فذٰلك العلمُ النافع ، وعلْمٌ على اللسان فذٰلك حُجَّةُ اللهِ تعالى على ابن آدم » .

ومن هـٰؤلاء الذين ظهر الحقُّ على ألسنتهم ، وعلى ما كتبوه بأقلامهم كثيرٌ من المستشرقين الذين بحثوا في الإسلام ، ودرسوا حضارتَه ، وفتَّشوا عن جواهره ، ودرسُوا سيرةَ النبيِّ محمدٍ ﷺ ، ثم أشادوا بالإسلام ، وبمبادئه ، وأعلنوا عن إعجابهم الشديدِ بحضارة الإسلامِ التي استمدت أصولَها وقواعدَها من كتاب اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فأخرجت الناسَ من الظلمات إلى النور ، وكأنهم كانوا موتىٰ ثم بُعِثوا من جديد ، وعن هـٰذا البعث الجديدِ تقول مستشرقةٌ ألمانيةٌ في كتابها : « شمسُ الله تسطعُ على الغرب » وفي الفصل الأولِ من الكتاب الخامسِ تحت عنوان « المعجزة التي حقَّقها العرب » تقول في ثنايا التفسير للقفْزة السريعةِ المدهشةِ في سُلَّم الحضارة التي قفزها أبناءُ الصحراء بعد الإسلام ، وللانتصاراتِ العلميةِ المتلاحقةِ التي جعلت من المسلمين سادةً للشعـوب المتحضرة في ذاك العصر . تقول : ثم جاء الإسلامُ فجمع هـٰذه القبائلَ العربيةَ المتنازعةَ المفكَّكَة ليجعلَ منها في سنوات قلائلَ شعبا عظيما ، آخت بينه العقيدةُ ، وربطت عناصرَه الـمحبةُ ، فأقبلوا جميعا على مناصرة الدينِ الجديد ،

وتناسَوْا خلافاتِهم ، وصاروا طُرًّا يدًا واحدة ، يحدو كلَّ فردٍ منهم أملٌ باسمٌ مشرقٌ في أن تُكتبَ له الشهادةُ في سبيل الله ، وبهٰذا الروح القويِّ الفتيِّ شقَّ العربُ طريقهم بعزيمةٍ قويةٍ تحت قيادةٍ حكيمةٍ وضَع أساسَها الرسولُ ﷺ بنفسه ، وظلَّت دائما مسؤولةً أمامَ الحكومةِ المركزيةِ مباشرةً ، فكان النصرُ للعرب – المسلمين – على أعدائهم المتفوقين عليهم في العَدد والعتاد . ثم تساءلت المستشرقةُ لتبيِّنَ أسبابَ هٰذا البعْث الجديد : أَوَلَيْس في انتصارات العربِ المسلمين السريعةِ المتلاحقةِ أكبرُ دليلٍ على أثر ذٰلك الروح الجديدِ الذي سرىٰ بينهم ؟ أَوليس في هٰذا الإيمانِ تفسيرٌ لذٰلك البعثِ الجديد ؟ .

ثم تحدَّثت المستشرقةُ عن سماحة المسلمين وعدلِهم وحبِّهم للمعرفة وإقبالهم على بناء حضارةٍ لم يشهد التاريخُ لها مثيلا ، وقد ذابت في ظلالها الرحيمةِ العِرقياتُ والأجناسُ والحدودُ الفاصلةُ ، وصار الناسُ أمةً واحدةً يسعَوْن لبناء الثقافةِ الراقيةِ بلغة القرآنِ الكريمِ اللغةِ العربيةِ ، ثم أشارت إلى أن هناك آلافَ الأدلةِ القاطعةِ على تسامح المسلمين وإنسانيتهم في معاملاتهم للشعوب بعد الفتوح ، ثم قالت : وكان لمسلكهم هٰذا أطيبُ الأثرِ مِمَّا أتاح للحضارة التي أقامها المسلمون أن تتغلغلَ بين تلك الشعوب بنجاحٍ لم تحظَ به الحضارةُ الإغريقيةُ ببريقها الزائف ، ولا الحضارةُ الرومانيةُ بعنفها في فَرْض إرادتها بالقوة .

هٰذا نموذجٌ واحدٌ من مئات النماذج لِمَا تكلم به مفكرون غربيون ، ومستشرقون معبِّرين عن إعجابهم بأثر العقيدةِ الإسلامية في بناء أعظم حضارةٍ عرفها الإنسان ، ومع إقرار معظمِهم بفضل الإسلام ، وأنه الدينُ الحق ، بَقِي على ضلاله ، ولله الحكمةُ البالغة ، وهو سبحانه القائل : ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ** ﴾[1] .

---

(١) الأعراف : ١٧٥ .

٦١ ـ ب ـ النموذج البلعامي .

ضَرَب اللهُ مَثَلًا في سورة الأعرافِ لمَن آتاه الله آياته فكان عالمًا بها ، قادرًا على بيانها والـجدلِ بها لٰكنَّه لم يُؤْتَ العملَ مع العلم ، بل كان عملُه مخالفًا لعِلْمه ، ضَرب له المَثَلَ بالكلب تقبيحًا لمسلكه ، وتنفيرا من وِجهَتِه واختيارِه الضلالَةَ على الهدىٰ .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾١٧٥ ، ١٧٦ .

معانى المفردات :

﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي اقرأ ، والتلاوةُ : القراءة .

﴿ **نبأَ** ﴾خبَر ، والنبأُ : هو الخبرُ الذي له شأنٌ .

﴿ **فَٱنسلَخَ مِنْهَا** ﴾ المقصودُ كُفْرُه بآيات اللهِ وَنَبْذُه لها وراءَ ظهرِهِ ، ويُقال لكل مَن فارق شيئًا بحيث لا تُحدِّثه نفسُه بالرجوع إليه : انسلخَ منه .

﴿ **فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ** ﴾ أي لحِقَ به وأدركَه ، والمقصودُ : استحوذَ عليه الشيطانُ ، وغلَبه على أمره ، فمهما أَمَرَه امتثَل وأطَاعه .

﴿ **فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ** ﴾ : أي من الراسخين في الغَواية بَعْـد أن كان مهتديًا ، ولذا يصيرُ من الـهالكين الحائرين البائرين .

﴿ **ولو شِئنا لرفَعْنَاهُ بِها** ﴾ أي لرفعناه من التدنُّس عن قاذورات الدنيا

بالآيات التي آتيناه إياها، أوْ لو شئنا لأَمتْناه قبل أن يَعصِيَ فرفعناه إلى الجنة ﴿ بِهَا ﴾ أي بالعمل بالآياتِ ﴿ وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي : مَال إلى زينة الدنيا وزهرتِها، وأقبل على لذاتها ونعيمِها، وغرَّته كما غرَّت غيره من غير أولي البصائرِ والنُّهىٰ، وأصلُ الإخلاد : اللزومُ، يقال : أخلَد فلانٌ بالمكان إذا أقام به ولزِمه، وقد عُبِّر بالأرض عن لَذَّاتِ الأرضِ لأن متاعَ الدنيا على وجْه الأرض .

﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ : أي ما زيَّن له الشيطانُ .

واللَّهْثُ واللُّهاثُ: التنفسُ الشديدُ مع إخراج اللسانِ، ويكونُ لغير الكلبِ من شدَّةِ التعبِ والإعياءِ، أو مِن العطش، أمَّا الكلبُ فيلهثُ في كل حالٍ سواءٌ أصابه ذلك أم لا ؟ .

﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ﴾ أي صفتُه التي هي مَثَلٌ في الخِسَّة والضَّعَةِ كصفة الكلبِ في أخسِّ أحوالِه وأذلِّها وهي حالُ دوامِ اللهثِ واتصالِه سواءٌ حُمِل عليه – أيْ شُدَّ عليه وهِيجَ فطُرِد – أو تُرك غيرَ مُتعرَّضٍ له بالحَمْل عليه، ومعنى ﴿ تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ أي تَشُدّ عليه، وتطرُده، فالكلبُ إذا حَمَلْتَ عليه وطرَدته نَبَح، ولهَثَ، وَولَّى هاربًا، وإذا تركتَه شَدَّ عليك ونَبَح، فيَتْعِبُ نفسَه مقبلًا عليك، ومُدبرًا عنك .

وقد شُبِّه المنسلِخُ من آيات اللهِ بالكلب من بين سائرِ السباع لأن الكلبَ مَيِّتُ الفؤادِ، وإنما لُهاثُه لموتِ فؤادِه، ومن خِصال الكلب قبولُه التعليمَ لخدمة أغراضِ للإنسان، فإذا أُدِّب وعُلِّم الاصطيادَ تأدَّبَ وقَبِل التعليم، وقد جاء في سورة المائدة ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾[1] أي وصَيْدُ ما علَّمتم من

---

(١) الآية : ٤ .

الجوارح ، وهٰذا ينتظمُ الكلبَ وسائرَ جوارحِ الطير ، وإنْ كان بعضُهم يَرىٰ أنها الكلابُ خاصة ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ أي معلِّمين لها الصيدَ ومُضَرِّينَها به .

هذا إلى جانب ضرْبِ المَثلِ بالكلب في الخِسَّة والذِّلةِ واللؤمِ ، ومن أمثالهم ، أصْبرُ على الهوان من كلْب ، وقالوا : أَلْأَمُ من كلْب ، ومنها : الكلبُ أنجسُ ما يكون إذا اغْتَسَل .

وفي المثَل : جَنَتْ على نفْسِها براقِشُ ، وبراقشُ في المَثَل اسمُ كلبةٍ ضُرِب بها المَثلُ في الشؤْم على قومها .

توضيحُ المثَل :

شَبَّه اللهُ سبحانه وتعالى من آتاه كتابَه ، وعلَّمه العلمَ ، فترك العملَ به ، واتَّبع هواه ، وآثَر سُخْطَ اللهِ على رِضاه ، ودنياه على آخرته ، وآثَر المخلوقَ على الخالق شُبِّه هٰذا الإنسانُ بالكلْب الذي هو من أَخْبثِ الحيواناتِ ، وأوضعِها قَدْرًا ، وأخسِّها نفسًا ، وَهِمَّتُه لا تتعدَّىٰ بطنَه ، كما أَنَّ الكلبَ من أشدِّ الحيواناتِ شَرَهًا وحِرْصًا .

ومن خصال الكلب : أنه لا يزال يشمُّ دُبرَهُ دون سائر أجزائِه ، وإذا رميتَ له بحَجَرٍ رجَع إليه ليعَضَّه من فَرْط نَهَمِه ، وهو من أمهنِ الحيوانات ، وأَحْمَلِها للذلِّ ، وأرضاها بالدنايا والجيَفِ القذِرة ، ومن شدة حِرْصِ الكلب وبُخلِه وشرَهِه أنه لا يحِبُّ أن يشاركَه الكلابُ في جِيفَتِه ولو كانت تَكفِي مائةَ كلب .

وفي تشبيه الإنسانِ الذي آثر الدنيا ، ورغِبَ فيها ، ورضِيَ بالفانية عن الباقية ونَعِيمها الدائمِ مع وفُور علْمِه ، فى تشبيهه بالكلبِ في لَهَفِه سِرٌّ بديعٌ ، يفسِّره ابنُ القيم فيقول : وهو أنَّ هٰذا الذي حالتُه ما ذكَره اللهُ من انسلاخه من آياته ، واتباعهِ هواه ، إنما كان لشدة لهَفِة على الدنيا لانقطاع قلبِه عن الله تعالى ، وعن

الدار الآخرة ، فهو شديدُ اللهَفِ على الدنيا ، ولهفُ هـٰذا المنسلخِ من آيات اللهِ ، نظيرُ لهَفِ الكلْبِ الدائمِ في حال إزعاجِه وتركِه .

واللَّهَفُ واللَّهَثُ شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى ، قال ابنُ جريج : الكلبُ منقطِعُ الفؤاد ، ولا فؤادَ له ، إن تَحمِل عليه يَلْهَثْ أو تتركْه يلهثْ ، فهو مَثَلُ الذي يتركُ الهُدىٰ ولا فؤادَ له ، إنما فؤادُه ينقطِع .

وفَسَّر ذٰلك ابنُ القيِّم فقال : إنما مرادُ ابنِ جُريج بانقطاع فؤادِه أنه ليس له فؤادٌ يحمِلُه علىٰ الصبر ، وَتَرْكِ اللهَثِ ، وهـٰكذا الذي انسلخ من آيات اللهِ لم يبق معه فؤادٌ يحمِلُه على الصبر عن الدنيا ، وتركِ اللَّهَفِ عليها ، فهـٰذا يلهَثُ على الدنيا من قِلَّة صبرِه عليها ، والكلبُ يلهثُ من قلة صبرِه عن الماء ، فالكلبُ من أقلِّ الحيواناتِ صبرًا عن الماء ، وإذا عَطِش أكَل الثَّرىٰ من العطش .

إن الكلبَ لشدة حرصِه يلهثُ قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا ، فحرارةُ الحِرص في كبِده وفي نفسِه تسبِّبُ له دوامَ اللهَث ، وكذٰلك المنسلخُ من آيات الله ، الحريصُ على ما في الدنيا من متاع وَصِيتٍ وزينةٍ تَجِدُه في لَهفٍ دائم ، سواءٌ وعَظْته أم لم تعِظْه ؟ لانصراف قلبِه عن أسباب الطمأنينةِ والسكينةِ وهي الإيمانُ الصحيحُ والقناعةُ والرضا بقضاء اللهِ وقدَرِه ، وتوجيهُ العزمِ لعملِ الآخرة ، وإعمالُ الفكرِ فيما ينفعُ في الحياة الأبديةِ ، وإخدامُ الجوارح في طاعةِ مولاها عز وجل .

لقد وُصف مَن قرأ الكتابَ ولا يعملُ بما فيه بأقبح وصْف ، سواءٌ كان من الأمم السابقةِ كاليهود وقد جاءهم موسى عليه السلامُ بالتوراة ، والنصارى وقد جاءهم عيسى عليه السلامُ بالإنجيل ، أو كان من أمة الإسلام بعد ظهورِ خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين محمدٍ ﷺ ، وقد أُمِرَت جميعُ الأممِ بالدخول في دينه ، والانضواءِ تحت لوائِه ، وجاء نعتُه ونعتُ الزمانِ الذي يُبعَث فيه في جميع الكتبِ السابقة .

قال بعضُ أهلِ العلم : في تمثيل مَنْ أُوتِيَ كتابَ اللهِ فلم يعملْ به بالكلب إنْ تحمِلْ عليه يلهثْ أو تتركْه يلهثْ ، قال : هـٰذا شَرُّ تمثيل ، لأنَّه مَثَّلَه في أنه قد غَلَب عليه هواه ، حتى صار لا يملكُ لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا بكلبٍ لاهثٍ أبدًا ، حُمِل عليه أو لم يُحمَلْ عليه ، فهو لا يملك لنفسه تَرْكَ اللَّهثان .

وقال القتيبى : كلُّ شيء يلهث – أي يتنفسُ بشدّة مع إخراج اللسان – فإنما يلهثُ من تعَبٍ وإعياءٍ أو مِن عطَش إلا الكلب ، فإنه يلهثُ في حال التعبِ والكَلالِ ، وفي حال الراحةِ ، وحالِ المرضِ ، وحالِ الصحة ، وحالِ الرِّيِّ ، وحالِ العطَش ، فضَرَبَه اللهُ مثَلًا لِمَن كذَّب بآياته ، فهو إنْ وعظتَه ضَلَّ ، وإن تركتَه ضَلَّ ، فهو كالكلب إن تركتَه لَهَثَ ، وإنْ طردتَه لهَث ، كقوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ** ﴾[1] .

وكما قال سبحانه من سورة البقرة : ﴿ **سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[2] .

أمَّا هـٰذا الذي أُوتي الآياتِ فانسلخَ منها وضلَّ بعد أن عَرَفَ الحقَّ ولم يؤمن به ولم يتبعْه فقد قالوا : إنه رجلٌ من المتقدمين في زمان بَني إسرائيلَ ، ورُوي أنَّ اسمَه « بلعام » وكان يعلم اسمَ اللهِ الأعظمَ ، وجاء أنه كان مُجَابَ الدعوةِ ، ولكنه أُغْرِي بمتاع الدنيا وشهواتِها فترك دينَ موسى عليه السلام ، وانقلب شيطانا مريدا يدعو إلى الإلحاد – والعياذُ بالله من عِلْم لا ينفع – إذ صار مَثَلُ هـٰذا الرجل كمثلِ الكلبِ في دناءتِه ، وخستِه ، وانقطاعِ فؤادِه ، وَظَفِرَ به الشيطانُ ظَفَرَ

---

(١) الآية : ١٩٣ .
(٢) الآية : ٦ .

الأسدِ بالفريسة ، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم ، الذين يَعرفون الحقَّ ويعملون بخلافه كعلماء السوءِ ، ولذا لم يشرِّفْه عِلمُه ، ولم يُرْفَعْ قَدْرُه بسببه ، لأن الرفعةَ عند الله ليست بمجرد العِلم ، وإنَّما هي باتباع الحقِّ ، وإيثارِه ، وقصْدِ مرضاة الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ** ﴾ فقد اختار الخِسَّةَ على الشَّرَف ، واختار الدناءةَ والقذارةَ على الطهارة والعفَّةِ ، ورَغب فيما عند الناس ، وأَعْرضَ عن الهُدى والخير وطلبِ مرضاةِ الرب .

والمعنى : لو شِئنا فضَّلناه ، وشرَّفناه ، ورفعنا قدرَه ومنزلتَه بالآيات التي آتيناه ، ولٰكنه ركَن إلى متاع الأرض ، ورضِي بالدنيا ، وترَك معالِيَ الأمور ، ورغِبَ في مسافلها ، وكان هواه مع أهلِ الضلالِ والإلحاد ؛ وإن قصةَ بلعمَ أو بلعامَ بنِ باعوراءَ وردَت في كُتب التفسير ، كما جاءت في الإنجيل ، وبعضُهم يراها من الإسرائيليات ، وإن كان الحال والحاصل أن النموذجَ البلعامىَّ كثيرٌ فى زمن جميع المرسلين ، وفي كل زمان ، فتَعوَّذ ياذا اللبِّ من عِلم لا ينفعُ صاحبَه ، ومن ضَلال بعد الهداية .

* * *

٦٢ - ج - فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .

بلعامُ بنُ باعوراءَ صار علَمًا على ضلال الفِكْر ، وعَمىٰ البَصيرة ، وسوءِ الاختيار ، وصار يُضْرَبُ به المَثَلُ في الحالات المشابهة لحالته ، يُضْرَب به المَثَل لمَن يختارُ الأدنىٰ على الأعلىٰ ، والكفرَ على الإيمان ، وَلِمَنْ يَصِلُ إليه عِلْمٌ كثيرٌ من عِلْمِ الشريعةِ ولكنه لَمْ ينتفِع بعِلمه ، ولمن أُوتي القرآنَ فلم يعملْ به ، كما يُضْرَبُ به المَثَلُ لِمَن أَخَذ الرِّشْوةَ لإبطال حقٍّ أو تغييرِه ، ولجميعِ أهلِ الكتابِ من اليهود والنصارىٰ الذين لم يَدْخلوا في دينِ الإسلامِ بعد ظهور النبيِّ محمدٍ ﷺ ، وقد انتظروا خروجَه ، فلما بُعِث كفروا به .

إنَّ بلعامَ بنَ باعوراءَ صار مثَلا على هـٰذا وعلى اختيار الشقاوَةِ على السعادة ، وعلى اختيار الطريقِ الموصلةِ إلى جهنَّمَ ، وقد عَرَفَ الأسبابَ المنجيةَ منها والتي تهيِّىء العبدَ لأن يكونَ أهلًا لرحمة الله ، ولكنه انسلخَ من هـٰذه الأسبابِ لإيثاره العاجلةَ وَمُتَعَها ، على الآجلة ونعيمِها .

إن بلعامَ بنَ باعوراء ، تناقل المفسِّرون قصتَه عن التوراة بأنه كان من علماء بني إسرائيلَ في زمنِ موسىٰ عليه السلامُ ، وكان مجابَ الدعوة ، وبعثه موسى إلى مَلِكِ مَدْيَنَ ليدعُوَهُ إلى الإيمان ، فأغْدَق عليه المِلكُ وأعطاه وأَقْطَعَهُ فاتَّبع دينَه ، وتركَ دينَ موسى ، وأخْلَد إلى مُتَعِ الدنيا ، وسَكَن إلى عالمِ الطينِ ، وانْسَلَخَ من دينِ الله .

ويُشْبِهُ بلعامَ في عصر النبيِّ محمدٍ ﷺ طائفةٌ من العرب ومن أهل الكتابِ عرفُوا الحقَّ ، وغلبتهم شهواتُهم ، وفتنتهم الشبهاتُ ، ومنهم : أميةُ بنُ أبي

الصَّلتِ الذي قال عنه عبدُ الله بنُ عمرو إنه نَزل فيه قولُ اللهِ عز وجل : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا .. ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، لأنَّ أميةَ بنَ أبي الصلت بلغتْه معجزاتُ النبي محمدٍ ﷺ ، وآياتُه وبراهينهُ كما ظهرت لكل ذي بصيرة ، واجتمع بالنبي ﷺ ، ورَضِيَ بدينه ، ولٰكنَّه انْقَلب على عَقِبَيْه ، ولم يتَّبعه ، وصار إلى موالاة المشركين ، وَرَثَىٰ الكفارَ من أهل بدْرٍ قَبَّحَه اللهُ ، وفيه قال رسولُ الله ﷺ : « آمنَ شِعرُه ولم يُؤْمِن قلبُه » ، فإنَّ له أشعارًا ربانيةً ، وحِكَمًا وفصاحةً ، ولٰكنْ لم يشرحْ اللهُ صدْرَه للإسلام .

ومن هٰؤلاء أبو عامر بنُ صيفيٍّ المعروف بالراهب ، لأنه كان يلبَسُ مُسُوحَ الرهبان في الجاهلية ، وعرَف التوحيد ، وتكلَّم مع النبي محمدٍ ﷺ في المدينة ، ولكنه كفَر ، وخرَج إلى الشام ليستعِينَ بالروم على المسلمين ، وكتَب إلى المنافقين في المدينة يقول : استعدُّوا فإني آتيكم من عند قيصرَ بجندٍ لنُخْرِجَ محمدًا من المدينة ، وهو وأعوانهُ أصحاب مسجدِ الضِّرار ، ولكنه مات في الشام ، وعَلِم النبيُّ ﷺ عن طريق الوحْي بحقيقة الأغراضِ التي بُني من أجْلها مسجدُ الضِّرار ، فهدَمَهُ وأحْرَقَهُ ، ولهٰذا قال سعيدُ بنُ المسيّب : إنَّ آيةَ الأعرافِ نزلتْ في أبي عامر ؛ والحقُّ أنَّ الآيةَ عامةٌ في كل مَن عَرَفَ الحقَّ ، وأعرضَ عنه ، وأُوتي القرآن ولم يعملْ به ، وذٰلك مِثْلُ عِلْمِ بلْعامَ وأشْباهِه .

وهٰذه الآيةُ الكريمةُ دَلَّت على أن العاقلَ الحكيمَ لا يغترُّ بعلْمِه ، ولا بعمَله ، إذْ لا يَدْرِي أحدٌ بما يُخْتَمُ له ، ولكنَّه يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ التوفيقَ والمماتَ على التحقيق ، والثباتَ على الصراطِ المستقيمِ حتى يموتَ على اليقين الصادق ،

---

(١) الأعراف : ١٧٦ .

والإيمانِ الصحيحِ ، والعملِ الصالح .

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أي هُوَ مَثَلُ جميعِ الكفار ، أي ذٰلك المَثَلُ البالغُ الحدِّ في الغرابة مَثَلُ القوم الذين جحَدوا بآياتنا واستكبروا عنها ، وكذَّبوا بها لظنهم أن الإيمانَ يسلُبهم العزةَ ، ويحطُّ من أقدارهم ، ويحولُ بينهم وبين ما يتمتعُون به من اللذات ، فلهٰذا الظنِّ الباطلِ لم ينظروا في آيات اللهِ نظَر تفكُّرٍ واستقلالٍ وتبصُّرٍ دونَ تقليدٍ لزعيم ، أو سيرٍ وراءَ حِزب ، أو جمودٍ على ما كان عليه الآباء ، بل نظَروا إلى الآيات من الجِهة التي تُناسب نفوسَهم المريضةَ ، فكان مَثَلُهم كمثَل الذي أُوتي الآياتِ فانسلَخ منها ، وذٰلك لا يَعيبُ الآياتِ ، وإنما يَعيبُ أهلَ الأهواءِ الذين حَرَمهم سوءُ اختيارِهم الانتفاعَ بها ، واختاروا أن يكونَ الواحدُ منهم كالكلب إنْ تشُدَّ عليه يلْهَثْ وَإنْ تتركْه يلهثْ ، فهو فارغُ الفؤاد ، لا صبْر له عن الدنيا .

وفي المثَل الحكيم :

قد تُنكِرُ العينُ ضَوْءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفمُ طعْمَ الماءِ من سَقَمِ

وسبحان اللهِ : كم من إنسانٍ استعمل حواسَّه في الضُّر ، وعَقْلَه ، وذكاءَهُ في الشرِّ ؟ وكم من إنسان حُرِم الانتفاع بمواهبه الفطريةِ بعدم استعمالِه إياها فيما يرفعُه درجاتٍ في العِلم والعمل ! وما ظلَمهم اللهُ ، ولٰكنْ كانوا أنفسَهم يَظلمون .

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي اقصص أيها الرسولُ قصَصَ ذٰلك الرجلِ المشابهةِ حالُه لحال هٰؤلاء المكذِّبين بما جِئْتَ به من الآيات البينات في مبدأ أمرِه وغايتِه رجاءَ أن يتفكَّروا فيه فيحْمِلَهم سوءُ حالِهم ، وقُبْحُ مثَلِهم ، على إطالة التفكُّر والتأمُّل ، فإذا هم تأمَّلوا في ذٰلك ، تفكَّروا في المَخْرج منه والمَخْلَصِ مِمَّا هم فيه ، ونظروا في الأمثال والآياتِ ، وما فيها من البيناتِ والدلائِل

بعين البصيرةِ والعقلِ السليمِ ، لا بعين الهَوَىٰ والعَداوة ، ولا طريقَ لـهداية الشاردين عن الحق غير هـٰذه .

إن في قصة الرجلِ الذي أُوتي العلْمَ والآياتِ فاستَعْمل هـٰذه النعمةَ في غير طاعةِ ربِّه ، وغلَبه هواه ، وانسلخ عن دينه لَعِبرًا كثيرةً لذوي التدبر والتفكر ، خصوصا لأهل القرآنِ ، وطلابِ العلمِ المُقْبلين على سنة النبيِّ محمدٍ ﷺ ، وغيرِهم مِمَّن يُجيلون الفكرَ في الكون وآياتِه ، وفي النفس البشرية ، ولأهل الكتابين اليهودِ والنصارى ، ليحذَروا أن يكونوا مِثْلَ هـٰذا المنسلخِ من آيات اللهِ حالًا ومآلًا ، وهـٰذا يبعث أهلَ الإيمانِ على الثبات والاجتهادِ في طاعة الرحمـٰنِ ، وعدمِ الاغترارِ بالعلم أو بالعمل ، وإلى السعْي إلى تكميل النفسِ بالفضائلِ والتواضعِ والإخلاصِ ، كما يبعَثُ أهلَ الكتابين على الإيمان بالنبى محمدٍ ﷺ ، وإلى إخلاصِ التوحيد ، فهم أَولىٰ الناسِ باتباعه ، ومناصرةِ دينِه ، ومؤازرةِ شريعتِه ، وقد بَشَّر به كلُّ الأنبياءِ ومنهم موسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاةُ والسلام .

سوءُ حال مَن لا ينتفع بالأمثال :

إن الذي لا ينتفعُ بالأمثال ، ولا يَعْتَبِرُ بقصَص الماضين ، ولا يُجيلُ الفِكر في الآيات قَبُحَ عملُه ، وساء مسلكُه ، إذا لم ينزجر عن الإلحاد ، وعاش في الشكوك والشبهاتِ ، ولنتدبر قولَه تعالى : ﴿ **سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ** ﴾[1] ، أي ساء وقبُح مثَلًا مَثَلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله ، أي ساء مَثَلُهم أَنْ شُبِّهوا بالكلاب التي لا هِمَّة لـها إلا في تحصيل شهواتِ النفسِ والبدنِ ، فَمَن خَرج عن حَيِّزِ العِلم والهُدى ، وأقبل على شهوة نفسِه ، واتَّبع هَواه صَار شَبِيهًا بالكلب ، وبِئْس المَثَلُ مَثَلُه .

إنَّ هـٰؤلاء الذين قَبُحَت صفاتُهم فى الصفات ، وساء مَثَلُهم في الأمثال

---

(١) الأعراف : ١٧٧ .

لإلحادهم ، وتكذيبهم بآيات ربِّهم ، أنفُسَهم كانوا يَظلِمون ، أي ما ظلَمهم اللهُ ولٰكنْ هم ظلَموا أنفسَهم ، بإعراضهم عن اتباع الهُدى ، وعن طاعة المولَىٰ ، واختيارِهم الركونَ إلى دار البِلَىٰ ، والإقبالَ على تحصيل اللذاتِ ، وموافقةِ الهوى .

أما إعرابُ : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ .. ﴾ فهو : ساءَ : فِعلٌ ماضٍ لإنشاءِ الذمِّ كبِئْسَ وهو بمعنى قَبُح ، مبنيٌّ على الفتْح ، وفاعلُه ضميرٌ مستترٌ فيه جوازًا تقديرُه هو ، يعودُ إلى « مَثَلا » بَعْده ، والجمْلةُ من الفِعل والفاعِل في مَحلِّ رفْع خبر مقَدَّم ، و « مثَلًا » تمييزٌ منصوبٌ مفسِّرٌ للضمير المستتر في سَاء ، « والقومُ » مبتدأٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ ، والتقديرُ « ساءَ مثَلًا مَثَلُ القَوْم » فحُذِفَ المضافُ وهو « مثَلُ » وأُقيم المضافُ إليه وهو « القوم » مُقَامَهُ ، والقومُ الذين خُصُّوا بالذم هم الموصوفون بأنهم كذَّبوا بآياتِ اللهِ ، قبَّحهم الله ، وقبَّح أعمالَهم : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا .. ﴾ وقد جَمَعُوا بين قُبح التكذيبِ بآيات الله ، وظُلمِهم أنفسَهم خاصة : ﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ أي بهٰذا التكذيبِ وعدمِ الإيمان ظلَموا أنفسَهم ، وإنَّ في تقديم المفعولِ به وهو « أنفسَهم » ما يفيد القصْرَ ، أي « وما ظلموا إلا أنفسَهم » .

عبرة وعظة :

إن هٰذا المثَلَ يُنير الطريقَ لذوي البصائر حتى لا يتهالكَ العاقلُ في الدنيا ، في مالها وجاهِها ، والركونِ إلى لذاتها وشهواتِها ممَّا يتأتَّى من متابعة النفسِ الأمارةِ بالسُّوءِ ، وإرخاءِ زمامِها في مَرَامها وأهوائِها ، ونسيانِ الآخرةِ وأهوالِها وشدائِدها ، كما يدل هٰذا المثَلُ على أنَّ قطرةً من الهَوى الجامِح والشبهاتِ المضلةِ تكدِّر بحرًا من العِلم ، مِمَّا يبعثُ أهلَ العِلْمِ من ذوي الفِطنةِ

إلى ملازمةِ الخوفِ من اللهِ ، والتحرزِ مِمَّا يُغْضِبُه سبحانه وتعالىٰ ، واللجوءِ إليه دوما بالدعاء ، والتضرعِ للوقاية من الفتنة ، والهوىٰ ، والرياءِ ، وشوائبِ الشبهات ، فالهدايةُ منه وحده سبحانه ، والتثبيتُ على الطريق المستقيمِ منه وحده سبحانه وتعالى .

وبعد أَنْ أَمَرَ اللهُ سبحانه وتعالىٰ نبيَّه بأن يقصَّ قَصَصَ المنسلخِ عن آيات اللهِ على أمثاله من الضالِّين وأربابِ الشبهاتِ ليتفكروا فيه ، وفي المَثَلِ الذي ضُرِب ، ويتركوا ما هم عليه ، ويعودوا إلى سكينة الحقِّ والإيمانِ عَقَّبَ ذٰلك ببيان أنَّ الذي هداه اللهُ فإنه لامُضِلَّ له ، ومَن أضلَّه اللهُ فقد خاب وخسِر ، فقال سبحانه : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] .

نعم ... إنَّه ما شاء اللهُ كان ، وما لم يشأْ لم يكن ، وكما جاء في حديث ابن مسعود : « مَن يهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادِيَ لَه » .

عند أحمدَ وأصحابِ السنن .

وقد علَّمنا النبيُّ ﷺ أن نتعوذَ بالله من شرور النفسِ ، وسيِّئِ العمل : ففي هٰذا الحديث بعد الحمد والثناءِ على الله والاستعانةِ به قال : « نعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا » .

فطوبى لمن وفَّقَهُ اللهُ لاستخدام عقلِه وحواسِّه فيما خُلِقَا له بمقتضى الفِطرة ، مسترشدًا بهداية الدينِ الحق ، شاكرًا المنعمَ ، مخلصًا الطاعةَ له ، مبتعدًا عن أسباب الغَواية ، مستعينا بربِّه ليوفقَه إلى الثبات على دينه حتى يلقاه .

ثم فَصَّل سبحانه ما أُجمل في هٰذه الآية مبينًا سببَ خسران الضالِّين ومصيرَهم .

أعاذنا الله من فتنة المحيا والممات .

---

(١) الأعراف : ١٧٨ .

٦٣- د- الملحدون والأنعام أيهما أضل طريقا.

كلمةُ الفِقْه معناها الفَهْمُ ، يقال : فَقِهَ الرجلُ - بكسر القاف - يفقَهُ - بفتحها - فِقْهًا - بكسر أوله - : إذا فَهِم .

ويقال : فَقَه - بفتح القاف - إذا سَبَق غيرَه إلى الفهم ، وفَقُه - بالضم - إذا صار الفَهمُ له سجيةً .

وبهٰذا المعنى اللغويِّ نَرى أن الناسَ يتفاوتون في الفَهم ، ولكلٍّ منزلتُه ، وحَظُّه من الخير في مجال البحثِ عن الحق ، والإفادةِ من التفكُّر في دلائله ، وتأمُّلِ براهينه ، وفي مجال الفهْم في الدين ، ومعرفةِ الأحكامِ عن أدلتها والوقوفِ على أسرارها ، لا مجردِ حفظِها عن ظهر قلبٍ كالببغاء ، وإنَّ التفاوتَ في الفهْم واقعٌ من طريق العطَاء من الله وحده ، فهو سبحانه مقسِّمُ الحظوظِ بَيْن عبادِه ، وهٰذا التفاوتُ موجودٌ في كل عصْرٍ حتى بين خِيارِ الناسِ مِمَّن يأخذُون بالأسباب ، ويطلبون العِلْم ، ويسعَوْنَ إلى الفهم والمعرفةِ ، وكم من عالمٍ ينظرُ في الحديث فلا يَفْهَمُ منه إلا الظاهرَ الجلىَّ ، وينظرُ فيه آخرُ فيستنبطُ منه أسرارًا كثيرةً وأحكامًا نافعة ، وذٰلك فضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يشاء .

وَمَن رزقَهُ اللهُ الفِقْهَ في الدين ، والاعتبارَ بالآيات فقد رزقَه خيرًا عظيمًا ، إذْ تكونُ عبادتُه على بصيرة وإخلاص ، ويزدادُ إيمانُه بكثرة الأدلةِ ، والتفكرِ في الآيات ، وعُمْقِ النظرةِ في البراهين ، فيزدادُ عقلُه نورا ، ويتفتحُ قلبُه على الهُدَىٰ والخير ، ويصيرُ مهتديًا في قوله وعملِه ومسلكِه بنور قلبِه الذي صار وِعاءً

للحكمة بفضل اللهِ ورحمتِه ، وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه عبدُ الرحمن بنُ عوف عن معاويةَ بن أبي سفيان وقد سَمِعه من رسول اللهِ ﷺ : « مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين »[1] أي خيرًا عظيما ، أو خيـرًا كثيرا ، لأن النكرةَ في سياق الشرطِ تعمُّ ، أو يكونُ التنكيرُ للتعظيم ، فَمَن وُهِبَ القدرةَ على فهم أسرارِ الدينِ وحِكَمِه ، وعظاتِه ، وما تضمنته الشريعةُ السمحةُ من خيرٍ عظيم ، ثم انتفع بهٰذه القدرةِ فعَلِم ، وفَهِمَ ، وعَمِل بما عَلِمَ فقد حظي بالنصيب الأوفرِ من الـخير ، ورُزِقَ نعمةً عظيمةً تَثْبُتُ وتزدادُ بدوام شُكر المنعمِ الوهَّاب ، سبحانه وتعالى .

وقد جاء في سورة الجمعةِ المثَلُ لذمِّ الذين يَحْمِلُون العلم ، وَيَتْعبون في تحصيلة ، وهم لا يعملون به ، فشُبِّهوا لذٰلك بالـحمار الذى يحمل الكتبَ الكبار ، ويتعبُ في حَمْلها ، وهو في جهلٍ مُطْبِق ، وعَمَىً تامٍّ عن منافعها ، قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّورىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾[2] ، ذٰلك لأن القلوبَ عليها غلافٌ يحجُب عنها نور الـحق : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ** ﴾[3] ، وهٰذا من الخِذلان والعياذُ بالله ، أن يُحْجَبَ القلبُ عن نور الـهدايةِ الإلٰـهية ، فيعيش صاحبُه في ظلمات الشكِّ والإلحاد ، لا يفقهُ الحقَّ ، ولا يَعِي سببَ وجودِه في الحياة الدنيا ، وهٰؤلاء لـهم قلوبٌ ولٰـكِنْ لا يفقهون بها ، ولهم عيونٌ ولٰـكنَّها لا تنْتفِعُ بالنظر في الآيات ، ولا تستدلُّ بالمصنوعات على وجود الصانع ووحدانيته ، وتفرُّدِه بالعظمة والكبرياء ، ولـهم آذانٌ لٰـكنَّها لا تسمع الآياتِ والمواعظَ سماعَ تأمُّلٍ وتفكُّر ، هٰؤلاء هم

---

(١) أخرجه البخاري في باب العلم ، ومسلم في باب الزكاة .

(٢) الآية : ٥ .

(٣) النور : ٤٠ .

حَطَبُ جَهنَّمَ، وفيهم يقول الحقُّ تبارك وتعالىٰ من سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[1] .

وهٰذه الآيةُ الكريمةُ جاءت في السِّياق بعْد المثَل الذي ضَرَبَه اللهُ عزَّ وجلَّ لِمَن عَلِم الحقَّ وعَدَلَ عنه ، وآتاه اللهُ العِلْمَ فانسلخَ منه ، ولهَثَ وراءَ متاعِ الدنيا ، باحثًا عن الصِّيت فيها ، والمنزلةِ بين أمثالِه ولا همةَ له إلا في تحصيلِ أَكْلَةٍ أو شهوةٍ كالكلب في الدناءة والخِسَّة ، إنْ تَحمِلْ عليه يلهثْ أو تتركْه يلهثْ ، لأن طالبَ الدنيا في همٍّ دائم ، وتعبٍ ملازم ، وإنَّ كلَّ مَن خرج عن حَيِّز العلمِ ، والهُدى وسَكَن إلى الدنيا ، وأقبل على شهوةِ نفسِه ، واتَّبَعَ هواه صار شبيهًا بالكلب ، وبِئس المثَلُ مَثَلُه .

ثم بَيَّنت الآياتُ أنَّ السعيدَ حقًّا هو مَن يُوفِّقُه اللهُ للصالحات ، ويسدِّدُ خطاه على طريق الخيرِ والهُدى ، ويجنبُه الزلَلَ ، ومَن هداه اللهُ أعانه ، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُضِلَّهُ ، أمَّا مَن يُضِلُّهم سبحانه فهؤلاء هم الأشقياءُ التُّعَساءُ الذين خابوا وخَسِروا : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[2] .

ثُم فصَّل السياقُ مبيِّنًا مآلَ الضالين ، وأسبابَهُ ، مُقرِّرًا ، مضمونَ ما قبله فأخبر سبحانه وتعالىٰ أنه خَلَقَ للنار أهْلًا بعَدْلِه فقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾[3] .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .
(٢) الأعراف : ١٧٨ .
(٣) الأعراف : ١٧٩ .

والذرْءُ معناه الخلْقُ ، يقال : ذرأَ اللهُ الخلْقَ أي أوجد أشخاصَهم ، والجنُّ : الأحياءُ العاقلةُ المكلَّفةُ الخفية غيرُ المُدركَةِ بالحواسِّ ، ولقد ذرأنا : أي واللهِ تعالىٰ لقد خلَقْنا وجعلْنا وهيَّأْنا لجهنَّم كثيرًا من الجن والإنسِ بعمَل أهلِ جهنَّمَ يعملون ، فإنَّ اللهَ تعالى لمَّا أراد أن يخلُقَ الخلْقَ عَلِم ما هُم عاملون قَبل كونِهم ، فكتب ذٰلك عنده في كتابٍ قبل أن يَخْلُقَ السمٰواتِ والأرضَ ، فهو سبحانه يعلمُ ما كان وما سيكونُ ، ثم وَصَفَت الآيةُ الكريمةُ هٰؤلاء الذين يختارون الكفْرَ ويُصِرُّون عليه في عِلْمِه سبحانه وتعالىٰ ، فقال : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾[1] يعني ليس ينتفعون بشيءٍ من هٰذه الجوارحِ التي جعلها اللهُ وسائلَ للإدراك ، فالعينُ تُبْصِر المدركات ، وتجولُ فيما بين السماءِ والأرضِ حيث الآياتُ البيناتُ الشاهدةُ بكمال قدرةِ الخالقِ وتفرُّدِه بالإلٰهية ، وكمالِ حكمتِه وسلطانِه ، والأذنُ تسمعُ المواعظَ وآياتِ التنزيلِ ليصِل كلُّ ذٰلك إلى القلب فَيعِيَ ويتدبرَ ويعتبرَ وينزجرَ ويُضِيءَ بأنوار الهدايةِ إلى الحقِّ إذا صَرَفَ العبدُ اختيارَه نحو الحقِّ ، ورَغِب فيه ، وأنْعَم الفكرَ في دلائله ، وأطال التدبرَ في براهينه ، أمَّا أهلُ الضلال الذين يختارون الباطلَ ويُصِرون عليه فإنهم بمنزلة مَن لا يفقَه ولا يفهمُ لأنهم لا ينتفعون بقلوبهم ، ولا يعقِلون ثوابًا ، ولا يخافون عقابًا ، وإنَّ لهم أبصارًا وأسماعًا ولكنهم لا يوجِّهونها إلى التأمُّل والتفكُّر فيما يَرَوْنَ من آيات اللهِ في خلْقه ، وفيما يسمعُون من آياته المنزَّلةِ على رسله ، ومن أخبار الماضين الدالةِ على سُنَّته سبحانه في خَلْقه ، ولو هُدوا إلى ما فيه خيرُهم وصلاحُهم لَوُفِّقُوا إلى الاهتداء بالأبصار والأسماعِ إلى ما فيه سعادتُهم في دنياهم وآخرتِهم .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

ولنتأَمَّلْ ما جاء في عادٍ قومِ هُود وقد يُسِّرت لهم الأسبابُ الماديةُ ، ولكنهم كفَروا النعمةَ ، وجحَدوا فضلَ المنعم ، فذمَّهم القرآنُ الكريمُ ، ولفَت إلى قُبح ما كانوا عليه : ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ..** ﴾[1] .

وعن المعرضين عن الهُدى يقول جلَّ شأنُه : ﴿ **إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾[2] فهـٰؤلاء شَرُّ الخلْقِ والخليقةِ ، لأنهم صُمٌّ عن سماع الحقِّ ، بُكْمٌ عن فَهْمِه ، فهم لا يَعقلون ما يجب عليهم أن يفهموه ويعملُوا به ، لـهـٰذا كانوا شَرَّ البريَّة ، لأنَّ كلَّ دابةٍ مِمَّا سِواهم مطيعةٌ لله عز وجل فيما خلقها له ، وسخَّرها من أجله ، وهـٰؤلاء خُلِقوا لعبادة ربِّهم فكفَروا وجحَدوا ، ولهـٰذا شبَّههم سبحانه بالأنعام كما في آية الأعرافِ : ﴿ **أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾ ، أي هـٰؤلاء الذين لا يسمعون الحقَّ ، ولا يعُونه ، ولا يُبصرون الهُدى كالأنعام السارحةِ التي لا تنتفعُ بهـٰذه الحواسِّ مِنها إلا في الذي يُعيِّشُها من ظاهر الحياةِ الدنيا ، فالهِمَّةُ مصروفةٌ إلى الأكْل والشرب ﴿ **بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾ أي من الدوابِّ ، لأنَّ الأنعامَ إذا زَجَرها الراعي انزجرتْ ، وهي تُبصر منافعَها ومضارَّها ، وتَتَّبعُ مَالِكَها ، والملحدون بخلاف ذلك لا يهتدون إلى شيء من الـخيرات التي تجعلُهم أهلًا للنعيم في الـحياة الأبدية ، بل هم كما قال اللهُ فيهم : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ** ﴾[3] .

قال عطاء : الأنعامُ تعرِف اللهَ عز وجل ، والكافرُ لا يعرفُه ، وقيل : الأنعامُ

---

(١) الأحقاف : ٢٦ .

(٢) الأنفال : ٢٢ و ٢٣ .

(٣) الروم : ٧ .

مُطيعةٌ لله تعالى ، والكافرُ غيرُ مطيع ، قال ابنُ كثير : كان الكافرُ أَضلَّ من الدواب ، لأن الدوابَّ تفقهُ ما خُلقت له إمَّا بطبعها ، وإمَّا بتسخيرها ، بخلاف الكافرِ فإنه إنما خُلق ليعبدَ الله ، ويوحدَه ، فكفَر بالله ، وأشرك به ، ولهٰذا : مَن أطاع اللهَ من البشر كان أشرفَ من مِثله من الملائكة في مَعاده ، ومن كفَر من البشر كانت الدوابُّ أتمَّ منه ، ولهٰذا قال تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ** ﴾ .

إنَّ الأنعامَ لم تُعْطَ قدرةً على تحصيل الفضائل ، وإنما هي مسخَّرةٌ لما خُلقت له ، وهٰؤلاء الملحدون والمشركون أُعطوا هٰذه القدرةَ ولم ينتفعوا بما أُعْطوا فتَركوا أسبابَ النعيم الدائم ، وأقدَموا على العذاب الأليم ، وإنَّ الأنعامَ وإنْ لم تفهم الموعظةَ ، ولم تُعْطَ القدرةَ على طاعة الداعي فهي لم تكن عاصية ، والمُلحدون عُصاةٌ ومتَعنِّتون فهم أسوأُ حالًا من الدواب فكانوا لذٰلك وغيرِه كاملين في الغفلة عمَّا فيه صلاحُهم ، ولتركهم التدبر .

قال عطاء : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ** ﴾ أي عمَّا أعَدَّ اللهُ تعالىٰ لأوليائه من الثواب ، ولأعدائه من العقاب .

فانظُر – ياذا اللبِّ – جمالَ التشبيهِ وقوتِه ودقتِه في بيان ضلالِ الملحدين والمشركين ، وتقبيحِ حالهم ، والتنفيرِ ممَّا قُبِّحُوا من أجله ، وهو تعطيلُ قُوىٰ التدبُّر والتأمُّل ، والإعراضُ عن الإيمانِ الصحيح وعن طاعة المنعمِ وشكرِه .

وكم في هٰذه الآية الكريمةِ من أسرار وجمالٍ وإيجازٍ وإعجاز .

* * *

من سورة البلد

٦٤-١- سورة البلد وتنبيهُ العباد .

قال اللهُ تعالىٰ :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾[1] .

هٰذه الآياتُ من سُورة البلدِ ، وهي مَكِّيَّةٌ ، وآياتُها عشرون نزلت بعد سورةِ ق ، وترتيبُها بعد سورةِ الفجرِ في المصحف ، وفي سورةِ الفجْرِ جاء ذَمُّ مَن يُؤثرون الحياةَ الدُّنيا على الآخرة ، ولا يُكرمون اليتيمَ ، ولا يحضُّ بعضُهم بعضًا على إطعام المسكينِ ، وعلى العناية بشأنِ الفقير ، ويأكلون ميراثَ اليتامىٰ ، ويُحبون المالَ حبًّا كثيرا ، فيُقبلون على حلاله وحرامِه ، ولا يُؤدُّون حقوقَه .. وقد جاء في سورة البلدِ التنبيهُ إلى الخِصال التي تُطْلَبُ من صاحب المالِ من عِتْقِ الرقاب ، والإطعامِ في الشدائد والأزماتِ وأيامِ الجوع ، وإكرامِ اليتامىٰ ، ورعايةِ أهلِ الفقْر والحاجة .

وفي سورة الفجر جاء ذكْرُ حالِ النفسِ المطمئنَّة التي استيقنت الحقَّ ، وثبتتْ على الصراط المستقيم ، واطمأنت إلى معرفةِ الخالِق ، ورَغبت في الخير ، وانصرفت عن الشر .

وفي سورة البلدِ بيانُ ما يكونُ به الاطمئنان : أي بمجاهدة النفسِ والشيطانِ

---

(١) البلد : ٨ : ١٢ .

والـمبادرةِ إلى أعمال البرِّ ، مع صدْق الإيمان ، وسلامةِ اليقين ، والتواصي بالصبر على أذىٰ الناس ، وعلى الرحمةِ بهم ، والرغبةِ في الـخير لهم ، والسعي فيما يُصلحهم .

البلدُ الآمن :

وقد بدأت سورةُ البلد بتنبيه العبادِ على عظمة قدْرِ مكةَ المكرمةِ ، فقد أقسم ربُّنا بأمِّ القُرى ، البلدِ الأمينِ التي شرفَها فجعلَها حرمًا آمنًا ، وجعل فيها البيتَ الـحرامَ مثابةً للناس وأمنًا ، يُعاود أهلُ الإيمان زيارتَه كلما دعاهم الشوقُ إليه ، وجعل سبحانه الكعبةَ قبلةً لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجُّـه إليها في الصلوات ، وفي هـٰذا البلدِ الأمين وُلِدَ النبيُّ محمدٌ ﷺ ، وأقام فيه ، وصَبَر بعد أن أُمِر بتبليغ الدعوةِ على أذى المشركين الذين لم يُرَاعُوا في معاملته ﷺ حُرمةَ مكةَ ، وما خَصَّها اللهُ به من شرفٍ وأمْنٍ ، وقد حرَّمها اللهُ عز وجل يومَ خلَق السمـٰواتِ والأرضَ فهي حرامٌ إلى أن تقومَ الساعةُ لا يجوز لأحد أن يعبثَ بأمْن أهلِها وساكنيها وزوارِها ، ويشتدُّ الوعيدُ على مَن يُثير فيها الفتنَ ، وهي كما قال الرسول الحبيبُ ﷺ : « فَهِي حرامٌ إلى أن تقومَ الساعةُ ، فلم يَحِلَّ[1] لأحد قبلي ، ولا تَحِلّ لأحد بعدي ، ولم تَحِلّ لي إلا ساعةً من نهار » أي يوم فتْح مكةَ ، قال ابنُ عباس : أُحِلّ له يوم دخل مكةَ أن يقتُلَ مَن شاء ، ولم يَحِلّ لأحد من الناس أن يقتُل بها أحدًا بعد رسولِ الله ﷺ .

وعن ابن عباس – أيضا – : أُحِلت له ساعةً من نهار ، ثم أُطبقت ، وَحُرِّمت إلى يوم القيامة ، وذلك يوم فتْح مكة .

وفي الحديث المتفق على صحته : « إنَّ هـٰذا البلدَ حَرَّمه اللهُ يومَ خلَق السموٰاتِ والأرضَ ، فهو حرامٌ بحُرمة اللهِ إلى يومِ القيامةِ ، لا يُعْضَدُ شجَرُه ،

---

(١) أى لم يحل القتال فى مكة لأحد قبله ﷺ .

ولا يُخْتَلَىٰ خَلاه ، وإنما أُحِلَّت لي ساعةً من نهار ، وقد عادت حُرمَتُها اليوم كحُرمتها بالأمس ، ألا فليبلِّغْ الشاهدُ الغائب » .

والـخلا : النباتُ الرطبُ الرقيقُ ما دام رَطْبا ، واختلاؤُه : قَطْعُه .

وقد أقسم اللهُ عز وجل بهـٰذا البلدِ ليلفِتَ العبادَ إلى حُرمته ومكانتِه وعظيمِ جزاءِ المؤمنين الصالـحين الذين يَرْعَوْن حُرمتَه ، ويحفظُون عليه أمنَه ، فقال سبحانه : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ قالوا : هو ثناءٌ على النبى محمدٍ ﷺ ، أي إنك يامحمدُ غيرُ مرتكِبٍ في هـٰذا البلدِ الأمينِ ما يَحْرُمُ عليك ارتكابُه ، معرفةً منك بحق هـٰذا البيتِ لا كالمشركين الذين يرتكِبُون الكفْرَ باللهِ فيه ، أي أُقسم بهـٰذا البيتِ المعظَّم الذي قد عرفتَ حُرْمتَه ، فأنت مُقِيمٌ فيه ، معظِّمٌ له ، غيرُ مرتكبٍ ما يَحْرُم عليك .

وقال شُرحبيلُ بنُ سعد : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ أي حلالٌ ، أي هم يُحَرِّمون مكةَ أن يقتلُوا بها صيْدا أو يَعضِدوا بها شجرةً ، ثم هم مع هـٰذا يَستحِلُّون إخراجَك يا محمدُ وقتْلك .

وفي هـٰذا وغيرِه من الأدلة على حُرمة مكةَ وشرفِها إيقاظٌ ، وتنبيهٌ لأهل الإيمانِ على رعايةِ أمنِ الأماكنِ المقدَّسة ، ووجوبِ الحِفاظِ عليه ، وضرورةِ المبادرةِ إلى كبْت كلِّ بادرةٍ لإثارة الفتنة ، وأن يراقِبَ المقيمُ والزائرُ ربَّه ، وأن يُخلِصَ النيةَ والقصْدَ ، وأن يطهِّرَ القلبَ واللسانَ من الآفات التي تُغضب الربَّ ، وأن تَنقضِيَ أيامُه فيها وهو في خشوع وسكينةٍ وأدبٍ وتوجُّهٍ إلى اللهِ بالطاعة والانقياد لأمره ، رجاءَ ما عنده سبحانه من الرحمة والـمغفرة ، وأن يعامِلَ الناسَ بالحُسنىٰ ، واللينِ ، وسَعة الصدر ، وحُسنِ القول ، وطَيِّبِ الكلام ، واللهُ عز وجل يقول : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا .. ﴾[1] ..

من كمال القدرة :

ثم أقسم اللهُ عز وجل بوالدٍ وما ولدَ فقال : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ ليلفِتَ العبادَ إلى عجائبِ صُنْعه ، وآثارِ قُدرته سبحانه في الخَلْق ، وبراهينِ عظمتِه ووحدانيتِهِ ، فمن العبادِ الوالدُ الذي يُولَدُ له ، ومنهم العاقرُ الذي لا يُولَدُ له ، وهٰذا المعنى على أنَّ ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ نافيةٌ ، وفي التضادِّ بين الوالد والعاقر آياتٌ على أنَّ للكون مُدبِّرًا حَكيما ، له الحُكمُ والأمرُ ، لا يُنازِعُه في سلطانه أحدٌ سبحانه وتعالىٰ .. وإنْ كان التفسيرُ بالوالد والعاقرِ بعيدًا ولا يَصِحُّ إلا بإضمار الموصول ، أي ووالدٍ والذي مَا وَلَدَ ، وإضمارُ الموصولِ في مِثْلِه لا يجوزُ عند البصريِّين .

وقد يكون المعني : ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ أي آدم عليه السلام ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ أي وما نَسَلَ من ولَدِه ، أقسمَ بهم سبحانه لأن البشرَ أعجبُ ما خلَق اللهُ عز وجل على وجْه الأرضِ لِمَا فيهم من التبايُنِ والنطقِ والتدبيرِ ، وفيهم الأنبياءُ والدعاةُ إلى الله تعالى .

وقال عطيةُ العَوْفِيُّ وغيرُه : هو عمومٌ فى كل والدٍ وكلِّ مولود ، أي أقسم اللهُ عز وجل بكل والدٍ وكلِّ مولود من الإنسان وغيرِه ، لِمَا في طورِ التوالُدِ من بالغِ الحكمةِ وإتقانِ الصُّنع ، ولما فيه من العجائب في الإنسانِ وسائرِ الحيَوان ، وفي النبات مِمَّا يُرشِد العقلَ إلى وجود الخالقِ ، وكمالِ قدرتِه ، وكمالِ حكمتِه وتدبيرِه .

---

(١) البقرة : ١٢٥ و ١٢٦ .

ولله عز وجل أن يُقسم بما يشاءُ من مخلوقاته لتعظيمها ، وليلفِتَ العبادَ إلى ما فيها من المنافع أو الآياتِ الدالاتِ على وحدانية الخالقِ وعظمتِه ، أو غيرِ ذلك من الحِكَم والأحكام ، والعِبَر والعظات .

وجَوابُ القَسَم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾[1] أي في شِدَّةٍ وعناءٍ من مكابدة الدنيا ، وقال الحسن : يكابد مصائبَ الدنيا وشدائدَ الآخرة ، وقالوا : لم يخلُق اللهُ خلقًا يُكابد ما يُكابِدُ ابنُ آدمَ ، وهو مع ذلك أضعفُ الخلْق ، وكم يُكابد الإنسانُ في حياته ، ولا يَمضِي عليه يومٌ إلا ويُقاسِي فيه شِدةً ، وشدائدُ الدنيا أهونُ من نَزْعِ الروحِ وسَكَرات الموتِ ، ثم مُسَاءَلَةِ المَلَكِ ، وأهونُ من ظُلمة القبْرِ وضَغْطَتِه وإنَّ ما بعد القبرِ لأعظمُ هوْلًا ، إلى أن يستقرَّ بالعبد القَرار إمَّا في الجنَّة أو في النارِ ، فلو كان الأمْرُ إلى الإنسان لمَا اختار هٰذه الشدائدَ ، ودلّ هٰذا على أنَّ له خالِقًا دبَّره ، وقضى عليه بهٰذه الأحوالِ فَلْيمتَثِلْ أمْرَه ، وأصلُ الكَبَدِ : الشدةُ ، يقال : كابدتُ هٰذا الأمرَ : قاسيتُ شِدته .

وفي هٰذا تنبيهٌ للمغرورين الذين يشعرون بالقوة في أنفسِهم إذ الإنسانُ مَهْما أُعطِي من القوة أو الجاه أو المالِ فإنه لا يستطيع الخَلاصَ من مشاقِّ الحياة ، وإذا فكَّر الإنسان في هٰذا ارتدَع عن الغرور والكبرياءِ والمباهاةِ بالمال ، أو بالإنفاقِ منه ، لذا قال الله عز وجل بعد هذه الآية : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾[2] أي مالا كثيرا مجتمعا ، من تلبَّد الشيءُ إذا اجتمع ، أي يقول ذلك وقت الاغترارِ فخْرا ، ومباهاةً ، وتعظُّما على المؤمنين ، ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾[3] أي حين كان ينفقُ ما ينفق رِئاءَ الناسِ ، وحِرصا على معاداةِ

---

(١) البلد : ٤ .

(٢) البلد : ٥ و ٦ .

(٣) الآية : ٧ .

الإسلامِ ورسولِ اللهِ ﷺ .

وفي هٰذا ردعٌ للنفوس ، وتحذيرٌ من التمادي في الغرور والباطلِ والزورِ إذ اللهُ عز وجل مُطَّلعٌ على السرائر ، ويعلمُ ما في الضمائر ،يَرى صنيعَ العبْد ، وسيسألُه عَمَّا قدَّمت يداه ، ويُجازيه عليه ، ألا إنَّ جميعَ قُوى الخلْقِ خاضعةٌ للقوة التي أبدعتهم ، وللقدرة التي أنشأتهم ، فلماذا الغرورُ ، والتمادي في الغفلة عن المصير ؟ .

وبعد أن أنكرت الآياتُ على المغرورين اغترارَهُم بقوتهم أو بجاهِهم ، أو بكثرة المالِ عَدَّد اللهُ عليهم نِعَمَه ، وما فيها من آثار قدرتِه الغالبة ، وضَرب لهم المثَلَ ليُبيِّن لهم طريقَ الخيرِ والنجاة ، ويُرشِدَهم إلى سبيل الفوز والسعادة ، فقال سبحانه : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ * فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ** ﴾[1] .

فتأمَّل – يا ذا اللب – آثارَ قدرةِ الخالقِ العظيم في عينيك ، ولسانِك ، وشفتيك ، وتدبَّر رحمتَه سبحانه في إرسال الرسل ، وإنزالِ الكتبِ ، وبيانِ الخيرِ والشرِّ ، وفكِّر – يا ذا اللب – : في أمر العَقبةِ ، ما هِي ؟ وكيف تجتازُها ؟ وما السبيلُ إلى اقتحامها ليكونَ العبدُ أهلًا لرحمة اللهِ عزَّ وجل .

* * *

(١) البلد : ٨ : ١٢ .

٦٥ - ب - هلّا شكرنا المنعم ، وهلّا اقتحمنا العقبة .

أَقْسَمَ اللهُ عَزَّ وجلَّ في سورة البلدِ بالبلدِ الحرامِ ، وبوالدٍ ومَا وَلَدَ على أَنَّ الإنسان خُلِق مغمورًا في مكابدة المشاقِّ والشدائدِ ، ثم جاء التوبيخُ في سياق الآياتِ للإنسان المغرورِ على استغراقه في غروره مخدوعًا بالقوة أو بالجاهِ حتى كأنَّه يظنُّ أن لَّن يَقْدِر عليه أحدٌ ، مع أنَّ ما هو فيه من مكابَدَةِ الآلامِ والمشاقِّ كان كافيًا لإيقاظه من غفلتِه ، ولاعترافِه بعجْزه وبحاجتِه إلى خالقِه ومدبِّر أمرِه ، كما وبَّخ المرائين الذين يُنفِقون الأموالَ افتخارًا ومُبَاهاةً ، وبَكَّتَهُم على خُلوِّ بواطنِهم من صِدْق النيَّةِ ، وإخلاصِ القصْدِ ، ولو أنَّهم تدبَّروا وعقَلُوا لعَلِمُوا أن سرائِرَهم لا تَخفىٰ على مدبر أمورِهم ، والمتصرِّفِ في ضمائرهم ، ولأخلَصُوا النيَّةَ ، وراقبُوا ربَّهم في أعمالهم : ﴿ **أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ** ﴾ وما أَجْهَلَ الإنسانَ لو ظَنَّ ذٰلك ! .

ولنتدبر قولَه تعالىٰ من سورة النساء : ﴿ **وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا** ﴾[1] .

ثُمَّ بَيَّنَ السِّياقُ لهٰؤلاء وغيرهم أن اللهَ سبحانه وتعالىٰ هو مانحُ الإنسانِ أفضلَ ما يتمتَّعُ به من البَصَر والنُّطْق والعَقْل والتَّمْييز ، فهو سبحانه مُهدِي هٰذه النِّعمِ إليهم ، وهو القادرُ على سَلْبها منهم إذا أراد : ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ** *

---

(١) ١٠٧ و ١٠٨ .

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ .

إنَّ نعمةَ البصرِ آيةٌ من آيات اللهِ تدلُّ على قدرته ، وتُرشدُ إلى رحمته بعباده لذا وجب الإيمانُ به سبحانه ، ووجب علينا شكرُه ، والإذعانُ لأمره ، وإخلاصُ العبادة له فهو سبحانه خالقُ الإنسانِ ، وهو الذي شَقَّ له سَمْعَه وبصرَه ، وهو الذي عَلَّمه البيانَ والإفصاحَ عن نفسه بالكلام ، وما أَعْظَمَ النِّعَمَ في الشفَتَين واللسانِ لمن تدبَّر ، وأَنْعَمَ الفِكْر ، ليرى كمالَ القدرة ، وكمالَ الحِكمة ، وكمالَ الرحمةِ فيما أبدع سبحانه وتعالىٰ ، وما جَعَل من الفوائد في العينين والشفتين واللسانِ ، وعلى الإنسان أن يذكُرَ دومًا أن الذي أهدى هـٰذه النعمَ إليهم ، هو القادرُ على تعطيل منافعِها ، وهو سبحانه لا تَخفىٰ عليه أعمالُ هـٰذه القُوى والجوارح ، وهو الحافظُ لها ، لذا لَفَتَ اللهُ العبْدَ إلى هـٰذه القوى وقرَّره بها ، وهي ظاهرةٌ أمامه جَلِيَّةٌ ؛ حتى يشكرَ المنعمَ سبحانه ، وحتى يعلمَ أن مانحَها قادرٌ على أن يبعثَه ، وعلى أن يُحصِيَ عليه ما عَمِلَه ، وعلى مجازاتِه ، وقد بَيَّن له سبحانه طريقَيْ الخيرِ والشرِّ ، وبَيَّن له الحلالَ والحرامَ ، ووهَبَهُ العقلَ والقدرةَ على التمييز ، وأرسلَ الرسلَ ، وأنزلَ الكتبَ ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ يعني الطريقين : طريقَ الخيرِ ، وطريقَ الشرِّ ، أي بَيَّنَّاهُما له بمَنْ أرسلْناه من الرسل ، وبما جعَلْناه له من العقل والفكْرِ ما يكون مُذَكِّرا ومنبِّهًا ، وبما أَقَمنا له من الدلائِل على حُسْنِ الخيْرِ ، وَقُبْحِ الشرِّ وما فيه من عيوبٍ ومساوئ ، وقد آتيناه قوةَ التمييزِ ، والقدرةَ على الاختيار والترجيح ، ليُجازَىٰ على أساس اختيارِه وقد وضَحتِ الطريقُ ، ولم يبْقَ لأحدٍ عُذرٌ بعد إرسالِ الرسُلِ وإنزالِ الكتب .

فَلِمَ لا يكونُ نَجْدُ الخيرِ أحبَّ إلى أحدِنا من نَجْد الشرِّ ، فَمَن نازعتْهُ نفسُه ، واتَّجهت إلى نَجْد الشرِّ فَلْيَقْمَعْها بالتفكُّر في عظَمة اللهِ وكمالِ عِلْمِه ، والتدبُّرِ في

آياته لِيعلَمَ أنَّ الشرَّ طريقٌ معوَجٌّ مظلِمٌ وأنه أصعبُ مَرْقًى من طريق الخير ، وأن فيه وعورة ، وعواقبَه وَخيمةٌ ، إذ يَهْوِي بصاحبه إلى المهالك .

إنَّ النجْدَ في اللغة : هو الطريقُ في ارتفاع ، وجمعُه نُجود ، ومنه سُمِّيَتْ « نجْد » لارتفاعها عن انخفاض تِهامةَ ، فالنجدان : الطريقان العاليان الواضِحان ، وقد سَمَّى اللهُ عز وجل الخيرَ والشرَّ نَجْدين للإشارة إلى أنَّهما واضحان كطريقين عاليين يَراهما ذَوو الأبصار ، وإلى أنَّ في كل منهما صعوبةَ مسلكٍ إذ يحتاجُ طريقُ الخير إلى مجاهدَةِ النفسِ والهَوىٰ والشيطان ، ويحتاجُ العزوفُ عن طريق الشرِّ إلى الصبر عن معاصي اللهِ ، ومخالفةِ الهوىٰ والشيطان ، ولٰكنَّ الأمانَ ، والسلامةَ ، وحُسْنَ العاقبةِ في طريق الخير .

فانظُر قوةَ التعبير وجمالَه في استعارة النَّجْدَيْن للخير والشرِّ حتى صارت الأمورُ المعنويةُ ، والصورُ العقليةُ مدركَةً بالحِسِّ ظاهرةً للعَيْن عن طريق تَمْثِيلِ الخيرِ بطريقٍ عالٍ مرتفعٍ ، وتمثيلِ الشرِّ بطريق عالٍ مرتفعٍ لبيان أنهما واضحان جليَّان لا يخفىٰ واحدٌ منهما على أحَد ، وقد نُصِبت الدلائلُ ، وجاءت الشرائعُ ، وبَلَّغت الرسلُ والأنبياءُ ، وفي أيدينا كتابُ الله عزَّ وجلَّ وسُنَّةُ رسولِه ﷺ إلى أن تقومَ الساعةُ ، وقد مُنِحْنا العقلَ والفهْمَ والقدرةَ على التمييز والاختيار ، ونظيرُ هٰذه الآيةِ قولُه تعالى من سورة الدَّهر : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾[1] .

وفي الحديث القدسيِّ الذي رواه الحافظُ ابنُ عساكر عن مكحول : قال النبيُّ ﷺ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : ياابن آدمَ قد أنعمتُ عليك نِعَمًا عِظامًا لا

---

(١) ٢ و ٣ .

تُحْصِي عَدَدَها ، ولا تُطِيقُ شُكْرَها ، وَإِنَّ مِمَّا أَنعمْتُ عليك أنْ جعلتُ لكَ عَيْنَين تنظُرُ بهما ، وجعلتُ لهما غِطاءً ، فانظُر بعينيك إلىٰ ما أحللتُ لك ، وإنْ رأيتَ ما حَرَّمْتُ عليْك فأَطْبِق عليْهِما غِطَاءَهُما ، وجعلتُ لك لِسانًا وجعلتُ له غِلافا ، فانطِق بما أمرتُك به ، وأحللتُ لك ، فإن عَرَضَ لك ما حَرَّمتُ عليك فَأَغلِق عليك لسانَك ، وجعلتُ لك فرْجًا ، وجعلتُ لك سِترًا ، فأَصِب بفرجِك ما أَحلَلْتُ لك ، فإن عَرَض لك ما حَرَّمتُ عليك فأَرْخِ عليك سِتْرَك ، يا ابنَ آدمَ إنَّك لا تَحْمِل سُخْطِي ، ولا تُطِيقُ انتقَامي » .

فطُوبىٰ لمن سلَك طريقَ النجاة ، وأَخْدَمَ جوارِحَه في طاعة مولاه ، وكَفَّها عن معاصي اللهِ ، واستخدم نِعَمَ اللهِ فيما يُرْضِي الله ، ليُوفِّقَه رَبُّه إلى اقتحام العقَبةِ ، ونَيْل ما عنده من الرحمة .

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ .

الاقتحامُ : هو الرَمْيُ بالنفس في شيءٍ من غير رويَّةٍ ، يقال منه : قَحَم في الأمر قُحومًا ، أي رَمَىٰ بنفسه فيه من غير رويَّة ، والقُحْمَةُ : المَهْلَكَةُ ، والسَّنَةُ الشديدة ، والقُحْمُ : صِعابُ الطريق ، واقتحم الأمرَ : دخَل فيه بشدَّة ومشقَّة ، والعقَبةُ : الطريقُ الوعرةُ في الجبل يصعُب سلوكُها .

قال ابنُ زيد : ﴿ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ أي : أَفلا سلَكَ الطريقَ التي فيها النجاةُ والخيرُ ، ثم بيَّنها فقال : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَـٰمٌ .. ﴾ الآيات .. وقد جُعِلت الصالحاتُ عقَبةً وعملُها اقتحامًا لها ، لما في ذلك من معاناةِ المشقَّةِ ومجاهدةِ النفسِ والشيطانِ ، أي فهلَّا جاهَدَ النفسَ والشيطانَ ، وعَمِل أعمالَ البِرِّ ، وقد ضَرَب اللهُ العقَبةَ مَثَلًا لـهـٰذا الجهادِ ، قال الحسن : هي واللهِ عقبةٌ شديدةٌ ، مجاهدةُ الإنسانِ نفسَه وهَواه ، وعدوَّهُ الشيطانَ ، وأنشد بعضُهم :

إنِّي بُليتُ بأربعٍ يَرْمِينَني بالنَّبْل قد نَصَبُوا عليَّ شِرَاكا
إبليسُ والدنيا ونفسي والهَوىٰ مِن أيْن أرجُو بينهنَّ فِكاكا
يا ربِّ ساعِدْني بعفوٍ إنني أصبحتُ لا أرجُو لهنَّ سِوَاكا

ثم فَخَّم السياقُ شأنَ العقَبةِ ، وعَظَّم أمرَها فقال اللهُ عز وجل : ﴿ **وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ** ﴾أي إنك لم تُدرك كُنْهَ صُعوبةِ هـٰذه العقبةِ على النفس لحاجتها إلى المجاهدة والصبرِ ، ولم تُدرِكْ كُنْهَ وحقيقةَ ثوابِها عند الله ، والكلامُ بتقدير مُضافٍ : أي وما أدْراكَ ما اقتِحَامُ العَقَبَة ؟ والخِطابُ للنبيِّ ﷺ لِيُعَلِّمه اقتحَامَ العَقَبةِ ، ثم أَرشَد سبحانه إلى أنَّ اقتحامَها في الدنيا يكون بفعلِ صنوفٍ من الخير مع صدْقِ الإيمانِ وسلامةِ اليقين ، فإذا اقتحَم العقبةَ في الدنيا ، وجاهدَ نفسَه ، وصبرَ عن معاصي الله ، وصبَر على طاعة اللهِ سَهُل عليه سلوكُ العقبةِ في الآخرة ، قال الحسنُ وغيرُه : هي عقبةٌ شديدةٌ في النار دونَ الجِسْرِ ، فاقْتحِمُوها بطاعة اللهِ ، وقال مجاهدٌ وغيرُه : هي الصراطُ يُضْرَبُ على جهنَّمَ كحدِّ السيفِ مسيرةَ ثلاثةِ آلافِ سَنةٍ ، واقتحامُه على المؤمن كما بَيْن صلاةِ العصرِ إلى العشاء ، وقيل : اقتحامُه عليه قَدْرَ ما يُصلِّي صلاةَ المكتُوبةِ ، وقال ابنُ عمر : هـٰذه العقبةُ جبلٌ في جهنَّمَ ، وقيل : النارُ نفسُها هي العقَبة ، وعن أبي الدرداء : إنَّ وراءَنا عقبةٌ ، أَنْجىٰ الناسِ منها أخفُّهم حِمْلًا .

وإنَّ من أعظمِ أبوابِ الخَير بعد صِدْقِ الإيمانِ ، وطاعةِ الرحمـٰنِ ، وأداءِ الفرائضِ ، أن يَفُكَّ المؤمنُ الرقَبةَ بتخليصها من الرِّق بعتْقِها أَوْ الإعانةِ على عِتقها ، والفَكُّ هو حلُّ القيْد ، والرِّقُّ ، قَيْدٌ كالقيْد الذي تُرْبَطُ به رقَبةُ الأسير ، لذا سُمِّي عِتْقُها فكًّا كفكِّ الأسيرِ من الأسر ، وممَّا يُعِينُ على اقتحامِ العقَبةِ ،

الإطعامُ وقتَ الـمجاعة ، ورعايةُ اليتامَىٰ والمساكينِ في أيام الشدةِ مع التواصِي بالصبرْ والتواصِي بالرحمةِ على الخَلْق لمواساتهم ومساعدتِهم حينَ الـخصاصةِ والبأْساءِ : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ .

* * *

٦٦-ج - هيَّا نتواصى بالصَّبر على اقتحام العقبة .

في سورة البلدِ ذمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ المقصِّرَ في شُكْرِ المُنْعِمِ مع ما أنْعَمَ اللهُ تعالىٰ به عليه من النِّعم العِظام ، والأيادِي الجليلةِ الجسامِ ومنها العينان يُبصِرِ بهما ، واللسانُ يُفصِح به عمَّا في ضميره ، والشفتان يسترُ بهما فمه ، ويستعينُ بهما على النُّطق وإخراجِ الحروفِ ، وعلى الأكلِ والشربِ والنفْخِ وغيرِ ذٰلك ، وإنَّ أعظمَ النِّعم وأجَلَّها إرسالُ الرسلِ ، وإنزالُ الكتبِ للهداية والإرشادِ ولبيانِ الخيرِ والشرِّ ، مع مَنْحِ الإنسانِ العقلَ والفِكْرَ والقدرةَ على الفهم والتمييز ، ولذا توجَّه الذَّمُ إلى كل مَغْرورٍ بقوَّته ، مُدِلٍّ بها ، وكلِّ مفتون بماله ، مُباهٍ به ، وبإنفاقه فيما لا يعودُ عليه في الآخرة بالخير ، فهو يُنفقُ ما يُنفق رِئاءَ الناس ، أوْ حِرصًا على معاداة الإسلام وأهلِه ، ومحاربةِ الحقِّ ، والوقوفِ في وَجْهه ، أو يُباهي بما لم يفعل ، يقول أنفقتُ ، وأنفقتُ وهو كاذبٌ يُحِبُّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل ، فهو إنْ غشَّ الناسَ لا يستطيعُ أن يُخفِيَ من أموره شيئًا عن الله عَزَّوجل : ﴿ **أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ** ﴾ أي : أيظنُّ أنَّ اللهَ تعالىٰ ما رأىٰ ذٰلك منه ، فَعَلَ أوْ لم يَفْعَل ، أنفقَ أو لم ينفق ، بل رآه اللهُ عز وجل ، وَعلِم ما في نفسِه ، وهو سبحانه خالقُ العبد ، وواهبُ القوى ، وهو سبحانه القادرُ على المجازاة ، والمحاسبةِ ، وكما بَدَأَ أولَ خَلْقٍ يُعيده .

ألا فَلْيتنبه ذوو البصائر ، وَلْيسعَوْا إلى فكِّ رقابِهم من سلاسِلِ جهنَّمَ ، وخلَاصِ نفوسهم من عذابها بالإيمانِ الصحيح وباجتناب المعاصِي ، وبفعلِ الطاعات ، والتنافسِ في المبرَّات والخيراتِ ، وَلْيَحْذر الإنسانُ الغرورَ ، وليجتنِبْ مزالقَ الزهْوِ بالقوةِ أو بالجاهِ أو بالمال ، ولْيوجِّهْ الطاقةَ إلى ما يبقَىٰ نفعُه ،

وتدومُ ثمراتُه ، إذ الدنيا كظِلِّ الغَمَام ، وَمَن رَكَنَ إليها غَرَّتْهُ ، ومن اطمأنَّ لها لدغَتْه ، ومَن اتَّخذها خِلًّا وصَاحِبًا تنكَّرت له وفتنتْه ، والمُكتسِي بالدنيا عُريان ، والمتباهي بها مخدوعٌ ، والمتكاثرُ فيها مغلوبٌ ، إنَّ الغافلَ عن الباقية ، الحريصَ على الفانية ، المؤمِّلَ في متاعها ، مَثَلُهُ كما قال كُثَيِّر :

لَكَا لْمُرْتَجِي ظِلَّ الغَمَامةِ كُلَّمَا تَبَوَّأَ مِنْها للمَقِيلِ اضْمَحَلَّتِ

يقال : قَالَ قَيْلًا أي نَام وسَطَ النهار ساعةَ الظَّهيرة ، والقيلولةُ نومةُ نصفِ النهار ، أو الاستراحةُ فيه ، والمَقِيل : القيلولةُ ، والاضمحلالُ : الزوالُ ، فهل لظلِّ الغَمامة ثباتٌ ودوامٌ بحيث يسكنُ الإنسانُ إليه ، ويطولُ أملُه فيه ؟ .

ومن حكمةِ رسول اللهِ ﷺ ووصَاياه البليغةِ النافعةِ قَوْلُه لابن عمرَ : « كُنْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ ، أو عابرُ سَبيلٍ » أخرجه البخاري عن ابن عمر .

« كأنك غريبٌ » أي فلا تشغَلْ قلبَك بزينة الدنيا من أهلٍ ومالٍ وولدٍ ، ثم تَرَقَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ في صَرْف النظَر عن الدنيا ، فقال : « أوْ عابرُ سَبيل » لأنَّ عابرَ الطريقِ وهو القاصدُ للبلد البعيدِ لا يُقيمُ في الطريق ، فهو أَبْعَدُ تعلُّقًا بما يُصادِفُه في طريقه بخلاف الغَريب ، فإنه قد يُقيمُ فى بلد الغُربة ، ولذا فإن العاقلَ الحكيمَ هو من قصرَ أملَه في الدنيا ، ولم يتعلَّق قلبُه منها إلا بما يَنفعُه في الدار الآخرة ، وينبغي له إذا أمْسَىٰ ألَّا ينتظِرَ الصباح ، وإذا أصبحَ ألَّا ينتظِرَ المساء ، بل يَظُنُّ أَنَّ أجلَه مُدْرِكُه قبل ذٰلك فلا يُقَصِّرُ في العمَل ساعة ، ويُجَدِّدُ التوبةَ دوما ، وَيُنَمِّي الإيمانَ بالإقبال على الصالحات ، مُتَّخِذًا من دنياه مزرعةً لآخرته ، وعلى العاقل أن يخالِفَ هواه ، ويغالِبَ نفسَه الأَمَّارةَ بالسُّوء ، ويتخذَ الشيطانَ عدوًّا ومن لم يفعلْ ذٰلك لم يقتحم العقَبَةَ في الدنيا ، ولم يُعِدّ نفسَه بحيث يمكنُه اقتحامُ عقبةِ جهنَّمَ غَدًا ، إن العقبةَ في الدنيا هي الهوىٰ والشيطانُ والنفسُ

الأمَّارةُ بالسُّوء ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ وفي الاستفهام تعظيمٌ لشأن العقَبة ، وتفخيمٌ لأمرها ، إذ يحتاج اقتحامُها إلى قوةِ نَفْسٍ ، ومضاءِ عَزيمة ، وأن يكون المرءُ مثابرًا وصبورًا ، يتحمَّل عِظَامَ الأمور في سلوك الطريقِ المؤدِّيةِ إلى مَرْضَاة الربِّ ، وأن يغالبَ الشُّحَّ ، وَيَعْصِيَ هَواه ، وَيَقْهَرَ شيطانَه ، وألَّا تَغُرَّهُ الشهواتُ ، ولا تَفْتِنَهُ الشبهاتُ ، وأنْ يُوَجِّه الطاقةَ في فِعْل الخيراتِ إيمانًا واحتسابًا وطاعةً للمنعم الوهَّاب ، وشكرًا له .

وقد أرشدت السورةُ الكريمةُ إلى أنَّ اقتحامَ العقَبةِ يكون بفعل صنوفٍ من الخير منها :

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ والفَكُّ تَخْلِيصُ شيءٍ من شيءٍ وهو مصدرُ فَكَّ وكذا الفَكَاكُ، والمقصودُ بفكِّها خلاصُها من الأسر ، وقيل : من الرقِّ ، وفي هٰذا ترغيبٌ في العتق ، وفي تحرير الرقابِ من الرِّقِّ ، وقد وردت في فضل العِتق آثارٌ كثيرة ، وهٰذا يُرشِدُ إلى ميْلِ الإسلامِ إلى الحرية ، وَجَفْوَتِه للأسر والعبوديةِ ، وفي الحديث الذي رواه البَراءُ بنُ عازب قال : جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسولَ الله ، دُلَّنِي على عَمَل يُدخِلُني الجنَّةَ ، قال : « أَعْتِقِ النَّسَمَةَ ، وفُكَّ الرقَبَةَ » قال : أَوَلَيْسَا واحدًا ؟ قال : « لا ، إنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أن تَنفرِدَ بعتقها ، وَفَكَّ الرقَبة أن تُعِين في عِتقها .. » الحديث أخرجه أحمدُ وغيرُه . وفي لفظ : « وَفَكُّ الرقَبةِ أن تُعين في ثَمَنِها » وفي الحديث : « مَنْ فَكَّ رقبَةً فَكَّ اللهُ بكلِّ عُضْوٍ منها عُضْوًا منه من النار » وفي لفظ : « مَنْ أَعْتَقَ رقَبَةً مؤمنةً فَهِي فكَاكُه من النَّار » رواه عقبةُ بنُ عامر وغيرُه بمعناه وأخرجه أحمد .

﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ مَسْغَبة : أي مجاعة ، والسغَبُ : الجوع ، والساغِبُ : الجائع ، قال أبو حَيَّان : وهو الجوعُ العامُّ ، وفسَّره ابنُ

عباس هنا بالجوع من غير قَيْد ، وفي الأثر : « مِن مُوجِبَات الرحمةِ إطعامُ المسلمِ السَّغْبان » .

﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي قَرابة ، والمَقْرَبة مَصدرٌ ميميٌّ كالمَسْغَبَة من قَرُبَ في النَّسب يقال : فلانٌ ذو قَرابتي ، وذو مَقْربتي بمعنىً ، وفي إطعام اليتيمِ ذي القَرابة جَمْعٌ بينَ الصَّدقة والصلةِ ، وفيهما من الثواب والأجْرِ ما فيهما ، والآيةُ تدلُّ على أن الصدقةَ على ذوي القرابةِ أفضلُ منها على غيرهم ، كما أنَّ الصدقةَ على اليتيم الذي لا كافلَ له أفضلُ من الصدقة على اليتيم الذي يجدُ مَن يكفلهُ ، وقد سُمِّيَ من مات أبواه يتيمًا لضعْفِه ، من قولهم : يَتَمَ فلانٌ يُتْمًا إذا ضَعُفَ .

﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أي لا شيءَ له ، حتى كأنه قد لَصِق بالتراب من الفقر ، ليس له مأْوىً إلا التراب ، وقد فُسِّر عن ابن عباس : بأنه ذو العيال ، وعن عكرمَة ، بأنه المدْيون ، وعن غيرهم : بأنه ذو الزَّمانةِ أي المرضِ العُضالِ الذي لا يُرْجَى بُرْؤُه ، وفي تفسيرٍ آخر لابن عباس : أنَّ ذا المَتْربةِ هو البعيدُ التُّربة ، يعني الغَريبَ البعيدَ عن وطنه .

وَمَتْرَبَة : مَصْدَرٌ ميميٌّ – أيضا – من تَرِب إذا افتقَر ، ومعناه : التصقَ بالتراب ، أي لشدَّة الفقر ، ومن الكلمات الجارية على ألسنة العربِ : تَرِبَتْ يَداكَ ، للتعبير عن شِدَّة الفقرِ والحاجةِ ، قال أبو عبيدةَ : يُقال للرجل إذا قَلَّ مَالُه : قد تَرِبَ ، أي افتقر حتى لصِقَ بالتراب ، ومن أقوالهم فى عكس هذا المعنى : أَتْرَبَ فلانٌ ، أي : استغنىٰ وصار ذا مالٍ ، والإتْرابُ : الاستغناءُ حتى يصيرَ مالُه مِثْلَ الترابِ كثرةً ، وفي المَثَل : « أَتْرَبَ فَنَدَحَ » ونَدَحَ يَنْدَحُ نَدْحًا : إذا وَسَّع ، ويُضْرَب هٰذا المَثَلُ لِمَن غَنِيَ فوسَّع عليه عيشَه ، وبَذَّر مالَه مُسرِفًا .

ثم إنَّ العبد الذي يَفُكُّ الرقبَة ، ويُطعِمُ اليتيمَ والمسكينَ ، ويُغيثُ ذا الحاجة ، ويُنفِقُ بسخاءٍ أيامَ المجاعة .. إن هٰذا العبدَ الذي يقوم بهٰذه الأعمالِ الجليلةِ لا يُعَدُّ مِمَّن اقتَحَم العقبةَ حتى يكونَ من الذين آمَنوا ، وأخلَصُوا ، وَصَدَّقُوا ، فإن شروطَ قبولِ الطاعاتِ : الإيمانُ بالله ، والتصديقُ بجميع الأنبياءِ والمرسَلين ، وبما جاءوا به ، فالإيمانُ بالله بعد الإنفاقِ لا يَنْفَعُ ، بل يجبُ أن تكونَ الطاعةُ مصحوبةً بالإيمان والإخلاص .

ولنتدبرْ قولَه تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي فَعَلَ هٰذه الأشياءَ واتَّصَفَ بهٰذه الأوصافِ الجميلةِ الطاهرةِ وهو مؤمنٌ بقلبه ، محتسِبٌ ثوابَ ذٰلك عند اللهِ عزَّ وجلَّ ، ثم بَقِيَ على إيمانه حتى الوفَاة ، كما قال تعالىٰ من سورة طه : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[1] .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحًا ، المتواصين بالصبر على طاعة اللهِ ، وبالصبر عن معاصي اللهِ ، وعلى ما أصابهم من البَلايا والمصائب ، وقد أوصَى بعضُهم بعضًا بالرحمة بالخلْق ، فالراحمون يرحمُهم الرحمٰنُ سبحانه وتعالى .. وهٰؤلاء هم أصحاب اليمين ، الذين يُؤْتَوْنَ كتبَهم بأيمانهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ لصِدْق إيمانهم ، وإخلاصِهم الطاعَة ، ورحمتهم اليتيمَ والمسكينَ ، وشفقتِهم على كلِّ ضعيف ، وتواصيهم بالصبر والرحمة .

أَمَّا الذين غَرَّتهم الدنيا ، وخدعتْهم الأمانيُّ ، وتعاونُوا على الشرِّ والفساد ، فهٰؤلاء هم المشائيمُ على أنفسهم ، هم أصحابُ الشمال ، الذين يأخذون

---

(١) آية : ٨٢ .

كتبَهم بشمائلهم من وراءِ ظهورهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي مُغلقَةٌ ، مُطْبِقة عليهم ، يقال أَوصدتُ البابَ وآصَدتُه : إذا أغلقتَه ، وأَصَدَ البابَ : أي أغلقَه ، فهي مطبقةٌ عليهم من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، لا تستقرُّ أقدامُهم على قرار أبدًا ، ولا تَغْمِضُ لأحدهم عينٌ أبدًا ، يومَ يُقال لهم : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[1] .

ولنسمع في وصفهم : ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[2] .

لقد عاشوا على الجحود ، ولم يشكُروا المنعمَ ، وأنكروا البعثَ ، فيا وَيْلَهم يومَ يقال لهم : ﴿ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3] .

ولنتدبَّر الأثرَ الذى ينقله ابنُ كثير عن أبي عمرو الجونى : « إذا كان يومُ القيامةِ أمَر اللهُ بكل جبَّار ، وكلِّ شيطان ، وكلِّ مَن كان يخافُ الناسُ في الدنيا شرَّه ، فأُوثِقُوا في الحديد ، ثم أُمِرَ بهم إلى جهنَّمَ ، ثم أُوْصَدوها عليهم ، أي أطبقُوها ، قال : فلا واللهِ لا تَستقِرُّ أقدامُهم على قَرارٍ أبدًا ، ولا واللهِ لا يَنْظرون

---

(١) المرسلات : ٢٩ : ٣٤ .

(٢) الواقعة : ٤١ : ٤٤ ، السَّموم : الريحُ الشديدةُ الحرارةِ تدخلُ المسام .
والحميم : ماء بالغ غاية الحرارة .
واليحموم : دخان شديد السوادِ أو نار .

(٣) الطور : ١٤ : ١٦ .

فيها إلى أَدِيمٍ أبدًا ، ولا واللهِ لا تلتقِي جفونُ أعينهم على غَمْضٍ أبدًا ، ولا واللهِ ، لا يذوقُون فيها باردَ شرابٍ أبدًا » رواه ابنُ أبي حاتم .

إنَّ أَصحابَ المشأَمة هم أصحابُ النار ، وأصحابُ الميمنةِ هم أصحابُ الـجنَّةِ الذين اقتحمُوا العقبةَ ، وغلَبُوا الهوىٰ والشيطانَ ، ولم تفتنْهم الدنيا ، بل جَعَلُوها مَعْبَرًا للآخرة ، ومزرعةً للباقية ، اللهم اجْعلنا من أهل النعيم .

* * *

٦٧- أ - فضائل وآداب عالية والتحذير من أكل لحوم الناس .

سورةُ الحجراتِ مدنيةٌ ، وهي ثماني عشرةَ آيةً ، وقد نزلت بعد سورةِ المجادلة ، وترتيبُها في المصحف بعد سورةِ الفتح ، إذ جاء ذِكْرُ قتالِ الكفار في سورة الفتح ، وفي الحجرات قتالُ البُغاةِ ، وتلك خُتمت بالذين آمنوا ، وهٰذه افتُتحت بالذين آمنُوا ، وتلك تضمنتْ تشريفاتٍ للنبى محمدٍ ﷺ خصوصا في مَطْلَعها ، وهٰذه أيضا في مَطْلعها أنواعٌ من التشريف له ﷺ ، من ذٰلك قولُه تعالى : بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ وهٰذه الآية تقرِّر أصلًا عظيمًا من أصول الإسلامِ وهو : أنَّ الحُكمَ لله وحده ، لا مُعقِّبَ لحُكمه ، وهو أحكمُ الحاكمين ، وقد أوجب على المؤمنين طاعةَ رسولِه محمدٍ ﷺ ، والأخْذَ عنه : ﴿ **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾[1] وجاء عن ابن عباس ﴿ **لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ أي لا تقولُوا خِلافَ الكتابِ والسنَّةِ ، فالرسولُ ﷺ مبلِّغٌ ومبيِّنٌ وطاعتُه طاعةٌ لله عزَّ وجلَّ ، فلا يجوزُ لأحد أن يقولَ بما فيه خلافُ الكتابِ والسُّنَّةِ ، أو أن يُعلِيَ رأيًا أو حُكمًا يخالفُ ما في الكتاب أو السنةِ ؛ قوليةً أو فِعليةً ؛ لأن الرسولَ ﷺ إنما يأمرُ عن أمرِ الله عز وجل : ﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أي اتقُوا اللهَ فيما أمركُم به ، وفيما نهاكُم عنه ، فهو سبحانه سميعٌ لأقوالكم ، عليمٌ بنيَّاتكم .

---

(١) النساء : ٨٠ .

وفي الحديث الذي أخرجه أحمدُ وبعضُ أصحابِ السننِ عن معاذِ بنِ جبل : « أن رسولَ اللهِ ﷺ قال له حين بعثَه إلى اليمن : « بِم تَحكُم ؟ » قال : بكتابِ الله قال : « فإن لم تَجدْ ؟ » قال : بِسُنَّةِ رسولِ الله . قال : « فإن لم تَجدْ ؟ » قال معاذ : أَجتهِدُ رأيي فضربَ النبيُّ ﷺ في صَدره ، وقال : « الحمدُ لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رسول الله » فتراه رضي الله عنه قد أَخَّر رأْيَهُ واجتهادَه إلى ما بعد الكتابِ والسنة ، ولو قَدَّمه قبل البحثِ عنهما لكان من باب التقديمِ بين يَدَي اللهِ ورسولِهِ .

ومن الأدب مع رسول الله ﷺ :

ومن الأدب الواجبِ في رعاية حقوقِ النبوة ، وجلالةِ مقدارِها ، وانحطاطِ سائر الرُّتَبِ وإن علَت عن رتبتِها أن يُخَاطَبَ النبيُّ بما شرَّفه اللهُ به مثل : يا نبيَّ اللهِ ، يارسولَ الله ، وألَّا يخاطَبَ باسمه : يامحمدُ ، يا أحمدُ . وأن يُخْفضَ صوتُ السائلِ المُسْتفهِمِ ، والمتحدِّثِ في مجلسه ، وعند مخاطبتِه ، وأن يكون الكلامُ بوقارٍ وأدبٍ ، وأن تخلُوَ مجالسُه ﷺ من اللَّغط والصخَب ، وإنَّ حُرمةَ النبيِّ ﷺ مَيِّتًا كحُرمته حيًّا ، وكلامَه المأثورَ بعد موتِه في الرِّفعة مثالُ كلامِه المسموعِ مِن لَفْظه ، فإذا قُرِئَ كلامُه ﷺ وجَب على كل حاضرٍ ألَّا يرفعَ صوتَه عليه ، ولا يُعرِضَ عنه ، كما كان يلزمُه ذلك في مجلسه عند تلفُّظِه ﷺ به ، فكلامُه ﷺ من الوحْي ، فَمَن فعل ذلك من أهل الإيمانِ فهو مِمَّن أثنَى اللهُ عليهم ، وجعَل في قلوبهم التقوىٰ والخوفَ منه سبحانه ، في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ .

هٰذه بعضُ الأحكامِ والآدابِ التي جاءت في صدْر سورةِ الحجرات ، وفيها تشريفٌ وتكريمٌ للنبى المصطفى ﷺ .

من آداب الأخوة :

وفي جانب العلاقاتِ بين أهل الإيمانِ جاء في السورة الكريمةِ الحثُّ على التمسُّك بمكارم الأخلاقِ ، والتحلِّي بمحاسن الآداب ، ودعت المؤمنين إلى تطهير النفوسِ من أسباب الشقاقِ والنزاع ، وحضَّت على كل ما من شأنه يحفظُ على المسلمين أُخوتَهم ، وتساندَهم ، وتعاونَهم ، وأمرتْ بالسعْي لإصلاح ذاتِ البَيْن ، والعملِ على رَأْبِ الصدْعِ ، وجمْعِ الشَّمل إذا نَشِب الخلافُ بين المؤمنين أو جماعتين منهم ، وأُوقِدت نارُ الحرب بينهم .

ومن الوسائل لتنقية النفوسِ من أسباب الشحناءِ والبغضاءِ ولدوام المحبةِ والأُلفةِ بين المؤمنين : أن يتثبَّتَ المسلمُ من الخبر الذي يصِلُه عن أخيه قبل الحُكمِ عليه ، وأن يُقَدِّمَ حُسْنَ الظَّنِّ بإخوانه على سُوءِ الظنِّ بهم ، وأن يتوقَّفَ في قبول الخبرِ عنهم حتى يقومَ الدليلُ ، وتنكشفَ الحقيقةُ ، ويتضحَ الأمرُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾أي فلا تتغير نفوسُكم ، ولا تُبادروا إلى العداوة ، حتى تتثبَّتوا ، وتتيقَّنوا ، وإياكم أن تَعتمدوا على قول فاسقٍ لاحتمال كذبِه ، إذ قد يترتَّب على قبول خبَرِه أن تتغيرَ النفوسُ ، وتنالوا من إخوانكم بالأذىٰ ، فإذا ظهرتْ لكم حقيقةُ الأمرِ نَدِمتم على ما فعلتم : ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ .

ثم أكَّد سياقُ السورةِ الكريمةِ على التحام الصَّفِّ ، وجمْعِ الكلمة ، وإزالةِ كلِّ الأسبابِ التي تُوهِنُ بناءَ الأمةِ الإسلامية ، أو تُضعِفُ من قوة العلاقةِ بينهم ، فإن اقتتلت جماعتان من أهل الإيمانِ وجَب أن يبادِرَ المسلمون إلى

الإصلاح ، ودعوتهما إلى حكم الله ، والرضىٰ به ، والتسليم لأمره سبحانه ، وأن يقومَ الصلحُ على الإنصاف والعدلِ ، وردْع الباغي حتى يرضىٰ بحكم الله ، ويتمَّ الصلحُ ، وتزولَ من النفوس بواعثُ الشقاقِ ، ودواعي القتالِ إذ المؤمنون إخوةٌ ، وانتماءُ المسلم إلى الإسلام أقوىٰ من انتمائه لجنس أو لوطن أو لقبيلة أو أُسرة ، وكأنَّ الإسلام كما جاء في أمثالهم وحِكَمهم البليغةِ أَبٌ لجميع المسلمين ، كما قال القائل :

أبي الإسلامُ لا أبَ لِي سِواه إذا افتخَرُوا بِقَيسٍ أو تَميم

وإذا كان الإسلامُ يُؤاخي بين مُعتنقيه ، فهو أيضا يُساوي بينهم مساواةً قلبية ، في التقدير والاحترامِ ، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه ، والحِفاظِ على الكرامة ، ورعاية أدب المعاملةِ وحقوقِ الأُخوة : فالمسلمُ لا يَحُطُّ من قَدْر أخيه ، ولا يحتقرُه ، ولا يَغُضُّ من شأنه ، ولا يبخسُ قدْره ، ولا يَعيبه بقولٍ ، ولا بإشارةٍ بيدٍ أو بعينٍ أو نحوهما ، ولا يُناديه باسمٍ يكرهُه ، أو صفةٍ تُنقِصُ من قدْره .

إنَّ العلاقةَ بين المسلمين قائمةٌ على دعائمَ نقيةٍ ، وفضائلَ عاليةٍ ، فالصغيرُ يوقِّرُ الكبير ، والمساوي يُحسن القولَ لمُساويه ويتواضعُ له ، والكبيرُ يرحمُ الصغير ، والقويُّ يحنُو على الضعيف ، ويرفقُ به ، والمسلمُ يحِبُّ لإخوانه ما يحبُّه لنفسه ، ويكرهُ لهم ما يكرهُه لها .

ولنتدبر من السورة الكريمة قولَه تعالى : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ، وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ، بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ** ﴾ .

هٰذه بعضُ القِيم الثابتةِ ، والفضائلِ العاليةِ التي تضمَّنتها سورةُ الحجراتِ لبناء الأمةِ على أُسسٍ متينةٍ ، وصقْلِ ضمائرِ أبنائِها ، وتأديبِهم ، وتوجيهِ قُواهم نحوَ الخيرِ ، وقمعِها عن الشرِّ والسوء ، وَرَدْعِها عن إلحاق الأذىٰ بالناس .

ثم جاء في السياق بعد ذٰلك أمورٌ عِظامٌ بالتمسك بها تنمو المودةُ بين المؤمنين ، وتزدادُ الروابطُ قوةً ، ويكونون أهلًا لرحمة الله ، عز وجل ، يقول سبحانه : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ والاجتنابُ : المقصودُ به التباعدُ ، والإثمُ : هو الذنبُ ، ولا شكَّ أنَّ إساءةَ الظنونِ بالناسِ إذا شاعت بين أبناءِ الأسرةِ الواحدة ، أو القريةِ ، أو المدينةِ ، أو الأمةِ ، فإنَّ ذٰلك يُؤدِّي إلى النفور والتباعدِ وتقطيعِ الأواصر ، ويمنعُ من التعاون ، ويؤدِّي إلى شرٍّ عظيم ، لذا نَهىٰ اللهُ عن كثيرٍ من الظن ، وهو التُّهمةُ والتخوُّنُ للناس في غير مَحِلِّه ، لأن بعضَ هٰذا الظنِّ يكونُ إثمًا وذنبًا مَحْضًا ، فَليُجتَنَبْ كثيرٌ منه احتياطا ، أي لا ينبغي لمسلمٍ أن يظنَّ بأهل الفضلِ ومستورِي الحالِ سُوءًا إن كان يعلمُ من ظاهر أمرِهم الخيرَ ، وإنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه ينصح فيقول : « ولا تظنَّ بكلمةٍ خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا ، وأنْتَ تَجِدُ لها في الخير مَحملًا » .

خصال مذمومة :

وقد نهىٰ الله عز وجل في الآية الكريمة عن التجسُّس ، فقال : ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُواْ** ﴾ وذٰلك أن الشخصَ يقعُ له خاطرُ التهمةِ ، فيحاولُ أن يتحقَّق فيتجسسَ ويبحثَ ، ويتسمعَ فنُهِي عن ذٰلك ، وإن مَحِلَّ التحذيرِ والنَّهْي إنما هو عن تهمةٍ لا سببَ لها يُوجِبُها ، كمن يُتَّهمُ بشرب الخمرِ – مثلا – ولم يظهرْ عليه ما يقتضي ذٰلك .

وقد جاء النهْيُ عن سوء الظنِّ بالمسلم ، وعن محاولة الكشفِ عمَّا سُتِر من أمره ، وعن الخصالِ التي تُؤدي إلى فساد ذاتِ البين ، وتقطيعِ الأواصرِ في الحديث الذي رواه أبو هريرة وأخرجاه ، ولفظُه في البخارى : « إيَّاكُم والظنَّ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث ، ولا تَحَسَّسُوا ، ولا تَجَسَّسُوا ، ولا تَنَاجَشُوا ، ولا تحاسَدُوا ، ولا تباغَضُوا ، ولا تدابَروا ، وكونُوا عبادَ اللهِ إخوانا » . ففي هٰذا تحذيرٌ من ظنِّ السوءِ بالمسلم السالمِ في عِرْضِه ودينه ، كالتهمة التي لا سببَ لها ، ولم تُعْرَفْ لها أمارةٌ صحيحةٌ ولا سببٌ ظاهر ، وذٰلك أن يكونَ المظنونُ به مِمَّن عُرف عنهم السترُ والصلاحُ ، وعُرفت عنه الأمانةُ في الظاهر ، فَظَنُّ الفسادِ به والخيانةِ مُحَرَّمٌ ، بخلاف المُجَاهرِ بالخبائث .

وكما حَرَّم الإسلامُ الاستهزاءَ بالناس ، والطعْنَ فيهم ، ومناداتَهم بألقابٍ تُؤذيهم ، وحَرَّم سوءَ الظنِّ بالمؤمن دون دليلٍ أو بُرهان ، وحرَّم البحثَ عن عيوب الناس ، وتَتَبُّعَ مساوئِهم ، فإنه حَرَّم – أيضا – أكْلَ لحوم الناس ، والنهشَ في أعراضهم ، وقبَّح هٰذا العملَ ، وضرَب له المَثَل لبيان بشاعتِه وسُوئِهِ ، قال عز وجل : ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا** ﴾ .

* * *

٦٨ ـ ب ـ كل المسلم على المسلم حرام .

في معنىٰ الغِيبَة :

لَفْظُ الغِيبَة : علىٰ وَزْنِ فِعْلَة بِكَسْر أوّ لِه ، من الفِعْلِ الثُلاثيِّ غَابَهُ : أيْ عَابَهُ ، وذَكَرَهُ بِما فيه من السُّوءِ ، كاغْتَابَه بمعَنىٰ : ذَكَرَ مِن وَرائِه عُيوبَهُ التي يَستُرها ويَسوؤُه ذِكْرُها ، ومن الفِعْل غَاب – أيضا – يَأتِي لَفْظُ الغَيْبَةِ على وَزْن فَعْلَة بفَتْحِ أوَّلِه ، وهو يدلُّ علىٰ البُعْدِ والتَّوارِي كالغِيابِ ، تقول : أَوْحَشَتْنِي غَيْبَةُ فُلان ، وقد أَطلْتَ غَيْبَتَكَ .

ومعنىٰ الغِيبَةِ في الشَّرع : أن تذكُرَ أخَاك بما يكرهُه ، كما بيَّنه النبيُّ ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرةَ ، وخرَّجه مسلمٌ في صحيحه قال : إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « أَتَدْرونَ ما الغِيبَةُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعلمُ ، قال : « ذِكْرُكَ أخَاك بِما يكْره » قِيل : أفرأيتَ إذا كان في أخِي ما أقول ؟ قال : « إن كانَ فيه ما تقولُ فقد اغْتَبْتَه ، وإنْ لم يكُنْ فيه فقد بَهَتَّهُ » .

وفي هـٰذا إرشادٌ إلى تحريمِ التحدُّثِ عن الشخص بما هو فيه إذا كان يَسُوؤُه ذِكْرُه ، فإذا تحدَّثتَ عنه بما ليس فيه فهـٰذا هو البهتانُ ، مِن بَهَتَ فلانًا بَهْتًا وَبُهْتَانًا وَبَهْتَةً : أي قَذَفَهُ بالباطِل ، وعابَهُ بما ليس فيه ، وقد قال الحسنُ : الغِيبةُ ثلاثةُ أوجُهٍ كلُّها في كتاب اللهِ وهي : الغِيبةُ والإفكُ والبُهتان ، فَأَمَّا الغِيبةُ : فهو أن تقولَ في أخيك ما هو فيه ، وأَمَّا الإفكُ : فأن تقولَ فيه ما بلغَك عنه ، وأَمَّا البهتانُ : فأَن تقولَ فيه ما ليس فيه ، وقال معاويةُ بنُ قرةَ : لو مَرَّ بك رجلٌ أقطعُ ، فقلتَ : هـٰذا أقطَعُ ، كان غِيبةً ، ومِثْلُ ذلك ذِكْرُ العَمَشِ ، أو الـقِصَرِ

والطُّولِ ، وذكر كلِّ وصْفٍ في البَدَن يَكْرهُه الشخصُ ، ومن الغِيبة أن يُعابَ الشخصُ بما يتصِلُ بنسَبِه أو خُلُقِه ، أو فِعْلِه ، أو قَوْلِه ، أو يُذْكرَ بنقْصٍ في دِينه ، أو في دنياه ، قالوا : حتى في ثَوبه ، ودارِه ، ودابتِه ، فلا يجوزُ أن يُتَحدَّثَ عن الشخص : بالبُخل ، أو بالكِبْرِ ، أو بالجُبن ، أو بالكذبِ ، أو بالسرقة ، أو بالخِسَّةِ ، أو يوصفَ بسوءِ الأدَبِ ، أو بكثرةِ الأكْل ، أو بكثرةِ نَوْمِه في غيرِ وقْتِه ، وغيرِ ذلك مِمَّا يُساءُ به إليه ، أوْ يَحُطُّ من قَدْرِه وَيُؤلمُه ، وبتحريم الغِيبةِ من كُل وَجْهٍ يصون الإسلامُ كراماتِ الناسِ ، ويمنعُ التباغُضَ ، ويكفُّ معتنقِيه عن الكشْف عَمَّا سَتَرَهُ اللهُ من عيوب الناس ، فيحيا الناسُ حياةً طيِّبَةً يحترِمُ بعضُهم بعضًا ، ويتآخَوْنَ في مَحبَّةٍ ومودَّةٍ وتعاوُنٍ .

وخَرَّجَ أبو داودَ : أن عائشةَ رضي اللهُ عنها قالت في صفيةَ بنتِ حُيَيّ إحدى زَوْجاتِه ﷺ : إنَّها قَصيرةٌ ، فقال لـها النبيُّ ﷺ : « لقد قُلتِ كلمةً لَو مُزِجَ بهـا البَحْرُ لَمَـزَجَتْهُ » وقال فيه الترمـذيُّ : حديثٌ حسَن صحيح ، رواه أبـو حذيفـةَ عن عـائشة .

وعند ابن حِبان والـحاكمِ وصححَه عن أبي هريرةَ : أن رسولَ اللهِ ﷺ ، ذُكِرَتْ له امرأةٌ وكثرةُ صلاحِها ، وصَوْمِها ، ولكنها تُؤذي جيرانَها بلسانها ، فقال عليه السلامُ : « هِيَ فِي النَّار » .

ويَنصحُ عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه فيقول : « إيَّاكُم وَذِكْرَ الناسِ فإنه داءٌ ، وعليكم بذِكرِ اللهِ فإنه شِفاءٌ » .

وقال عليُّ بنُ الحُسين رضِي اللهُ عنه : « إيَّاكَ والغِيبةَ فإنها إدامُ كِلابِ الناسِ » .

لقد حَرَّم الإسلامُ الغِيبَة ، ونَهَىٰ عنها ، وقد قبَّحها اللهُ عز وجل في كتابه ،

وصوَّرها بما تَنفِرُ منه الطباعُ المستقيمةُ، وتأباه العقولُ السليمةُ ، وَتُنكِرُه الأذواقُ الرفيعةُ ، لكي يَجتنِبَ العبادُ الغِيبةَ ، وتخلُوَ مجالسُ أهلِ الإيمانِ منها ، ولنتدبَّر قولَه تعالى : ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ .

تقبيح الغيبة :

فقد نهى اللهُ عزَّ وجلَّ عن اغتياب الناسِ ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا** ﴾ وَمَثَّلها بأكْل لحمِ المَيْتة : ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا** ﴾ لأن الميِّتَ لا يعلمُ بأكلِ لحْمِه ، ولا يَشعرُ به ، كما أنَّ الحيَّ لايعلمُ بِغيبةِ مَنِ اغْتَابَهُ حين يتحدَّثُ عنه .

قال ابنُ عباس : إنما ضَرَبَ اللهُ هٰذا المثلَ للغِيبة ، لأنَّ أكْلَ لحْمِ الميتِ حرامٌ مستقذَرٌ ، وكذا الغِيبةُ حرامٌ في الدين ، وقبيحٌ في النفوس .

وقال قتادةُ : كما يمتنِعُ أحدُكم أن يأكلَ لحْمَ أَخِيه ميْتًا كذٰلك يجبُ أن يمتنعَ من غِيبته حيًّا .

وفي الآية الكريمةِ تمثيلٌ لما ينالُه المغتابُ من عِرْضِ أخيه المُغْتابِ – أي المُتحدَّثِ عنه في غِيبته – على أفظعِ وجهٍ ، وأشنعِه طبْعًا وعقْلًا وشَرْعًا ، وفي هٰذا المثَلِ إيجازٌ وتصويرٌ رائعٌ ودقيقٌ ، مع الثَّراءِ في المعنىٰ ، وقوةِ التعبير ، وفيه أساليبُ شتَّىٰ تعاضدتْ للتنفير من الغِيبة ، والتحذيرِ منها ، من هٰذه الأساليبِ الاستفهامُ التقريريُّ : ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا** .. ﴾فمن المسَلَّم عند كلِّ سامعٍ أن أحدًا لا يُحِبُّ ذٰلك ، وإنَّ إسنادَ الفِعْل إلى أحدِكم يُؤذِنُ بأنَّ أحدًا مِن الأَحَدِينَ لا يفعل ذٰلك ، ولا يحِبُّه ، هٰذا إلى تعليقِ المحَبَّةِ بما هو في غايةِ الكراهةِ ، ثم تأمَّلْ : كيْف أنَّ التصويرَ في الآية

الكريمة لم يقتصرْ على تمثيلِ الاغتيابِ بأكلِ لحمِ الإنسانِ حتى جعل هٰذا الإنسانَ أخًا ، وكيف لم يقتصرْ على أكْل لحْم الأخِ حتىٰ جعَلَ المأكولَ ميتًا .

ولما قرَّرَ اللهُ عبادَه بأنَّ أحدًا منهم لا يُحب أكْلَ جِيفَةِ أخيه ، عَقَّب ذٰلك بقوله سبحانه : ﴿ **فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ أي إذا كنتم لا تُحبون أكْلَ لحْمِ الأخِ وهو ميِّتٌ بل تكرهون ذٰلك ، لأن النفسَ تعافُه ، ولا تقبلُه ، فاكرهُوا أن تَغْتابُوه وهو في حياته ، بل إنَّ واجِبَ الأُخوةِ يَقضي بصيانةِ عرضِه ، والحفاظِ عليه ، ورعايةِ الآدابِ الواجبةِ نحوَه .

والضميرُ المنصوبُ في قوله : ﴿ **فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ راجعٌ للأكْل أي : إنكم تكرهونَ أكْلَ لحْمِ الأخِ وهو ميِّتٌ وتعافونَهُ طبْعًا ، فلزِمَ أن تكرهُوا الغِيبةَ شرْعًا ، لِمَا في تمزيقِ الأعراضِ من شديدِ العقوبةِ ، وإنَّ تمزيقَ الأعراضِ والوقيعةَ في الناس يماثلُ أكْلَ اللحمِ بعد تمزيقِه في استكراهِ العقلِ والشرعِ له ، وقيل : الضميرُ يعودُ إلى اللحمِ أي : فكرهتُم هٰذا اللحْمَ لأنَّكم تعافونَهُ إذْ لا يَستقِيمُ في طبْعِ الإنسانِ العاقلِ حُبُّ تمزيقِ لحْمِ أخيه ليأكلَهُ ، بل إنَّه يكرهُه ولا يَرضاه ، فكذٰلك ينبغي أن يَكْرَهَ مِثْلَه مِمَّا هو مُتَّصِلٌ بالجوانب المعنويةِ في الأخِ كالكرامةِ ، والشرفِ ، والجُهدِ ، والمنزلةِ ونحوِ ذٰلك مِمَّا يَعِيبُه الانتقاصُ منها ، والطعْنُ فيها ، وَذَمُّه عن طريقها ، مُسَلِّطًا لسانَه على بعض أحوالِه لِيَعِيبَهُ أو يَغضَّ من شأنِه أو ليحقِّرَ جُهْدَه ، أو يُسْقِطَ مَنْزِلَتَه ، أو ينالَ من كرامتِه .

فَتأمَّلْ كيْف أَبرزَ هٰذا التصويرُ الأمْرَ ذا الأثرِ المعنويِّ في أعراضِ الناسِ في صورةٍ حسّيةٍ ذاتِ خطوطٍ ومعالمَ واضحةٍ ، مع صِدْقِ المماثلةِ بين المُمَثَّلِ به ، والممثَّلِ لَهُ ، إذْ يجمعُ بينهما أي بيْن أَكْلِ لحْمِ الأخِ الميتِ وغِيبَةِ الأخِ الحيِّ

يجمعُ بينهما قُبْحُ العَملِ ، وبشاعتُه ، وفظاعتُه ، وشناعتُه ، فكما أنَّ الطباعَ تكرهُ ذاك ، فكذلك ينبغي أن تَعافَ هـٰذا ، وهو التسلِّي بذِكْر الناسِ بما يكرهونَهُ ، شفاءً لنفوسٍ مريضةٍ ، وقلوبٍ عليلة .

إنَّ الأُخوةَ بين المسلمين تَقتضِي التراحُمَ ، والتناصُرَ فيما بينَهم ، وأَنْ يحفظَ المسلمُ أخاه ، ويصونَه عن الذمِّ والطعنِ والتنقيصِ ، وأن يَردَّ عنه ، وإنَّ الشخصَ الذي يَغتابُ الناسَ يكونُ على ضِدِّ مقتضياتِ هـٰذه الأخوةِ ، لأنه ينالُ من أخيه بلسانه ، أو بإشارةٍ منه لِيعيبَهُ ويَتنقَّصَهُ ، فَشُبِّه عملُه في تمزيقِ عرضِه وهو غائبٌ بتمزيقِ لحْمِه في حالِ غَيْبَةِ رُوحِه عنه بالموت ، وإنَّ الغائبَ عاجزٌ عن دفْعِ الغيبة عن نفسهِ بنفسه ، لذا مُثِّلَ بالميِّت الذي يُقطَّعُ لحمُه ، ولا يستطيعُ أن يدفَعَ عن نفسه ، وبهـٰذا التصويرِ الدقيقِ ، وتلك المعاني وغيرِها تُبَشَّعُ الغيبة ، وَيُقَبَّحُ عَمَلُ المغتابِ للتنفير من هـٰذه الخصلةِ السيئة .

وفي حُكم الغِيبةِ :

قال ابنُ كثير : والغِيبةُ مُحَرَّمةٌ بالإجماع ، ولا يُسْتَثْنَىٰ من ذٰلك إلا ما رَجَحَتْ مَصلحتُه ، كما في الجَرْح والتَّعديلِ والنصيحةِ ، وما جَرىٰ مَجْرَىٰ ذٰلك ، ثم إنَّ بقيةَ الغِيبةِ على التَّحريم الشديدِ ، وقد جاء في خُطبة الوداع : « إنَّ دماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حرامٌ كحُرمةِ يومِكم هـٰذا ، في شهرِكم هـٰذا ، في بلدكم هـٰذا » في البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس وغيره .

أَمَّا الجَرْحُ الذي أشَارَ إليه ابنُ كثير : فهو الطعنُ في رواي الحديثِ من ناحيةٍ أو أكثَر ، وهو متفَقٌ على جوازه تِبيانًا للواقع ، وكشفًا لحقائق الأشخاصِ الذين يتصدَّون لرواية الحديثِ الشريف ، ولا يُعتبَرُ هـٰذا اغتيابًا محرمًا لأن الغِيبةَ المنهيَّ عنها شرعًا هي ما كانت طعْنًا مجرَّدًا ، وذمًّا ، وتحدُّثًا عن الناس بما لا يرضَوْنه ،

مِمَّا لا تتوقَّفُ عليه مصلحةٌ شرعية .

وأمَّا التعديلُ : فهو التوثيقُ ، وهو اعتبارُ راوي الـحديث مقبولَ الروايةِ أي ثِقةً يُحْتَجُّ بروايته ونقْلِه ، وفي الجَرْح يُبَيَّنُ سببُه الموجبُ له ككون الرواي كذُوبًا ، أو ذا غَفْلةٍ ، أو ذا عقيدةٍ مُبتدَعَةٍ ، أو نحوَ ذلك مما يُضْعِفُ الثقةَ به . ومن قَبيل ذلك ما تقوله عند القاضي تستعينُ به على أخْذ حقِّك مِمَّن ظَلَمَك ، كأن تقولَ : فلانٌ أساء إليَّ في كذا ، أو لم يُعطني حقِّي في كذا ، فهـٰذا ونحوُه ليس من الغِيبة ، كما أن الفاسقَ الـمجاهرَ لا حَرَجَ في التحذير مِمَّا جَاهَرَ به ، وفي الأثَر : « مَنْ أَلْقَىٰ جلبابَ الحَياءِ فلا غِيبةَ له » .

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي اخْشَوا اللهَ فيما أمرَكم به ، ونهاكم عنه ، وراقِبُوه سبحانه ، وتُوبوا إليه توبةً نَصوحا ، فهو سبحانه رحيمٌ بمن رَجَع إليه نادمًا .

* * *

من سورة الفتح

٦٩-١- تشريف النبي صلى الله عليه وسلم والثناء على الصحابة .

قال الله تعالى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (٢٩) .

هٰذه الآيةُ الكريمةُ من سورة الفتح ، وهي من السُّور المدنيةِ ، نَزلت لَمَّا رَجع رسولُ اللهِ ﷺ من الحديبية في ذي القَعْدَةِ من سنةِ ستٍّ من الهجرة، حين حال المشركون بينه وبين الوصولِ إلى المسجد الحرامِ لأداء العُمرةِ ، ثم مالوا إلى المُصالحة والمهادنةِ ، وأن يَرْجِعَ ﷺ عامَهُ هٰذا ، ثم يأتِيَ من قابل ، فأجابهم إلى ذٰلك ، فَلمَّا نحَر هدْيَهُ حيث أُحْصِر في الحديبية ، ورَجع ، أنزل اللهُ عز وجل هٰذه السورةَ فيما كان مِن أمره ﷺ وأمرِهم ، وجعَل اللهُ عزَّ وجل ذٰلك الصلحَ فتحًا مُبينًا باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمرُ إليه ؛ قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

قال جابر : « ما كنَّا نَعُدُّ الفتْحَ إلَّا يومَ الحُديبية » نقله ابنُ كثير عن تفسير الطبري ، وقال ابنُ مسعود وغيرُه : « إنَّكم تَعُدُّون الفتْحَ فَتْحَ مكةَ ، ونحن نَعُدُّ الفتْحَ صُلْحَ الحُدَيبيةِ ، وجاء عند البخاريِّ عن البراء : تَعُدون أنتم الفتحَ فتْحَ مكةَ ، وقد كان فتحُ مكةَ فتحًا ، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضْوانِ يومَ الحُديبية .

وكان المسلمون في الحديبية أربعَ عشرةَ مائةً ، وبعد سنتين من هذا الصلحِ جاء النبيُّ ﷺ إلى مكةَ في عشرةِ آلافٍ ، قال الزُّهريُّ فيما تَرتَّب على صُلْحِ الحديبيةِ من أمْنِ الطريقِ ، وخُروجِ المسلمين إلى الناس يدعونهم إلى الإسلام ، قال : لقد كان الحديبيةُ أعظمَ الفتوحِ ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ جاء إليها في ألْفٍ وأربعمائةٍ ، فلمَّا وقَع الصلحُ مشى الناسُ بعضُهم في بعض ، وعَلِمُوا وسَمِعوا عن الله ، فما أراد أحدٌ الإسلامَ إلا تَمكَّن منه ، فما مضَت تلك السنتان إلَّا والمسلمون قد جاءُوا إلى مكةَ في عشرةِ آلافٍ .

قال ابنُ كَثير : ﴿ **فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ أي بَيِّنًا ظاهِرًا ، والمرادُ به صلحُ الحديبيةِ فإنه حصَل بسببه خيرٌ جزيلٌ ، وآمَنَ الناسُ ، واجتمع بعضُهم ببعض وتكلَّم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلمُ النافعُ والإيمانُ .

لقد كان فَرَحُ رسولِ اللهِ ﷺ بنزول سورةِ الفتحِ عظيمًا ، وتحدَّث إلى عمرَ كما في الصحيحين عن زيدِ بنِ أسلمَ عن أبيه فقال : « لقد أُنزِلت عليَّ الليلةَ سورةٌ لهِيَ أَحَبُّ إليَّ مِمَّا طلعَت عليه الشمسُ – ثم قرأ – ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** .. ﴾ واللفظُ للبخارى ، وقال الترمذىُّ : حديثٌ غريب صحيح . وعند مسلم عن أنس : « لقد أُنزِلت عَلَيَّ آيةٌ هي أَحَبُّ إليَّ من الدُّنيا جَميعًا » .

لقد تضمنت سورةُ الفَتْحِ التشريفَ للنبى محمد ﷺ والثناءَ على أصحابه رضوانُ الله عليهم، وما مَنَحهم اللهُ من الكرامة، فمن خصائصه ﷺ التي لا يُشارِكُه فيها غيرُه ما جاء في قوله تعالى: ﴿**لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ ، وهـٰذا فيه تشريفٌ عظيمٌ لرسول اللهِ ﷺ ، ولقد كان ﷺ في جميع أمورِه على الطاعة والبِرِّ والاستقامةِ التي لم ينلْها بشَرٌ سِواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو أكملُ البشرِ علىٰ الإطلاق ، وسَيِّدُهم في الآخرة ، ولقد كان

أطوعَ خلْقِ اللهِ للهِ وأكثرَهم تعظيمًا لأوامره ونواهيه ، وأخشاهم له ، فأكرمَه ربُّه ، وَمَنحَه خَيْرَي الدنيا والآخرة ، مَنحه : المغفرةَ ، وإتمامَ النِّعمةِ ، وهدايةَ الصراطِ المستقيم ، والنصرَ العزيز : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ﴾ .

غفر اللهُ له ماتقدَّم من ذنبه وما تأخَّر ، وأتمَّ نعمته عليه في الدنيا بالنبوة والحكمةِ ، وبخضوعٍ من استكْبَر ، وطاعةِ مَن تَجبَّر ، وفي الآخرة بالفوز بجنةِ النعيم ، فهو ﷺ أولُ مَنْ تُفْتَحُ له أبوابُ الجنة ، وقد هداه ربُّه صِراطا مستقيمًا ، وطريقًا لا عِوَجَ فيه ولا انحرافَ بما شرَعه له من الشرع العظيم ، والدينِ القويم ، وثبَّته بفضله على الهُدى إلى أن قَبَضَه إليه ، وبسبب طاعتِه وخضوعِه لأوامرِ اللهِ رفعَه اللهُ ، ونصَره على أعدائه : ﴿ **وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا** ﴾ أي غالبا مَنيعا لا يَتْبعُه ذُلٌّ .

ومن فضل اللهِ عزَّ وجلَّ على أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ أنْ جَعَل في قلوبهم الطمأنينةَ والسكونَ فازدادوا إيمانًا ويَقينًا مع إيمانِهم ويقينِهم ، قال تعالى : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ .

قال قتادةُ : أي الوقارُ في قلوب المؤمنين ، وهم الصحابةُ يومَ الحديبية ، الذين استجابوا للهِ ولرسولِه ، وانقادوا لحكم اللهِ ورسولِه ، فلمَّا اطمأنت قلوبُهم بذلك ، واستقرتْ زادهم إيمانًا مع إيمانهم .

وفي الآية الكريمةِ دليلٌ على تفاضُلِ الإيمان في القلوب ، وفيها البشارةُ بأنَّ اللهَ عزَّوجلَّ ينصرُ أولياءَهُ ، ويَكْبِتُ أعداءَهم ، وأنه سبحانه لو شاء لانتصر من

الكافرين والمعاندين ، وأرسل عليهم جُندًا من جنوده من الملائكة أو من الجنِّ أو مِمَّن يشاءُ من خَلْقه سبحانه ، ولكنه تعالىٰ شرع الجهادَ لعباده المؤمنين ، وأمرهم بالقتال ، لِمَا في ذٰلك من الحكمة البالغة ، والحُجَّة القاطعةِ ، والبراهينِ الدامغةِ : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي : ﴿ عليما ﴾ بأحوال خَلْقِه ﴿ حكيما ﴾ فيما يُريده .

ومن فضل اللهِ على أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ أَنْ وعدَهم جناتِ النعيم ماكثين فيها أبدًا مع تكفير السيئاتِ ، وغُفرانِ الذنوب فلا يُعاقبهم عليها بل يعفو بفضله ، ويصفحُ ، ويرحَمُ ، ويسترُ العيوب : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ أي نجاةً من كل غَمٍّ ، وظَفَرًا بكل مطلوب .

جاء في مسند الإمامِ أحمدَ عن أنسٍ – وفي الصحيحين – : قال : نزلَتْ علىٰ النبى ﷺ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مَرْجِعَه من الحديبية ، قال النبى ﷺ : « لقد أُنزلت عَلَيَّ آيةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا على الأرض » ثم قرأها عليهم النبىُّ ﷺ ، فقالوا : هَنيئا مَرِيئا يا نبىَّ الله ، لقد بيَّن الله عز وجل : ماذا يفعلُ بك ، فماذا يفعلُ بنا ؟ فنزلت عليه : ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

وقد أرسل اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ شاهدًا على الخلْق ومبشِّرًا لمن أطاعه بالجنة ، ونذيرًا ومخوِّفًا من النار لمن عصىٰ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

ثم جاء الخِطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ ولأمتِه في قوله سبحانه : ﴿ **لِتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوه وَتُسَبِّحُوه بُكْرَةً وأَصِيلًا** ﴾ إذِ الجميعُ مُطَالَبٌ بالإيمان بالله ، وبرسولِ اللهِ محمدٍ ﷺ ، وشَرَّف اللهُ نبيَّه ، فحثَّ المؤمنين على تعظيمِه ﴿ **وتُعزِّرُوهُ** ﴾ أي تُعظِّموه ، وتُفخِّموه ، وتُطيعوه ، كما حثَّ على توقيرِه واحترامِه ﴿ **وتُوقِّرُوهُ** ﴾ من التوقير وهو الإجلالُ والاحترامُ والإعظامُ ، والهاءُ في : ﴿ **وتُعَزِّرُوهُ وتوقِّرُوهُ** ﴾ للنبي ﷺ ، وهنا وَقْفٌ تامٌّ ، ثم يَبتدِئُ القارئُ ﴿ **وَتُسَبِّحُوه** ﴾ أي تُسَبِّحوا اللهَ عزَّ وجلَّ ﴿ **بُكْرَةً وأَصِيلًا** ﴾ أي أولَ النهارِ وآخِرَه ، والتسبيحُ : هو التنزيهُ له سبحانه من كلِّ قبيح واعتقادُ أنَّ لله كُلَّ صفاتِ الكمالِ ، وكلَّ نعوتِ الجلال والجمالِ ، وأنَّه منزهٌ عن كلِّ نقصٍ وعن مشابهةِ المخلوقين ، وعلى المؤمن أن يذكرَ اللهَ ويُسبِّحَهُ في كل وقتٍ ، وقد عُبِّر بطَرَفَيْ النهارِ عن اليوم كُلِّه ، وقد يُراد بقوله تعالى : ﴿ **وتُسَبِّحُوه** ﴾ إقامةُ الصلاةِ التي فيها التَّسْبيحُ .

وقيل : الضمائرُ كلُّها لله تعالىٰ في قوله : ﴿ **وَتُعزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ** ﴾ فعلىٰ هٰذا يكونُ تأويلُ ﴿ **وتُعَزِّرُوهُ وتوقِّرُوهُ** ﴾ أي تُثْبِتُوا له صحةَ الرُّبوبيةِ وتَنْفُوا عنه سبحانه أن يكونَ له ولدٌ أو شريكٌ ، وتنصروا دينَه ورسولَه ، إذ المرادُ بتعزيرِ اللهِ تعْزيرُ دينِه ورسولِه ﷺ ، فنُصْرَتُه سبحانه بنصرةِ دينِه ورسولِه .

ثم قال تعالىٰ لرسوله ﷺ تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ** ﴾ وفي هٰذا أيضا ثناءٌ علىٰ أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ الذين بَايَعُوه بالحديبية ، وجعل سبحانه بيْعَتَهم لرسوله ﷺ بيعةً لله عزَّ وجل ، لأن طاعةَ الرسولِ طاعةٌ لله ، كما قال سبحانه من سورة النساء ﴿ **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ** ﴾[1] .

---

(١) آية : ٨٠ .

وهـٰذه المبايعَةُ هي بيعةُ الرِّضْوانِ التي قال اللهُ فيها : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ .

هـٰؤلاء هم أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ الذين بايعُوا رسولَ اللهِ ﷺ تحتَ الشجرةِ على الـحرْب والقتال ، وهي بيعةُ الرِّضوانِ ، وكانـوا ألفًـا وأربعَمائـةٍ ولصِدْقهم وإخلاصِهم في مُبايعتِهم رضِيَ اللهُ عنهم ، وبشَّرهم رسولُ اللهِ ﷺ بقوله : « لا يدخلُ النارَ أحدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تحتَ الشجرةِ » .

كما جاء عند أحمدَ ومسلمٍ عن جابر .

* * *

٧٠-ب - خيرُ أهل الأرض .. وقد رَضِيَ الله عَنهمْ .

« أَنتم خيرُ أهلِ الأرْضِ » هـٰذه البشرى صَحَّت برواية الشَّيخين وغيرِهما قالها النبيُّ ﷺ في أولـٰئك المؤمنين الأبرار الذين بايعُوه ﷺ تحتَ الشَّجرةِ يومَ الحُديبيةِ بيْعَةَ الرِّضْوان ، وكفاهـم شرَفًـا ، وسُؤْدَدًا رِضَا اللهِ عنهم ، وثنـاؤُه سبحانه وتعالى عليهم في كتابه وعلى لسان رسولِهِ ﷺ ، وكان منهم أكابُر الصحابةِ أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ ، رضِيَ اللهُ عنهم أجمعين ، فوجب على كل مَن يَدَّعي الإِسلامَ حُبُّهم وتعظيمُهم والرِّضَا عنهم ، وإِن كان غيرَ ذٰلك لا يضرُّ الصحابةَ بعد رِضَا اللهِ سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾ .

وسببُ هـٰذه البَيْعةِ أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان قد بَعَث عثمانَ بنَ عفَّانَ وهو في الحُديبية سنةَ سِتٍّ من الـهجرةِ إلى أَهْلِ مَكّةَ وأشرافِ قريش يُخبرُهـم أنه ﷺ لم يأتِ لحربٍ ، وأنَّه إنما جاء زائرًا لهـٰذا البيت ، ومعظِّمًا لحُرمته ، فانطلق عثمانُ حتى أتىٰ أبا سفيانَ وعظماءَ قريش ، فبلَّغهم عن رسول اللهِ ما أرسله به ، ثم جاء خبرٌ إلى رسول اللهِ ﷺ أن عثمانَ قد قُتل ، فدعا ﷺ الناسَ إلى البَيعة ، فسار المسلمون إلى رسولِ الله ﷺ وهو تحت الشَّجرة ، فبايعُوه على الموت ، وعلى أَلَّا يفِرُّوا أبدًا ، فأرْعَب ذٰلك المشركين ، وأرسلُوا مَن كان عِندهم من المسلمين ، ودَعَوْا إلى المُوادَعَةِ والصُّلح ، وجاء عن ابنِ عمرَ : أن رسولَ اللهِ ﷺ بايعَ لعثمانَ ، فضَرب بإحدى يديْه على الأُخرىٰ ، وفي لفظٍ عن أنس : فكانت يدُ رسولِ اللهِ ﷺ لعثمانَ خيرًا من أيديهم لأنفسهم .

﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي عَلِم اللهُ سبحانه ما في قلوب الصحابةِ من الصِّدق والوفاءِ ، والسَّمْع والطاعة ، ومن الإيمان وَصِحَّتِه ، وحُبِّ الدينِ والحِرْصِ عليه ، فأنزل عليهم الطمأنينةَ والأمنَ وسكونَ النفس والربْطَ على قلوبهم بالتَّشجيع .

﴿ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو ما أَجرى اللهُ على أيديهم من الصلح بينهم وبين مُشركي مكةَ ، وما حصَل بذلك من الخير العامِّ المستمرِّ المتصلِ بفتح خيبرَ وفتحِ مكةَ ، ثم فَتْحِ سائرِ البلاد والأقاليمِ عليهم ، وما حصَل لهم من العِزِّ والنصرِ والرفعةِ في الدنيا والآخرة .

هٰذا بعضُ ما تضمَّنته سورةُ الفَتْح ، وبعضُ ما أثنىٰ به اللهُ عز وجل على أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ وبشَّرهم به في الدنيا ، كما بشَّرهم بالفوْز برضاه سبحانه ، ورِضاه لا يُعادِلُه شيءٌ ، وبفضل رضاه سبحانه يتحققُ لهم مالا يَخْطِرُ على بالٍ من النعيم والرَّوح ، وقد أنزل اللهُ سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين فامتلأت قلوبُهم أمنًا وطمأنينة ، وثبتت أقدامُهم في أشدِّ ساحاتِ القتال ، ووثِقُوا دَوْما بما وعد اللهُ به عبادَهُ الصالحين من النَّصْر والتأييد وظهورِ الحقِّ ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي عاشوا مُوحِّدين ، حتى لقُوا ربَّهم على كلمة « لا إلٰـهَ إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ » وهٰذا من أعظم نِعَمهِ سبحانه على العبد أن يوفقَه للاعتصام بكلمةِ الإخلاصِ التي يتَّقي بها الشرك ، فعاش على اليقين الصادقِ ، عاملًا بمقْتضىٰ كلمةِ « لا إلٰـه إلَّا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ » ومات على ذٰلك .

ولقد كان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أحقَّ بكلمة التوحيدِ والإخلاصِ لله في العمل ، وكانوا أهلَها إذْ هم أهلُ الخيرِ والصلاحِ وخصَّهم اللهُ عزَّ وجلَّ بصُحبة

نبيِّه ، والجهاد معه ﷺ ، قال تعالىٰ : ﴿ **إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ، فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ، وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا** ﴾ (٢٦) .

ثُمَّ بشَّر اللهُ المؤمنين بِنُصْرةِ الرسولِ ﷺ على عدوِّه وإظهارِ دينه على سائر الأديانِ ، وقد نَسَخَ ما عداه من الأديان السابقة ، فالإسلامُ هو الدينُ الحقُّ الذي يجب أن يُتَّبَعَ ، وقد اختار اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ ليحمِلَ إلى الناسِ كافةً رسالتَه التي خَتَمتِ الرسالاتِ ودينَه الذي نَسَخَ الأديانَ قبله : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا** ﴾أي كفى باللهِ شهيدًا لنبيِّه ﷺ ، وشهادتُه له تُبيِّنُ صِحَّة نُبوَّته بالمعجزات ، وتؤكِّدُ أنه رسولُه وناصرُه .

مَثَلهم فى التوراة والإنجيل :

وبعْد أنْ ذَكَر أنه أرسلَ رسولَه بالهُدىٰ ودينِ الإسلامِ ليُعلِيَ شأنَه على سائرِ الأديانِ ، خُتِمَت سورةُ الفتح ببيان حالِ الرسولِ والمرسَل إليهم ، وبالثناءِ على النبيِّ وأصحابِه ، وبيانِ مَثَلِهم في التوراة ، ومَثَلِهم في الإنجيل ، ومَا كانوا عليه من شريفِ الخصالِ ، وكريمِ الصفاتِ ، مِمَّا فيه ذِكرى لمن بعْدهم ، وعِبرةٌ لمَن كان له قلبٌ ، وعظةٌ للراغبين في الخير والازديادِ منه ، والترقِّي في مدارجِ الكمالِ الإنسانيِّ ، ولنتدبَّر قولَه تعالىٰ : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ** ﴾ .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أي إن محمدًا ﷺ رسولُ الله حَقًّا بلا شكٍّ ولا ريْبٍ مهما أَنكر الجاحدون ، وافترىٰ المنكرون ، و ﴿ محمدٌ ﴾ مبتدأ ، و ﴿ رسولُ اللهِ ﴾ خَبَرُه ، أَوْ أَنَّ الاسمَ الشريفَ خبرُ مُبتدأٍ محذوف أي : هُو محمدٌ الذي أرسلَه ربُّه بالهُدىٰ ودينِ الحقِّ و ﴿ رسولُ اللهِ ﴾ عطْفُ بيانٍ أو نعتٌ أو بدلٌ ، وجملةُ ﴿ مُّحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ استئنافٌ مبيِّن لِمَا قَبله وهو قولُه تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ ... ﴾ وهٰذا هو الوجْهُ الذي يُرجِّحه بعضُهم من وجُوه الإعرابِ الواردةِ عن المفسِّرين .

﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ أي أصحابُه ، وقال ابنُ عباس : هم أهلُ الحديبية ، وقيل المرادُ بهم « جميعُ المؤمنين » ، ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ مبتدأ ، و ﴿ أَشِدَّاءُ ﴾ خبرٌ أولُ ، و ﴿ رُحَمَآءُ ﴾ خبرٌ ثانٍ ، وأشداءُ جَمْعُ شديدٍ ، ورحماءُ جَمْع رحيم ، والمعنى : أَنَّ فيهم غلظةً وشدةً على أعداءِ الدين ، ورحمة ورقةً على إخوانهم المؤمنين ، وفي هٰذا ثناءٌ على أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ ، وما كان لهم من الخِصَال الشريفةِ ، والصفاتِ الجميلةِ منها شِدَّتُهم على المعاندين والمتعنِّتين ، وَلِينُ نفوسِهم وَرِفْقُهم ، وترحُّمُهُم فيما بينهم ، كما جاء في قوله تعالىٰ من سورة المائدة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾[1] .

---

(١) آية : ٥٤ .

فمع شِدَّةِ المؤمنِ مع أهلِ العنادِ والكفرِ نَجِدهُ رحيمًا بَرًّابالأخيار بشوشًا في وجْه أخيه المؤمن ، ولقد كان الواحدُ من السلف الصالح إذا رأى أخاه المؤمنَ ألقىٰ عليه السلام وصافَحَه ، وقد أخرج أبو داودَ عن البراءِ ، قال ، قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إذَا التقَىٰ المُسْلمان فَتَصَافَحَا ، وَحَمِدا اللهَ ، واستَغْفَراه غَفَرَ لَهُما » وفي رواية الترمذى : « مَا مِنْ مُسلِمَينِ يَلتقِيَانِ فيتصَافحَانِ إلَّا غُفِر لهُما قبْل أن يتَفَرَّقَا » وكان أبو ذرٍّ رضي الله عنه يقول – كما عند أبي داودَ – « ما لقيتُه قَطُّ – أي رسولَ اللهِ ﷺ – إلا صَافَحَنِي » . فالتراحمُ بين أهلِ الإيمانِ واجبٌ والتأسِّي بأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ في التشدُّد على مَن يُعادي دِينَهم وفى الرحمةِ بالمؤمنين هو ما يَليق بأهلِ الإسلام ، وينبغي لهم السيْرُ على هٰذا الطريقِ فَفِيه خَيرُهم وعِزُّهم في الدنيا ، وفوزُهم ونجاتُهم في الآخرة ، وعن ابنِ عمرَ كما عِند أبي داودَ وابنِ أبي شيبةَ : « مَن لَّمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنا ، ويَعْرِفْ حقَّ كبيرِنا فليْس مِنَّا » – وقد رفعُوه – ، وعند أحمدَ وغيرِه عن أبي هريرةَ قال : « سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول : لا تُنْزَعُ الرحمةُ إلَّا مِن شَقِيٍّ » . وقد قالوا : لا بأسَ بالبِرِّ والإحسانِ على عدوِّ الدينِ إذا كان في ذٰلك مصلحةٌ شرعيةٌ « ابن حجَر في فتاويه الحديثيةِ والنقل عن رُوْح المعاني » .

إنَّ المؤمنين في تعاضُدهم وتسانِدهم وتعاونِهم ، كالبنيان المرصوص ، وهم في التراحُم والتعاطُف والمودَّةِ كالجسَد الواحدِ إذا اشتكىٰ منه إصبعٌ ، اشتكى لذلك الجسدُ كلُّه ، وقد ضرَب الرسولُ ﷺ المثَلَ لبيان الصفةِ التي يجبُ أن يكونَ عليها أهلُ الإيمانِ في رحمة بعضِهم بعضًا ، ونُصْرةِ بعضِهم بعضًا فقال : « مَثَلُ المؤمنين فِي تَوادِّهم وتراحُمِهم كمثَل الجسدِ الواحدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعىٰ له سائرُ الجسدِ بالحمَّى والسهَر » أخرجاه في الصحيحين ،

وفي البخارى : « المؤمنُ للمؤمِن كالبنيانِ يشدُّ بعضُه بعضًا ، وشَبَّك - ﷺ - بيْن أصابعِه » .

إنَّ أهلَ الإيمانِ مع كونِهم أشداءَ على الأعداء ، فهم رحماءُ على الإخوان ، حلماءُ رقيقةٌ قلوبُهم ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .. وفي وَصْفهم بالرحمة بعد وصفِهم بالشدَّةِ تكميلٌ واحتراسٌ ، فإنه لو اكتُفِي بالوصف الأوَّلِ لربَّما تُوهِّمَت الفظاظةُ والغِلظةُ ، فَدُفِع هٰذا التوهُّمُ بإرداف الوصفِ الثاني ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ هٰذا في صِلَةِ المؤمنين بالناس مؤمِنهم وكافرِهم وفي علاقة بعضِهم ببعض ، أمَّا صلتُهم بخالقهم فقائمةٌ على الطاعة والإخلاصِ : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ .

* * *

٧١-ج - مثلهم في التوراة والإنجيل.

وصفت الآيةُ الكريمةُ في ختام سورةِ الفتح أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ بكثرة العملِ ، وكثرةِ الصلاة ، وهي خيرُ الأعمال ، ووصفتهم بالإخلاص فيها لله ، عز وجل ، والاحتسابِ عند اللهِ جزيلَ الثواب ، وهو الجنةُ المشتملةُ على فضل اللهِ ، وهو سعةُ الرزقِ عليهم ، وَرِضاه تعالى عنهم ، وهو أكبرُ وأعظمُ من الأول ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1] . قال تعالىٰ : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ والرؤيةُ هنا بصريةٌ ، والخطابُ لكل من تَتأتَّىٰ منه الرؤية و ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ حالٌ من المفعول به ، والمرادُ : تراهم مُصلِّين ، فقد عُبِّر بالركوع والسجودِ عن الصلاةِ لاشتمالها عليهما ، وفي التعبير بالفعل المضارع « تَرَىٰ » ما يُوحِي بالاستمرار أي بكثرة الصلاةِ منهم ، رضي اللهُ عنهم ، وهم يُؤدُّون العبادةَ رجاءَ عَفْو اللهِ ورِضَاه عنهم ، لا يريدون عُلوًّا في الأرض ولا سمعةً ورياءً ، بل ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي ثوابا وَرِضا .

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ .

والسِّيما : العلامةُ ، وجَاء : سِيمياءُ ، وسِيماءُ بمعنىٰ السِّيما وهي العلامةُ ، واشتقاقُها من السُّومَةِ بضمِّ أوَّلِهِ وهي العلامةُ تُجْعَلُ على الشاة ، والياءُ مبدلَةٌ من الواو ، و ﴿ سِيمَاهُم ﴾ مبتدأٌ ، خَبَرُه قوله تعالى : ﴿ فِي وُجُوهِهِم ﴾ أي كائنٌ أو مستقرٌّ في وجوهِهم ، وظاهرٌ عليها أماراتُ التهجُّدِ ، وعلاماتُ السهرِ والخشوعِ والخضوعِ والإخلاصِ ، أي أنَّ الصحابةَ رضِي اللهُ عنهم خَلَصت

---

(١) التوبة : ١٢٣ .

نياتُهم ، وحسُنَت أعمالهُم ، فكلُّ مَنْ نَظَر إليهم أعجبُوه في سَمْتِهم وهَدْيهم .

قال السُّدِّيُّ : الصلاةُ تُحَسِّن وجوهَهم ، وقال مجاهدٌ وغيرُه : الخشوعُ والتواضعُ ، وجاء في الأثر : « مَن كَثُرَتْ صلاتُه باللَّيلِ حَسُنَ وَجْهُه بالنَّهارِ » (رواه جابر كما في سُنن ابنِ ماجةَ والصحيحُ أنه موقوف) وفي أثرِ العملِ الصالحِ قال بعضُهم : إن للحسنةِ نُورًا في القلب ، وضياءً في الوجْه ، وسعةً في الرزق ، ومحبَّةً في قلوبِ الناس .

وقال أميرُ المؤمنين عثمانُ رضى اللهُ عنه : ما أَسَرَّ أحدٌ سَرِيرةً إلَّا أَبْدَاها اللهُ على صَفَحات وجْهِه ، وفَلَتَاتِ لسانِه .

والمقصودُ أنَّ الشيءَ الكامنَ في النفس يَظْهرُ على صفحات الوجْهِ ، فالمؤمنُ إذا كانت سريرتُه صحيحةً مع اللهِ أصلَح اللهُ ظاهِرَه للناس ، قال عمرُ رضى الله عنه : مَن أصْلَح سريرتَهُ أصلَح اللهُ علانِيتَه .

وفي الأثر : « ما أَسَرَّ أحدٌ سَرِيرةً إلا أَلبسَهُ اللهُ رِدَاءَها ، إنْ خيرًا فخَيرٌ ، وإنْ شَرًّا فشرٌّ » (عن جُندبِ بنِ سفيانَ البجليِّ كما عند أبي القاسم الطبراني ، ويرفعُه وفيه العرزميُّ متروك) .

وقال مالكٌ رضي الله عنه : بَلغني أن النصارى كانوا إذا رَأَوا الصحابةَ الذين فَتحوا الشامَ يقولون : (واللهِ لَهَؤلاء خيرٌ من الحواريِّين فيما بَلَغنا) وقد صَدَقوا في ذلك ، فإن هـٰذه الأمةَ مُعظَّمةٌ في الكتب المتقدِّمة ، وأعظمُ هـٰذه الأمةِ وأفضلُها أصحابُ رسولِ اللهُ ﷺ ، وقد أثنى اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهم في الكتُب المنزَّلة ، والأخبارِ المتداولَةِ ولهـٰذا قال سبحانه بعد أنْ وصفَهم بالخشوع والخضوعِ وكثرةِ الصلاةِ والإخلاصِ قال : ﴿ **ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ** ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ : إشارةٌ إلى ماذُكِر من نُعوتهم الـجليلةِ وصفاتِهم الـجميلة .

﴿ مَثَلُهُمْ ﴾ : أي وَصْفُهم العجيبُ الشأنِ الـجاري في الغرابة مَجْرَىٰ الأمثالِ أي هـٰذه الصفةُ التي وُصِفَت لكم من صفات أتباعِ النبيِّ محمدٍ ﷺ هي صفتُهم في التوراةِ التي أُنزِلت على موسىٰ بنِ عمرانَ عليه السلام .

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وهـٰذا المَثَلُ ضَرَبه اللهُ عزَّ وجلَّ لأصحاب النبيِّ ﷺ يَعني أنهم يكونون قليلًا ثم يَزدادون ويكثُرون ، فكان النبيُّ ﷺ حين بدأ بالدعاءِ إلى دينِه ضعيفًا ، فأجابه الواحدُ بعدَ الواحدِ حتى قَوِيَ أمرُه ، مَثَلُهم في ذلك مَثَلُ الزرعِ يبدو بعد البذْرِ ضعيفًا فَيَقْوَىٰ حالًا بعد حال حتى يَغْلُظَ نباتُه وأفراخُه ، فكان هـٰذا – كما يقول القرطبي – من أصحِّ مَثَلٍ وأقوىٰ بيان .

وقال قتادةُ : مَثَلُ أصحابِ محمدٍ ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنه سيخرجُ من قوم يَنبتُون نباتَ الزرْعِ يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر .

﴿ وَشَطْـَٔهُۥ ﴾ يَعني فِراخَه وأولادَه ، قال الجوهري : شطءُ الزرعِ والنباتِ فراخُه ، والجمعُ أشطاءٌ ، وقد أشطأَ الزرعُ خرج شطوُه ، وقيل : إنه السُّنْبُلُ فيخرجُ من الـحبَّة عشرُ سُنبلاتٍ وتسعٌ وثمانٍ ، قاله الفرَّاء ، وفي البحر : أشطأَ الزرعُ أفرخَ ، والشجرةُ أخرجت غصونَها .

﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أي قوَّاه وأعانَه وشدَّه ، أي قوَّىٰ الشطءُ الزرعَ . وقيل بالعكس أي قوَّى الزرعُ الشطءَ ، قال الراغبُ : وأصلُه من شَدِّ الإزارِ ،

يُقال : أَزَرْتُه أي شددتُ إِزَارهُ ، ويقال : آزرتُ البنـاءَ وأُزرتـه ، أي قَوَّيت أسافِلَه ، وتَأَزَّرَ النباتُ : طال وقَوِي .

﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ أي شبَّ وطالَ ، وصار من الدقةِ إلى الغِلَظ .

﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾ أي على عُوده الذي يقوم عليه فيكون ساقًا له ، والسُّوق جَمْعُ السَّاق .

﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أي يُعجِب هـٰذا الزرعُ زُرَّاعَه يعني بقوته وكثافتِه وَغِلَظِه وَحُسْنِ منظرِه ، وَخُصَّ الزرَّاعُ بالذكر لأنه إذا أَعجب الزرَّاعَ وهم يَعرفون عيوبَ الزرع ، فهو أحرىٰ أن يُعجِب غيرَهم ، وهنا تَمَّ المثَل .

قال الضحاك وغيرُه : فالزرعُ محمدٌ ﷺ ، والشطْءُ أصحابُه ، كانوا قليلًا فكثُروا ، وضعفاءَ فَقَوُوا .

وقال آخرون : هو مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ تعالى للصحابة ، رضِيَ اللهُ عنهم ، قَلُّوا في بدْءِ الإسلامِ ثم كثُروا ، واستحكَمُوا ، فترقَّى أمرُهم يومًا فيومًا بحيث أَعْجَبَ الناسَ .

وفي توضيح هـٰذه الصورةِ البديعةِ التي قرَّبت المعْنى ، وجعلتْه جليًّا بيِّنا . قال صاحبُ الكشَّاف : هو مثَلٌ ضَربه اللهُ تعالى لبدءِ مِلَّة الإسلامِ وَتَرقِّيه في الزيادة إلى أنْ قَوِيَ واستحْكَم ، لأن النبيَّ ﷺ قام وَحْده ، ثم قوَّاهُ اللهُ تعالىٰ بِمَن معه كما يُقَوِّي الطاقةَ الأُولى ما يحتَفُّ بها مِمّا يتولَّد منها ، وظاهُره أن الزرعَ هو النبيُّ ﷺ ، والشطْءَ أصحابُه ، رضِي اللهُ تعالىٰ عنهم ، فيكون مَثَلًا له عليه السلامُ ، وأصحابِه لا لأصحابه فقط كما في المثَل الأول .

وعن ابن كثير : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ أي : فكذلك أصحابُ محمدٍ - ﷺ - آزروه

وأيَّدوه ونصَرُوه فهم معه ﷺ كالشطْء مع الزرع .

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أي : إنه سبحانه وتعالى فعَل هٰذا لـمحمد ﷺ وأصحابِه إذ نمَّاهم سبحانه وتعالى وأكْثَرَ عَدَدَهم وثبَّتهم ونصَرهم ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ إذ يعتقِدون أن اللهَ مُتِمٌّ بهم نُورَه ، ولو أَبَىٰ الـجاحدون .

فتأمَّل – ياذا اللب – أوصافَ الأمةِ الإسلاميةِ أيام عِزِّها ، وانظُر إلى هٰذه الصورةِ الرائعةِ الواضحةِ الـخطوطِ والمعالِمِ صُورةِ الزرعِ النامِي الناجحِ المبهج بخضرته وكثافتِه وتحوُّلِه من الدِّقَّةِ إلى الغِلَظ واستقامتِه على أصوله ، وقد آتَىٰ أُكُلَه ، وسرَّ جمالُه قلوبَ أصحابِه ، وتأمَّل أمةً قوِيَ إيمانُ أهْلِها ، واستقامت أخلاقُهم ، والتحمت صفوفُهم ، وأطاعوا قائِدَهم ، وأَوْفَوْا بعهودِهم ، وتعاونُوا على البرِّ والتقوىٰ ، وتعَلَّموا وعَلَّموا ، وثبتَت أقدامُهم في ساحات الشرَف ، وميادينِ الوغَىٰ وكانوا رُهبانًا بالليل ، فرسانًا بالنهار ، وسعَوا لتخليص الناسِ من الزَّيْغ والإلحادِ والجهلِ والكفرِ والفسادِ وهم على قلب رجلٍ واحد ، وقد تعاطفُوا وتراحمُوا وتساندُوا وتعاضدُوا وهم دومًا مع الـخير والهُدى ، أعداءٌ للشرِّ والضلال ، إنها الأمةُ التي تأدَّبت بأدبِ القرآنِ الكريم ، واقتدت بالنبي محمدٍ ﷺ .

تَدَبَّر حالَ أمةِ الإسلامِ في أيَّام عِزِّها ، ثم تأمَّل فيما أصابها من التخاذُل ، والتفكُّك ، والـجهلِ ، والخمولِ ، يَشْمَت فيها العَدوُّ الحاسدُ وقد صارت كزرْع هشيمٍ تذْرُوه الرياحُ بسبب البُعْد عن مصادر قوتِها ، والبُعدِ عن كتاب اللهِ وسنةِ الـحبيبِ الهادي ﷺ مع غلبةِ الأهواءِ وكثرةِ التنازعِ ، والتقليدِ الأعمىٰ .

تأمَّل ، وقُل : لعَلَّ اللهَ يُبَدِّلُ الـحالَ غيرَ الـحال ، ويَخْضرُّ الزرعُ بعد ذُبولِه ، وتعودُ الأمَّةُ الإسلاميةُ سيرَتَها الأولىٰ مرهوبةَ الجانبِ ، مخشيةَ القوةِ ، تَحْمِل

مشاعلَ الـهدايةِ والعلمِ النافعِ وتحمل العدلَ والسلامَ والإخاءَ إلى الناس في كلِّ مكان .

لقد أنعم اللهُ تعالىٰ على أصحاب محمد ﷺ، ووعَدهم مغفرةً لذنوبهم، وثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا هم وَمَن اقْتَفَىٰ أثرهَم فقال : ﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ وَمِنْ هُنا : لبيان الـجنسِ وليست للتبعيض فكلُّ الصحابةِ خيارٌ ولهم الفضلُ والسبْقُ إلى كل مَكرُمةٍ رضِي اللهُ عنهم وأرضَاهم ، ويكفيهم ثناءُ اللهِ عليهم ورضاه عنهم .

﴿ **رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[1] .

* * *

(١) الحشر : ١٠ .

من سورة النحل

٧٢ - ١ - تقرير أمر التوحيد بأبلغ الأمثال.

جاء الدينُ الإسلاميُّ بالوحدانية المطلقةِ ، فلا يَقْبلُ من العبد أن يعبدَ غيرَ اللهِ ، أو أن يُشرِكَ به شيئًا ، كما لم يقبلْ الإسلامُ من المؤمن أن يعتمدَ على غيرِ الله ، أو أن يشرِكَ مع اللهِ أحدًا في تصريف الشؤونِ وتقديرِها ، وقَدَّم لنا القرآنُ الكريمُ كثيرًا من الأدلة العقليةِ ، والشواهدِ الكونيةِ القاطعةِ بوحدانية اللهِ تعالى ، وربوبيته .

وفي سورة النحلِ نعى اللهُ عزَّ وجلَّ على هـٰؤلاء الذين يتخِذُون لله شريكًا ، ويُقدِّمون العبادةَ أَوْ شيئًا منها لغير اللهِ عزَّ وجل ، وهـٰؤلاء الشركاءُ لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ، فقال سبحانه : ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ** ﴾ .

إنَّ المستحِقَّ للعبادة هو الخالقُ الرزَّاقُ الوهَّابُ المنعِمُ المتفضِّلُ ، وهو اللهُ الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي له – سبحانه – كمالُ القدرةِ وكمالُ العظمةِ ، وكمالُ السلطانِ ، وبيده وحده الصحةُ والمرضُ ، والحياةُ والموتُ ، والغِنىٰ والفقر : ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ** ﴾[1] .

فكيْف يُعْبَدُ غيرُه سبحانه ؟ كيف يُعبد مَن لا يملكُ مع اللهِ شيئا ؟ إنَّ الآلهةَ

---

(١) هود : ٦ .

التي تُعبد من دون اللهِ لا تَقدِرُ على إنزالِ مطرٍ ولا على إنباتِ زَرْعٍ ولا شجرٍ ، ولا تملكُ ذلك ولا تَستطيعهُ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

﴿ مِن السَّمَٰوات ﴾ يعنى المطرَ ﴿ والأرضِ ﴾ يعني النباتَ ﴿ شيئًا ﴾ قال الأخفشُ : هو بدلٌ من ﴿ رِزْقًا ﴾ وقال الفَرَّاء هو منصوبٌ بإيقاعِ الرزقِ عليه ،أي يعبدون مالا يَملك أن يرزقَهم شيئًا ﴿ ولا يَستطِيعُون ﴾[1] أي ليس لهم ذلك ، ولا يَقدرون عليه لو أرادوه ، يعني الأصنامَ والأندادَ التي يتخذُها أهلُ الضلال آلهةً من دون الله، ولهذا نهىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ عن أن يُشَبَّهَ به سبحانه هذه المخلوقاتُ ، لأنه واحدٌ قادرٌ لامِثْل له ، ولْنتدبرْ : ﴿ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[2] أي لاتَجعلوا لله أندادًا وأشباهًا وأمثالًا ، وورد عن ابن عباسٍ في الآية ؛ يقول سبحانه : لا تَجعلوا معِيَ إلَهًا غَيري ، فإنه لا إلٰهَ غيري .

ثم أنذرت الآيةُ من يَطوِي قلبَه على الشركِ فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] أي إنه سبحانه يعلمُ ويشهدُ أن لَّا إلٰهَ إلا اللهُ ، وأنتم بجهْلِكم تُشرِكون به غيرَه ، وهو سبحانه مُعاقِبُكم على الشرك أشدَّ العقابِ وأعظمَه ، فكيف يتجاسرُ عاقلٌ على الشرك ويجعلُ لله نِدًّا ؟ .

ثم ضرب اللهُ عزَّ وجلَّ في سورة النحلِ لتقرير قضيةِ التوحيدِ مَثَلَيْن قِيَاسِيين يَهتدِي العِقلُ بهما إلى أنه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله ، فقال جل شأنُه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ

---

(١) الآية : ٧٣ .

(٢) الآية : ٧٤ .

سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٧٥ و ٧٦ .

إن المتدبرَ في « سورة النحل » يجدُها تثيرُ قضيةَ التوحيدِ أمام أهلِ العقلِ والحكمةِ بمنطقٍ سليمٍ لا تَكَلُّفَ فيه ، وتَعْرِضُ الدَّعوى مصحوبةً بأدلتها وبشواهدها في أسلوبٍ حكيمٍ مشرقٍ يفتحُ أبوابَ القلوبِ المغلَقَةِ ،وينفُذ إلى أعماقِ النفسِ ، فيزيلُ كُلَّ شُبهة ، ويُنير القلبَ بالإيمان الصحيح .

والأدلةُ التي أقامها اللهُ عزَّ وجلَّ على وحدانيته في سورة النحلِ تتعلَّقُ في جملتها بالخلْق والرزقِ والتدبيرِ والقصْدِ في الأمور .

فقد نَزَّه سبحانه وتعالى في صدر سورة النحل نفسَه عن شركهم به غيرَهُ ، وعن عبادتهم معه ما سِواهُ من الأوثان والأندادِ تعالىٰ وتقدَّس عُلوًّا كبيرًا : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1] ، ثُمَّ أخبرَ سبحانه أنَّه أنزل الملائكةَ بالوحْي على مَن اصطفاهم من عباده واختارهم للنبوة لتحذير الناسِ من عبادة غيرِ الله ، وتخويفِهم من الشرك ، وحَثِّ العباد على عبادة الله وحده : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[2] .

أي فاتَّقوا عُقوبتي لمَن خالَف أمري وعبَد غيري .

ثم نَزَّه سبحانه نفسَه عن شرك مَن عَبَدَ معه غيرَه ، وهو سبحانه المستقلُّ بالخلْق

---

(١) النحل : ١ .

(٢) النحل : ٢ .

وحده لا شريكَ له ، فلهـٰذا يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَدَ وحْدَه لا شريكَ له ، وأماراتُ وحدانيتِه وكمالِ قدرتِه ظاهرةٌ في خلْقِ السمـٰواتِ والأرضِ ، فكيف يُجْعلُ له ولدٌ أو شريكٌ أو نِدٌّ : ﴿ **خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾[1] أي مِن هـٰذه الأصنامِ والـمخلوقاتِ التي لا تَقْـدِرُ على خَلْـق شيء .

ثم نَبَّه سِياقُ سورةِ النَّحل على خَلْق جِنْسِ الإنسانِ من نُطْفَة ضعيفةٍ مَهينةٍ ، فلمَّا استقلَّ ودَرَجَ إذا هو يُخاصم ربَّه ، ويحارب رسلَه ، والإنسانُ إنما خُلِق ليكـونَ عبْـدًا لا ضِدًّا : ﴿ **خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾[2] .

ثم امتنَّ اللهُ على عباده بما خَلَق لـهم من الأنعام ، وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ ، وبما جعل لـهم فيها من المنافع والمصالح ، كما لفَت السياقُ العبادَ إلى الـخيل والبغالِ والـحميرِ التي جعلها اللهُ للركوب والزينةِ ، وذلك أكبرُ المقاصدِ منها ، كي يتفكَّرَ العبادُ في هـٰذه الـمخلوقات وما فيها من آياتِ الرحمةِ ، وبراهينِ القدرةِ حتى لا يَحِيدوا عن الطريق المستقيمِ إلى البدع والأهواءِ والضلالِ ، بل ينبغي لأهل العقلِ والحكمةِ أن يَلْزموا طريقَ الأنبياءِ والمرسلين ، وأن يتمسكوا بدين الإسلامِ الذي بَيَّنَهُ اللهُ لعباده ، وأرسل به رسولَه محمدًا ﷺ ، وإلى ذلك أشار السياقُ من سورة النحل : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ** ﴾ أي على الله بيانُ قصْدِ السبيلِ ، فَحُذِفَ المضافُ وهو البيانُ ، والسبيلُ : هو الإسلامُ ، أي على اللهِ بيانُه بالرسلِ والحُجج والبراهين .

قال مجاهدٌ : ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ أي طريقُ الـحقِّ على الله وجاء

---

(١) النحل : ٣ .

(٢) النحل : ٤ .

عن ابنِ عباس : وعلى اللهِ البيانُ ، أي : تَبْيينُ الهُدىٰ والضلالِ وإنَّ كلَّ الطُّرُقِ ما عَدا طريقَ الإسلامِ مسدودةٌ وإن الأعمالَ فيها مردودةٌ ، أما الطريقُ التي شَرَعها اللهُ وَرَضِيَها لعباده فهي طريقُ الحقِّ والإسلامِ مَن لَزِمَها واستقامَ عليها كان أهلًا لرحمة اللهِ عزَّ وجلَّ ، ولهٰذا نَبَّه اللهُ عزَّ وجلَّ عبادَهُ إلى الطرقِ التي حادتْ ومالتْ عن الحق حتى يَجتنبوها فقال : ﴿ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ﴾ وهي الأهواءُ والآراءُ المتفرقةُ كاليهودية والنصرانيةِ والمجوسيةِ ونحوِها .

ثم لفتتْ سورةُ النَّحلِ العبادَ إلى براهينِ القدرة ، ودلائلِ الرحمةِ في بعض المخلوقاتِ كإنزالِ المطرِ من السماءِ وإحياءِ الأرضِ بالزروع ، وتسخيرِ الليلِ والنهار ، والشمسِ والقمرِ والنجومِ ، وما ذَرأَ سبحانه وبَثَّ في الأرض من الأمور العجيبةِ ، والأشياءِ المختلفةِ من الحيوان والمعادنِ والنباتاتِ والجماداتِ على اختلاف ألوانِها وأشكالِها ، وما فيها من المنافع والخواصِّ مِمَّا فيه آياتٌ لقوم يتفكَّرون فيما تدلُّ عليه هٰذه المخلوقاتُ من وجود الخالقِ الحكيم ، وما فيها من دلالات لذوي العقولِ على قدرته الباهرةِ ، وسلطانِه العظيم ، ورحمتِه الواسعة ، وفضلِه وإحسانِه على العباد مِمَّا يُوجِبُ على الناس شُكْرَ المنعم ، وطاعتَه ، والانقيادَ لأمره سبحانه .

ثم لفتت الآياتُ إلى تسخير البحرِ وتذليله للعباد وما فيه من المنافع التي تَجِلُّ عن الحصْر ، والآياتِ والبراهينِ الناطقةِ بوجود المدبِّرِ الحكيمِ وكمالِ حكمتِه وسلطانِه ، ونقلت الآياتُ المتدبِّرَ من البحر المتلاطمِ الأمواجِ وتسخيرِه إلى الجبال الرواسي التي بها سكنت الأرضُ فلا تَضطربُ بما عليها فلا يهنأُ للناس عيشٌ بسبب ذٰلك وكما ألقىٰ سبحانه في الأرض رواسيَ أن تَميدَ بساكنيها جعل فيها أنهارًا تَجري من مكان إلى مكان آخرَ تَحمِل الخيرَ وأسبابَ النماء والحياةِ إلى مَن

يعيشون حولَها ، وجعل فيها سبلًا وطرقًا يُسلَكُ فيها من بلادٍ إلى بلاد ، وجعل في الأرض علاماتٍ تَهدي المسافرين وأماراتٍ يَستدلون بها برًّا وبحرًا إذ ضلُّوا الطَّريقَ كالجبال والآكامِ ونحوِها ، وفي ظلام الليلِ يَهتدي الناسُ بالنجوم .

هٰذه بعضُ آياتِ اللهِ في الكون تدعو سورةُ النحلِ إلى التأمُّل فيها ، وتدبُّرِ عجائبِها ، للاهتداء عن طريق التأمُّلِ والتدبُّر والتفكُّرِ إلى الإقرار بوجود الخالقِ ووحدانيتِه وشكرِه على نِعَمِه .

وبعد أن نبَّه اللهُ عزَّ وجلَّ العبادَ إلى هٰذه الآياتِ ، وتلك النعمِ وَضَعَ العقْلَ السليمَ أمامَ مسؤوليتِه في إقرار الحقِّ ، وإنكارِ الباطلِ ودعاه إلى العظةِ والاعتبارِ ، والنظرِ ، ونبَّهَه إلى أنَّه لا تنبغي العبادةُ إلا لله وحْده دون ما سِواه من الأوثان والأندادِ التي لا تخلُق شيئًا ولا تخلُق نفسَها ، بل هم يُخْلَقُون فقال جل شأنه : ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[1] .

ثم نَبَّه العبادَ إلى سُخفِ الالتجاءِ إلى غير اللهِ بالدعاء والتضرُّع وأنَّ هٰذا أمرٌ قَبيحٌ غايةَ القُبْحِ لا يَليقُ بذوي العقولِ ، فقال : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾[2] .

فسُبْحانَ مَن بِيَدِه الأمرُ كلُّه ...

* * *

(١) النحل : ١٧ .
(٢) النحل : ٢٠ و ٢١ .

٧٢ ـ ب ـ هل يستويان مثلاً .

ساقت سورةُ النَّحلِ كثيرًا مِن الحجج القاطعةِ ، والبراهينِ الساطعةِ على وجود اللهِ عزَّ وجلَّ ووحدانيتهِ وكمالِ رحمتِه وقدرتِه ، ولفتت الآياتُ في هٰذه السورةِ الكريمةِ الناسَ إلى أن يُفكِّروا في الخلْق ، وأن يَستدِلُّوا بالمصنوعات على وجودِ الصانع ، وإلى أن ينظُروا إلى ما أمامَ أعيُنِهم من النِّعم الكثيرةِ المتنوعة ، فاللهُ عزَّ وجلَّ وحْده هو واهبُ النِّعمِ ، وإن عجائبَ المخلوقاتِ ، وتَعدُّدَ منافعِها مِمَّا يَهْدِي العقلَ إلى الإيمان بأَنَّ خالِقَ ذٰلك له كمالُ الحكمةِ ، وكمالُ التَّدبيرِ ، وكمالُ السلطان ، وهو إلٰهٌ واحدٌ لا شريك لهُ ولا نِدَّ ولالَدَ ولا صاحبةَ : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ** ﴾[1] .

مَن الذي أَوحىٰ إلى النَّحْلِ بنظام الجماعةِ ، ونظامِ العملِ وتوزيعِه ، واتخاذِ البيوتِ المناسبةِ ، ويسَّرَ لها الرزقَ المناسبَ لِيَخْرُجَ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس ، أَليس في ذلك آياتٌ لقومٍ يتفكَّرون ؟ فالذين يُشْرِكُون بالله ، ويَعتمِدون على المخلُوق ولا يعتمدون على الخالق وحْده ضِعافُ العقولِ ، ضعافُ التفكير ، يجعلون لله أندادًا وأشباهًا ، ولا ينتفعون بالآيات البيناتِ والدلائلِ القائمةِ في الخلْق الصامت ، وفي الخلْقِ الناطق .

لقد ضَرب اللهُ عز وجلَّ لهٰؤلاء المشركين وأمثالِهم من الملحِدين الذين لا يُحَكِّمون عقولَهم فيما يُرشِدُهم إليه القرآنُ الكريمُ ، من الحُجَج الواضحةِ ،

---

(١) النحل : ٥٣ .

ولا ينظـرون فيمـا لفتَهـم إليـه من البراهين والآياتِ الناطقـةِ بوحدانيـة الله تعالى ،ويمرُّون على الآيات الكونيةِ ، وهم غافِلُون مُعرِضون ، لقد ضربَ اللهُ لـهـٰؤلاء الأمثالَ في كثيرٍ من الآيات القرآنية ، وهي أمثالٌ من واقعِ حياتِهم ، وَمِمَّا يُشاهدونه ، ليُقرِّب إليهم المعانِيَ ، وليكونَ أعمقَ في الدلالة ، وأكثرَ إقناعًا للعقل الواعِي ، مع إبرازِ المعقولِ في صورة الـمحسوسِ ، والغائبِ في صورة الحاضرِ للإفهام ، والإقناعِ مع الإمتاعِ والتأثيرِ .

وقد ضَربت سورةُ النحلِ الأمثالَ من الـخلْق الناطقِ حتى يلتفتَ ذوو العقولِ ويُفكِّروا ، ضربت الآياتُ مثَلًا مأْخوذًا من الواقع فقد كان لبعض العربِ عبيدٌ يَملكونهم مِلكًا تامًّا ، ولا يُعطونهم حقَّ التصرُّفِ في شيءٍ من أمرهم ، ولا يُسوُّون بينهم وبينَ الأحرارِ منهم في الـحقوق الإنسانيةِ ، فهـٰذا عبدٌ مملوكٌ هو في يدِ مالكِه لا يملكُ من أمر نفسِه شيئًا ، والثاني حُرٌّ قادرٌ على الكسْب ، يُنفِقُ منه سِرًّا وعلانيةً ، فهل يَستوي هـٰذا وذاك ؟ وهل يستوي العاجزُ والقادر ؟ وهل يستوي مَن له إرادتُه وسليبَ الإرادة ؟ .

ولنتدبرْ : ﴿ **ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ : ٧٥ .

﴿ **ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا** ﴾ أي بيَّن شَبَهًا ، وأورَدَ وذَكَر ما يُستَدَلُّ به على تبايُن الحالِ بين الـخالقِ الواحِدِ الذي له كمالُ القُدرةِ جلَّ شأنه ، تباين الـحال بينه وبين ما أَشْركوه به سبحانه ، ويُظْهِرُ هـٰذا المثلُ فسادَ ما هُم عليه من شرْكٍ إظهارًا جَليًّا ، ثم فُسِّر المَثَلُ بقوله : ﴿ **عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ** .. ﴾ وهُو بدلٌ مِّن ﴿ **مَثَلًا** ﴾ .

يقول القرطبيُّ في بيان المعنىٰ : أي كما لا يَستوي عندكم عبدٌ مملوكٌ لا يَقدِرُ من أمره على شيءٍ ، ورجلٌ حُرٌّ قد رُزِقَ رِزقًا حَسنًا ، فكذلك أنا وهـٰذه الأصنام ، فالذي هو مِثالٌ فى هـٰذه الآيةِ هو عبدٌ بهـٰذه الصفةِ مملوكٌ لا يَقْدِر على شيءٍ من المال ولا من أمرِ نفسِه ، وإنما هو مسخَّرٌ بإرادة سَيِّده ، ولا يلزمُ من الآيةِ أن يكونَ الأَرقَّاءُ جميعُهم بهـٰذه الصفةِ فإنَّ النكرةَ في الإثبات لا تَقْتضِي الشمولَ عند أهلِ اللغةِ ، وإنما تُفِيدُ واحدًا ، فإذا كانت النكرةُ بعْد أمرٍ أوْ نَهْيٍ أوْ كانت مضافةً إلى مصْدر كانت للعموم الشيوعيِّ ، كقولك : أَعْتِقْ رجُلًا ، ولا تُهِنْ رجُلا ، والمصدرُ : كإعتاقِ رَقَبةٍ ، فأَيُّ رجلٍ أَعْتَقَ فقد خَرج من عُهدة الـخطابِ ، ويصحُّ منه الاستثناءُ » « انتهى كلامه » .

قال الأَصَمُّ : المرادُ بالعبد : المملوكُ الذي ربَّما يكونُ أشدَّ من مولاه أَسْرًا[1] وأَنضر وجْهًا ، وهو لسيِّده ذليلٌ لا يقدرُ إلَّا على ما أُذِنَ له فيه ، فقال اللهُ تعالى ضَرْبًا للمثال : أَيْ فإذا كان هـٰذا شأنكُم وشأنَ عبيدِكم فكيف جعلتُم أحجارًا مَواتًا شركاءَ لله تعالىٰ في خلْقه وعبادتِه ، وهي لا تَعقِلُ ولا تسمع .

وجاء عن مجاهد : هو مَثَلٌ مضروبٌ للوثَن ، والـحقِّ سبحانه وتعالىٰ ، فهل يَستوي هـٰذا وهـٰذا ؟ وهـٰذا خطابٌ موجَّه لأهل العقلِ والفكرِ والـتمييز ، فكما لا يَستوي في نظرهم الإنسانُ الـحرُّ الذي رزقَه اللهُ رزقًا حسَنا ، ليس لأحد من البشَر عليه سلطانٌ ، فهو يُنفِقُ من ماله في السرِّ والعلانيةِ ، ويتصرفُ فيه بإرادته ويضَعُه في مواضعه ، كما لا يَستوي هـٰذا والإنسانَ الذي سُلب إرادتَه ، وَقُيِّدَ في تصرُّفه ، فكذلك : لا يستوي الـمخلوقُ والـخالقُ ، ومَن يَرزُقُ ومَن لَّا يَرزُق .

إنَّ العقلاءَ يَحْكُمون بداهةً أنَّه لا مَساواةَ بين هـٰذين النقيضين ، بين عبدٍ

---

(١) الأسر : الـخلْق .

مملوكٍ لا يَقدِرُ على شيءٍ ومَن رزقه اللهُ رِزقًا حسنًا فهو يُنفِق منه سرًّا وجهْرًا ، إذ الفرقُ ما بينهما واضحٌ جليٌّ ظاهرٌ لا يجهلُه إلَّا كلُّ غبيٍّ ، لـهـٰذا خُتِمت الآيةُ بقوله تعالى : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ أي هو سبحانه مستحقٌّ للحمد دون ما يَعبدون من دونه ، إذْ لا نعمةَ للأصنام عليهم من يَدٍ ، ولا معروفٍ ، فتُحْمدَ عليه ، إنما الحمدُ الكاملُ لله لأنه المنعمُ الـخالقُ ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ** ﴾ أي أكثرُ المشركين ﴿ **لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ أنَّ الحمدَ لي وجميعَ النعمةِ منِّي ، وقد ذُكِرَ الأكثرُ والمرادُ الجميعُ ، فهو خاصٌّ أُريد به التعميم ، وقيل : المعنى : بل أكثرُ الـخلقِ لا يَعْلمون ، وذٰلك لأنَّ أكثرَهم المشركون ، فالحمدُ لله على نعمة العقلِ ، والحمدُ لله على نعمةِ الإيمانِ .

و ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ في الآية الكريمة جملةٌ تعليميةٌ ، أي إنْ عرفتم الفرقَ بين هـٰذا وذاك ، وبينَ مَن يخلقُ ومَن لا يخلقُ ، واهتديتم إلى الـحق ، فاحمَدوا الله على ذٰلك ، وقال سبحانه : ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ ولم يقُل لعباده : ٱحْمَدُوني ، لِيَدُلَّ على أنَّه سبحانه محمودٌ بذاته ، وأنَّ الـحمدَ من أخصِّ صفاتِه حَمِدَهُ العبادُ أم لم يَحْمَدُوه .

ثم جاء المَثَلُ الآخَرُ لبيان الـحقِّ والباطلِ وتأكيدِ ما دلَّ عليه المثلُ السابقُ ، ولنتدبرْ : ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ، وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَـٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ : ٧٦ .

قال مجاهدٌ : وهـٰذا أيضا المرادُ به : الوثَنُ والـحقُّ تعالىٰ ، يعني أنَّ الوثَن أبكمُ لا يتكلَّم ، ولا ينطقُ بخير ولا بشيءٍ ولا يقْدر على شيءٍ بالكُلِّية ، فلا مَقَالَ ولا فِعَالَ ، وهو مع هـٰذا ﴿ **كَلٌّ** ﴾ أي عِيال وكُلْفةٌ على مولاه ، وَثِقَلٌ علىٰ مَن يعُوله وَيلي أَمْرَه ، وهـٰذا بيانٌ لعدَم قدرتِه على إقامة مصالحِ نفسِه بعْد ذِكْرِ عَدَمِ قدرتِه

مُطْلقًا في قوله ﴿ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ .

﴿ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ ﴾ أي يُرسلْه مولاه ويبعثْه في أَمْر ﴿ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ لا يأتِ بنُجْحٍ وكفايةِ مُهِمٍّ ، وهذا بيان لعدم قدرتِه على مصالح وليِّه لأنه لا يعرِفُ ، ولا يفْهَمُ ما يُقال له ، ولا يُفْهَم عنه .

﴿ هَلْ يَسْتَوِي ﴾ مَن هٰذه صفاتُه ﴿ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ أي بالقِسط فمقالُه حقٌّ ، وفِعَالُه مستقيمةٌ ، وهو فَهِمٌ ذُو رَأْيٍ ورُشْدٍ ينفعُ الناسَ بِحثِّهم على العدل الجامعِ لمجامعِ الفضائلِ ﴿ وَهُو ﴾ في نفسه مع ما ذُكِر مِن نَفْعه الخاصِّ والعامِّ ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ لا يتوجَّهُ إلى مطْلب إلَّا ويبلغُه بأقربِ سعْي ، فهو على هداية ورشادٍ بفضل صحةِ إيمانِه ، وسلامةِ يقينِه .

فتأمَّلْ – ياذا اللُّبِّ – هٰذين الرجُلَين المضروبَ بهما المثلُ ، وما بينهما من تضادٍّ ومقابلةٍ تجعلُ المعنىٰ المرادَ أكثرَ وضوحًا وتؤكِّدُه في النفس .

إنهما رجلان : أحدُهما لا ينطقُ ولا يفهمُ ، وهو عاجزٌ لا يقدُر على شيء يعودُ عليه أو على غيره بالنفْع أو الضرر ، وهو عِبءٌ ثقيلٌ على وليِّه وقرابتِه يُثْقِلُ الكاهلَ بنفقاته دون أن يجدَ وليُّه منه عَوْنًا في شيء من شؤونه ، وهو – أيضا – سَفِيهٌ لا إدراكَ له ، ولا خيرَ فيه أَلبتة ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ بأيِّ خير ، فالتنكيرُ للتقليل والتحقير .

أمَّا الرجلُ الآخرُ فمقتصِدٌ معتدِلٌ يلزمُ الوسطيةَ في أموره فلا إفراطَ ولا تفريطَ ، وهو على صراطٍ مستقيم لا تزِلُّ قدمُه ولا ينحرفُ ، ولا تتعثرُ خُطاه ، ولا يجري وراءَ الأهواءِ ، ولا تفتِنُه الشبهاتُ ، فهو يلزمُ العدلَ ويأمرُ به ، ويحثُّ عليه وينفعُ نفسَه ، وينفعُ غيرَه .

تأمَّلِ حالَ الرجلين وقُل : هل يستويان ؟ هل هما في ميزان العقلِ ، وتقديرِ العقلاءِ على سواء ؟ ، وإنّه حيث لم يستو الرجلان المتَّصفان بما ذُكِـر من الصفات لكل منهما مع استوائِهما في الصورة والـهيئةِ فَلأَنْ يُحْكَمَ بأنَّ الصنمَ الذي لا يَنطِقُ ولا يسمَعُ ، وهو عاجزٌ لا يَقْدِر على شيء ، وكَلٌّ على عابِده يحتاجُ إلى أن يحملَه ، ويضعَه ، ويمسحَ عنه ما يقعُ عليه من الأذى ، ويَخدُمَه ومع هـٰذا كلِّه فإنَّه لا يجْلِبُ له أيَّ نَفْعٍ ولا يحققُ له أيَّ خيرٍ ، فَلأَنْ يُحْكَمَ بأنَّ هـٰذا الصنمَ لا يُساوي ربَّ العالمين الرزاقَ الوهَّابَ أَحْرىٰ وأولَىٰ ، واللهُ عزَّ وجلَّ هو المستحِقُّ للعبادة وحْده لأنَّ الرزقَ بيده والـحياةَ والموتَ بيده وَحْده ؛ آلاؤُه ونعمُه بين أيدينا لا نملِكُ إنكارَها ، فكيف يُجْعَلُ لله الأشباهُ والأمثالُ ، وهو سبحانه المتفردُ بالـخلْق والإيجادِ وبالعظمةِ والجَلال .

سبحانه وتعالى ، جلّ شأنُه

* * *

٧٤ - ج - بشكر المنعم يدوم الأمنُ والرخاء وهما أعظم النعم الدنيوية .

إنَّ نِعَمَ اللهِ عزَّ وجلَّ على عباده في الدنيا كثيرةٌ لا نستطيع عَدَّها ولا نَقْوىٰ على إحصائها ، ولٰكنَّ هٰذه النعمَ الدنيويةَ يمكن أن نُرجِعَها إلى أَصْلين جَليلَيْن ، وأن نجمعَها في نِعْمتيْن عظيمتَيْن وهما : نعمة الأمنِ ونعمةُ الرخاء .

إنَّ الأمنَ والرخاءَ مطلبان أساسيان للحياة المطمئنَّة ، وللعمل المثمرِ الذي يساعدُ الإنسانَ على الصعود في مدارج الكمالِ الإنسانى ، ويهيِّىء له الفرصَ لتنمُوَ الطاقاتُ ، وليتحقَّقَ الخيرُ للجماعة ، وتصلَ إلى مزيدٍ من الاستقرار في ظلال التعاونِ الكريمِ ، والرغبةِ الصادقةِ في جَلْب المنافع ، ودفْعِ المضَارِّ .

إنَّ الأمن ينبعُ من الإيمان الصحيح ، وكلَّما قوِي الإيمانُ ، وصحَّ اليقينُ ازداد القلبُ طمأنينةً ، وإنَّ الرخاءَ يبسطُ جناحيْه الرحيمتين على الجماعة إذا عَرفت قدْرَ النعمة ، واستخدمتها فيما خُلِقت له ، وشكرت المنْعم الوهَّاب ، وأخذت بالأسباب الصحيحة ، وبذلت الجهدَ للانتفاع ببركات الأرضِ ، مع الإيمان بأنَّ كلَّ نعمةٍ : هي من الله عزَّ وجل ، وأنَّه لا دوامَ للنعمة إلّا إذا شُكرت ، ولا بقاءَ لها إذا كُفرت ، ولنتدبَّر قولَه تعالى : ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾[1] . أي إنَّ هٰؤلاء الذين أخلصُوا العبادة

---

(١) الأنعام : ٨٢ .

لله وحده ، ولم يُشركوا به شيئًا هم الآمِنُون يومَ القيامة ، المهتدُون في دُنياهم ، السعداءُ في الآخرة .

وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه عبدُ الله : ﴿ **وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ . معناه : أي لم يَلْبِسوا إيمانَهم بِشرْك ، وقد جاء في الصحيحين وعند بعضِ أصحابِ السُّنَن : أن ابنَ مسعودٍ قال : لمَّا نزلت هٰذه الآيةُ شقَّ على الناس ، وقالوا : يارسولَ الله ، وأيُّنا لا يظلمُ نفسَه ؟ وفي لفظ : وأيُّنا لم يظلمْ نفسَه ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : « إنه ليس الذي تَعنُون ، ألم تسمعُوا ما قال العبدُ الصالحُ : ﴿ **يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] . إنما هو الشرك » .

أمَّا المرادُ بالأمن : فهو الأمنُ من عذابِ اللهِ الذي يَحِلُّ بأهل الشركِ في العقيدة ، أو في العبادة ، كاتخاذ ولـيٍّ من دون اللهِ يُدعىٰ معه ، أو مِن دونِهِ ،فيُعَظَّم كتعظيم اللهِ ، أو يُحَبُّ كحبِّه .

إنَّ الذين آمنوا إيمانًا صحيحًا ، واستقاموا على طريق الإسلام ، ولم يَخلِطوا إيمانَهم بشرك ، وماتوا على اليقين الصادِق ، والعملِ الصالحِ أولٰئك لهم الأمنُ مِن الخلود في النار دون غيرِهم من أصناف المشركين والمُلحدين ، وهم فيما وراء ذٰلك بين الخوفِ والرجاءِ ، الخوفِ من عذاب اللهِ ، والرجاءِ في رحمة اللهِ وعَفوِه وقبولِ التوبة .

وقد وعد الله عز وجلَّ أهلَ الإيمانِ والعملِ الصالح بالحياة الطيبةِ الآمنةِ المطمئنة ، يقول سبحانه من سورة النحل : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ**

---

(١) لقمان : ١٣ .

أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

إنَّه لا اعتدادَ بالأعمال الصالحةِ كالصدقة وبرِّ الوالدين إذا صَدَرت عن كافر أو مشركٍ في استحقاق الثوابِ ، وقد بَيَّنَت الآيةُ الكريمةُ ذلك بقوله تعالىٰ ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وهٰذه الجملةُ الاسميةُ في موضعِ الحالِ من فاعلِ ﴿ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ وَقُيِّدَ الْفاعلُ بذلك ، فالجزاءُ الحسَنُ والحياةُ الطيبةُ لمن صَدَر عملُه الصالحُ عن إيمانٍ بالله واقتداءٍ بالنبي محمدٍ ﷺ ، مع الإخلاص والمحبَّةِ .

أَمَّا المرادُ بالحياة الطيبةِ ، فهي الحياةُ التي تكونُ في جنَّات النعيم ، وقال غيرُ واحدٍ من أهل العلِم : المرادُ الحياةُ الطيبةُ في الدنيا .

أما في الجنَّة فيجد أهلُها : حياةً بلا موتٍ ، وغِنىً بلا فقر ، وصحةً بلا سُقْم ، ومُلكًا بلا هَلَك ، وسعادةً بلا شَقاوة .

وأَمَّا الحياةُ الطيبةُ في الدنيا ، فإنما تتمُّ بالحياة التي تَصْحبُها القناعةُ والرضا بما قسمه اللهُ تعالىٰ وقدَّره ، وجاء عن ابن عباس وغيرِه أنَّ المرادَ : الرزقُ الحلال ، وقال عليُّ بنُ أبي طالب : توفيقُ العبدِ إلى الطاعات ، فإنها تُؤَدِّيه إلى رضوان اللهِ ، وفَسَّر الضحاكُ الحياةَ الطيبةَ بقوله : مَن عمِل صالحًا وهو مؤمنٌ في فاقةٍ أو في مَيسرةٍ فحياتُه طيبةٌ ، ومَن أعرض عن ذِكْرِ اللهِ ، ولم يُؤمن بربِّه ولا عَمِل صالحًا فمعيشتُه ضنكٌ لا خيرَ فيها ، ومن معانِي الحياةِ الطيبةِ : الاستغناءُ عن الخلْق ، والافتقارُ إلى الحقِّ ، وقيل : الرضا بالقضاء .

وكان من دعاء الرسولِ ﷺ : « اللهمَّ قَنِّعْني بما رزقْتني ، وبَارِكْ لِي فيه »

---

(١) آية : ٩٧ .

وفي هٰذا الدعاءِ توجيهٌ وتربيةٌ وتعليمٌ لنا ،إذ القناعةُ والرضا بما قَسَمه اللهُ وقدَّره سبيلُ العبدِ إلى الحياة الطيبةِ في الدنيا ، ولا يهنأُ الإنسانُ بعيشٍ مالم يكن قانِعًا راضيًا ، أمَّا المَرضىٰ بالحِرْص والطمعِ والجشعِ فإنهم في كدٍّ وعناءٍ أبدًا ، على عكس ما عليه المؤمنُ القانعُ بثمرات سعْيه وعملهِ فإنَّه يَعرِفُ أنَّ مصلحتَهُ فيما قَدَّره اللهُ له ، لذا فإنه يعيش راضيًا بالقضاء ، قانعًا بالعطاء ، سعيدًا برِزْقه ، حامدًا ربَّه ، وشاكرًا لأنعمه .

كما أنَّ العبدَ الصالحَ يعلمُ أنَّ المؤمنَ يُبتلىٰ بالخير وبالشرِّ ، ويُقدِّرُ لذٰلك وقوعَ المصائبِ والمِحَن ،لذا فإنه لا يستعظم المصيبةَ عند وقوعِها في نفسه ،أو في أهله ،أو في مالِه ،ولا يَذهب الجزعُ والأسىٰ بطمأنينة قلبه ،ورضا نفسِه ، ولا يعظُمُ غَمُّه بفقدان خيراتِ الحياةِ الجسمانيةِ والماديةِ ، كما لا يعظمُ فرحُه بوِجْدانِها ،لإيمانه بأنَّها دائمةُ التغيرِ ،وأن متاعَ الدنيا إلى زوال ،على خلاف ما عليه الماديون والملحدون فإن المصائبَ يعظُم تأثيرُها في نفوسهم ، ويشتدُّ غمُّهم عند فِقدان الحظوظِ الدنيوية ، كما يشتدُّ بطَرُهم عند إقبالها عليهم ، وَكِلا طَرَفَيْ قصْدِ الأمورِ ذميمٌ ، وخيرُ الأمورِ أوساطُها ، ومن بركات الإيمانِ الصحيح ،واليقينِ الصادقِ أنه يصححُ نظرةَ المؤمنِ إلى الدنيا ،وإلى الكون من حوله ، فيعيشُ بإيمانه ساكنَ النفسِ ، هادئ البالِ ، يُسْهِم في بناءِ الأمة ، وعمارةِ الحياةِ بصبر لا يعرفُ الجَزع ، وبجلَدٍ لايعرفُ الكللَ ، إنْ أصابته ضراءُ صبر ، وإنْ أصابته سراءُ شكر .

والحقُّ تبارك وتعالى يقول : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ .

وقد ضَرب اللهُ عز وجل الأمثالَ للناس لكي يتفكَّروا ويتدبَّروا وبيَّن لهم أحوالَ

قومٍ وأفرادٍ استخفُّوا بِنِعَم اللهِ ، وقصَّروا في حقِّها فلم يشكروا المنعمَ ، ولم يُقروا بفضله ، وأعماهم إقبالُ الخيرِ عليهم عن معرفة قدْرِ أنفسِهم ، فبَطِروا ، واستكبروا ، وطَغَوْا وكفروا ، فحلَّت عليهم النقمةُ ، وذاقوا مرارةَ الجوع والخوفِ بعد الرخاءِ والأمنِ ، بَيَّن اللهُ عز وجل أحوالَ هؤلاء ليتذكرَ أولو الألباب ، وأصحابُ العقولِ الراجحةِ : ، ولْيُنْعِمُوا النظرَ في الآيات والعبرِ فلا يقعُوا فيما وقَع فيه أهلُ الضلال والجحود ، ولنتدبرْ قولَه تعالى من سورة القَصص : ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ** ﴾[1] .

أي كم من قريةٍ طغَت وأَشِرَت وكفَرت نعمةَ اللهِ فيما أنعم اللهُ به عليهم من الأرزاق ، وأسبابِ الأمنِ والرخاءِ والكفايةِ ، فرجعت خرابًا ليس فيها أحدٌ لأن أهلَها ظَلَموا أنفسَهم ، ولم يَتَّبعوا الرسلَ وتمادَوْا في الغيِّ والضلال ، لذا قال سبحانه مُخبرًا عن عَدْله ، وأنه لا يُهْلِكُ أحدًا ظالمًا لَهُ ، وإنما يُهلِك من أَهْلَكَ بعد قيامِ الحجة عليهم قال : ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ** ﴾[2] .

وقال تعالى من سورة الكهف : ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾[3] .

ويلفتُ اللهُ العبادَ إلى فضْل شكرِ المنعم ، ومعرفةِ قدْرِ النعم ، ليزيدَهم من فضله فقال من سورة الأعراف : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا**

---

(١) آية ٥٨ .
(٢) القصص : ٥٩ .
(٣) آية : ٥٩ .

عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ وفي قُرى عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وأمثالِهم عبرةٌ وعظةٌ لمن تدبَّر وتفكَّر .

وَمَن استقام ، ولزِم طريقَ الإيمانِ والتقوىٰ ، وعَمِل بما أنزل اللهُ عز وجل على رسوله محمدٍ ﷺ حَظِي ببركات الدينِ والدنيا ، وكان من أهل السعادتين ،يقول اللهُ عز وجل في أهل الكتابِ الذين أدركوا بعثةَ النبيِّ محمدٍ ﷺ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ، وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وكم في حياتنا من العِبر ..!. وكم من مرة سَمِع الناسُ أو رأَوا أو نُقلت إليهم الأخبارُ مرئيةً أو مقروءةً عن آثار الزلازلِ والخسفِ والبراكينِ والأعاصيرِ المدمرةِ والقحطِ والجفافِ والفيضانِ والأمراضِ المحيِّرة . فهل من مُعتبر ؟ وهل آن الأوانُ ليعودَ الناسُ إلى رحمة الدينِ الحق ، ورِحَابِ الإيمانِ الصحيح ، لِيَنْعَمُوا بالأمن والرخاء والكفايةِ ، وليُهيِّئُوا نفوسَهم للسعادة الأبدية ، بالاستقامة على دين محمدٍ ﷺ .

* * *

(١) المائدة : ٦٥ و ٦٦ .

٧٥ـ د ـ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف .

كان أهلُ مكةَ المكرمةِ ينعمون بالأمن والرخاءِ بوصفهم سدنةَ البيتِ وَخُدَّامَهُ ، ولأنهم القائمون برعاية الحرمِ وسُواسُه ، بينما كان الناسُ يُتَخطَّفون من حولهم ، فَلمَّا جاءهم رسولٌ منهم يَعْرِفون صِدْقَهُ وأمانتَهُ يدعوهم إلى الله تعالى ربِّ البيتِ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف ،وإلى نبْذ الأصنامِ والأندادِ ، وإلى توحيدِ اللهِ وعبادتهِ وحده ، لما جاءهم الرسولُ يبيِّن لهم كذَّبوه ، وأعرضوا عنه ، وصدُّوا عن السبيل ، ونَكَبُوا عن الصراط السويِّ ، فضرَبَ اللهُ عز وجل لهم مثلًا يُنذرُهم فيه بما قد يَحِلُّ بهم عقابًا على كفرهم بأنعُم اللهِ ، ومن أعظم هٰذه النعمِ إرسالُ رسولٍ منهم يتلو عليهم آياتهِ ويُزكِّيهم ويعلمُهم الكتابَ والحكمة .

وضَرب اللهُ لهم مثلًا يطابق حالَهم ومآلَهم إنْ هم ظَلُّوا على ما هم عليه ، من العناد والتعنُّتِ وإلحاقِ الأذىٰ بالنبى ﷺ وبأصحابه ، فقال جلّ شأنُه من سورة النحل :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ .

﴿ وضَرَبَ اللهُ مثلًا قَرْيَةً ﴾ أي أهلَ قريةٍ ، وذٰلك إمَّا بإطلاق القريةِ وإرادةِ أهلها[1] ، وإمَّا بتقدير مضافٍ ، وقد نُصب على أنه مفعولٌ أولُ – لضَرَبَ – على تضمينه معنى الجَعْل أي : جَعَلَ اللهُ مَثلًا أهلَ قريةٍ ، وقد أُخِّرَ المفعولُ الأوَّل لِئلَّا يفصِلَ المفعولُ الثاني وهو « مَثَلًا » بين الموصوفِ وصفتِه ، فقد وُصِفَ

---

(١) أى مجاز مرسل علاقته المكانية .

المفعولُ الأوّلُ وهو « قرية » بأنها « كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رغَدًا مِّنْ كلِّ مكان » ولأنَّ تأخيرَ ما حَقُّه التقديمُ مِمَّا يُورثُ النفسَ شوقًا لِورُودِه ، لاسيَّما إذا كان في المقدَّم ما يدعو إليه كما في الآية الكريمةِ فيَتمكَّنُ عند ورودِه فَضْلَ تَمَكُّنٍ .

وتنكيرُ «قرية» يُفيد التكثيرَ للمبالغة في العظة والاعتبارِ وعلى هٰذا فهو مَثَلٌ منتزَعٌ من حال قريةٍ أيْ قريةٍ من القُرىٰ التي كذَّبت الرسلَ ، وكفَرت النعمةَ ، وأكْثَر أهلُها فيها الفساد ، وتمادَوْا في الغَيِّ والضلال ، كما جاء في قوله تعالىٰ من سورة الأعراف : ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْهُمْ قَآئِلُونَ** ﴾[1] .

وإنَّ لذوي العقولِ لعِبرًا وعظاتٍ فيما جرىٰ لعادٍ وثمودَ ولقوم لوطٍ وأهلِ مَدْيَنَ ، وسبأٍ ، وفيما آلَ إليه أمرُ كلِّ مَنْ عانَدُوا الرسلَ ، وبَطِروا ، واستخدموا النِّعمَ في الشرِّ والفساد ، وتطاوَلُوا بها على العباد ، وحارَبُوا الحقَّ وأهلَه ، ولنتدبر :

﴿ **وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ** ﴾[2] .

وفي ثمودَ يقول الله عزّ وجل : ﴿ **فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ** ﴾[3] .

---

(١) الآية : ٤ .

(٢) العنكبوت : ٣٦ و ٣٧ .

(٣) الأعراف : ٧٧ و ٧٨ .

فـهؤلاء وأمثالُهم ظَلَمُوا أنفسَهم ، وبدلَّوا نعمةَ الله كُفْرًا ، فكـان المآل الدمارَ والـخرابَ كما جاء في سورة العنكبوت : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّن خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاوَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[1] .

ما القرية التي ضُرب بها المثَلُ ؟ :

وقد وردت الآثارُ ببيان القريةِ التي ضُرِب المَثَلُ بهافي هـٰذه الآيةِ من سورة النحل فجاء عن ابن عباسٍ ومجاهد : أنها مكةُ ، وجاء في تفسير القرطبى « وَضَرَبَ مكةَ مثَلًا لغيرها من البلاد ، أي إنهامع جوار بيتِ اللهِ ، وعِمَارةِ مسجِده ، لمَّـا كفَر أهلُها أصابهم القحطُ ، فكيف بغيرها من القرىٰ » .

وفي تفسير ابن كثير : هذا مَثَلٌ أُريد به أهلُ مكةَ ، فإنَّها كانت آمنةً مطمئنةً مستقرةً يُتَخَطَّفُ الناسُ من حولـها ، وَمَن دَخَلَها آمِنٌ لا يخاف ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] وهـٰكذا قال هاهنا أي في المثَل : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أي : هَنيئا سَهْلا ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ أي : جَحدت آلاءَ اللهِ عليها ، وأعظمُ ذٰلك بعْثةُ محمدٍ ﷺ إليهم كما قال تعالىٰ من سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾[3] ولـهـٰـذا بدَّلهم اللهُ بحاليْهـم الأوَّلين خلافَهمـا

---

(١) آية : ٤٠ .

(٢) القصص : ٥٧ .

(٣) ٢٨ و ٢٩ .

فقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ أي : أَلْبَسَهَا وأذاقَها الجوعَ بعد أن كان يجيءُ إليهم ثمراتُ كلِّ شيء ، ويأتيها رزقُها رغدًا من كلِّ مكان ، وذلك لمَّا استعْصَوا على رسول الله ﷺ ، وأَبَوْا إلا خلافَه ، فدعا عليهم بسبعٍ كسبع يوسفَ فأصابتهم سَنَةٌ أذهبت كلَّ شيء لهم ، فأكلُوا العِلْهِزَ وهو الدمُ يُخْلَطُ بأوبار الإبلِ ثم يَشْوونَه بالنار ويأكلونه ، وقيل : العِلْهِز : شيءٌ ينبتُ في بعض النواحي له أصلٌ كأصل البَرْدِي .

وَرُوي عن حفصة وعائشة رضي اللهُ عنهما : أنها المدينةُ ، وذلك حين جاءهما الخبرُ بأن عثمانَ بنَ عفانَ رضي اللهُ عنه قد قُتِلَ ، وما تَبِعَ ذلك من الفِتَن بعد نعمةِ الأمنِ والاستقرارِ ، وقد أخرج ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه أن حفصةَ رضي اللهُ عنها قالت حين جاءها خبرُ مقتلِ عثمانَ : والذي نفسي بيده ، إنها لَلْقريةُ التي قال اللهُ تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ... ﴾ الآية .

ولعل حفصةَ أرادت أن المدينةَ بعد مقتلِ عثمانَ صارت مِثْلَ هٰذه القريةِ التي ضَرَبَها اللهُ مثلًا للعظة والاعتبارِ ، وعلى هٰذا التأويلِ يُمكن حَمْلُ ما جاء عن ابن عباسٍ من أنَّها مكةُ ، ويكون المعنى : جَعَلَها اللهُ تعالىٰ مَثَلًا لأهلِ مكةَ ، ولكلِّ قومٍ أنْعَم اللهُ تعالىٰ عليهم فأَبْطَرَتْهُمُ النعمةُ ، ففعلُوا ما فعلُوا ، فَجُوزوا بما جُوزوا ، ودخَل فيهم أهلُ مكةَ بسبب عَدَاوتِهم للرسول ﷺ وشدةِ إيذائِهم له ، حتى دعا على قُريش حين استعْصَوا فقال : « اللهمَّ أَعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبعِ يوسفَ » فأصابتهم السنون ، وساءت حالُهم ، ثم فقَدوا نعمةَ الأمن أيضًا بعد هجرةِ الرسولِ ﷺ إلى المدينة ، فعاشوا زمنًا في مخاوفَ وحروبٍ ، وأُذِيقُوا مرارةَ الخَوْفِ بعد أن ذَاقُوا أَلَمَ الجُوعِ ، وظهر أثَرُه على الوجوه والأبدانِ وعاشُوا في

مخاوفَ من سطوة سَرايا الرسولِ ﷺ وجيوشِهِ حتى فَتَح اللهُ مكةَ على المسلمين ، وذلك بسبب صَنيعِ قريشٍ معه ﷺ ، وبَغْيِهم ، وتكذيبِهم الرسولَ الذي بعثه اللهُ فيهم واصطفاه منهم .

لقد ظهر أثرُ بطَرِ النعمةِ في ذلك الزمانِ في أهل مكةَ ظهورًا بيِّنًا ، وانعكس عليهم حالُهم ، فخافوا بَعْد الأمن ، وجاعُوا بعد الكفايةِ والرغَد ، أمَّا الرسولُ ﷺ وأصحابُه فقد بَدَّلهم اللهُ من بعد خوفِهم أمْنًا ، ورزقهم بعْد العَيْلَةِ ، وجعلهم اللهُ أمراءَ الناسِ وحكامَهم ، وسادتَهم وقادتَهم وأئمتَهم ، لأنهم صَدَقُوا في إيمانهم ، وأَخْلَصُوا في طاعة ربِّهم ، وعرفُوا قَدْرَ النعمةِ ، وشكروا المنعمَ الوهَّاب ، وبالشكر تدومُ النِّعمُ وتزدادُ وتثبُتُ بفضل اللهِ عز وجل .

موطنُ العِبرة والعظة :

وسواءٌ كانت القريةُ التي جُعِلت مثَلًا لغيرها هي مكة أو سبأ أو كان المقصودُ التكثيرَ وعدمَ تحديدِ قريةٍ بعيْنها للمبالغة في العِظة والتذكير والاعتبارِ فإن العبرةَ واضحةٌ للأفراد وللجماعات ، وَإِنَّ كُلَّ قريةٍ أو أُمَّةٍ أو جماعةٍ تُبتلىٰ بمثل ما ابْتُلِيتْ به هٰذه القريةُ تصيرُ مثَلًا لغيرها ، تُنبِّهُ ذوي الضمائرِ والبصائرِ ليسلكوا مسالِكَ أهلِ النجاة ، وليِنْأَوْا بأنفسِهم عن أسباب المهالكِ والشقاء .

إنها قريةٌ ﴿ **كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً** ﴾ أي لا يُهاج أهلُها ، وهي ساكنةٌ قارَّةٌ لا يَحْدث فيها ما يوجبُ الانزعاجَ ، كما يحدثُ في بعض القُرى والأممِ من الفتن بين أهاليها ، حتى تَقْسُوَ القلوبُ وتَتقطَّعَ الأواصِرُ ، ويَخافَ الناسُ بعضُهم بعضًا ، كما قالوا :

والمرءُ يَخشىٰ من أبيه وابْنِه ... ويخونُه فيها أَخوه وجارُه

وهٰذا واضحٌ بَيِّن في المجتمعات التي تَنكَّرت لدين اللهِ ، وكفَرت وألْحَدتْ ، وخانت الأمانةَ ، ولم تَعرِفْ للنعم قدْرَها ، فيعيشُ الناسُ فيها على المخاوف ، وقَلمَّا يأمنون من إغارة عدوٍّ متربص .

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ والأنعمُ جَمْعُ النِّعمة ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ ﴾ أي أذاقَ أهلَها ﴿ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ سَمَّاه لِباسًا لأنه يظهرُ عليهم من الهُزال وشحوبةِ اللونِ وسوءِ الحالِ ماهو كاللباس ، فقد شُبِّهَ أثرُ الجُوع والخوفِ وضررُهما الغاشِي باللباس بجامعِ الإحاطةِ والاشتمالِ فاستُعير لهُ[1] اسمُه ، وأُوقِعَت عليه الإذاقةُ المستعارةُ للإصابة مِمَّا يدلُّ على شِدَّة التأثير ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أي من الكُفر والمعاصي ، بعد أنْ أُقيمت عليهم الحجَّةُ بِمَنْح العقلِ ، وإرسالِ الرسلِ ، وإنزال الكتب ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[2] .

وتلك عاقبةُ مَن لَّم يعرف للنعمة قَدْرَها ، ولم يشكرْ المنعِمَ ، واستكبر في الأرض بغيرِ الحقِّ .

* * *

(١) أى : فاستعير لأثر الجوع والخوف اسمه .
(٢) النحل : ١١٣ .

٧٦ ـ هـ ـ وفي سَبأ آية ، وقد صارت مثلًا .

جاء في حكمة العرب :

ثلاثـــــةٌ ليس لها نهايـــــة الأمـنُ والصِّحَّـــةُ والكِفايـــة

والإنسانُ إذا عاش آمِنًا في سِرْبِه ، مُعَافىً في بَدنه ، عنده كفايتُه من الـحلال الطيبِ ، فقد حِيزَت له أعظمُ النِّعمِ الدنيويةِ ، نعمةِ الأمْنِ ، ونعمةِ الرَّخاء ، ونعمةِ الصحة ، والنعمُ كلُّها من الله عز وجل ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ** ﴾[1] والعبدُ إذا حَمِدَ اللهَ ، وشَكَره ، ووحَّده ، وأطاعه ، واستخدَم النعمةَ فيما خُلِقت له ، وهُيِّئت لأجْله مسترشدًا بهداية الدينِ الـحقِّ ، بُورك له ، وزاده ربُّه من فضلِه ، قال تعالىٰ في قصة سبأ : ﴿ **كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ** ﴾أي قالت لـهم رسُلهم ، قد أباح اللهُ لكم الأكْلَ من ثمار الأشجارِ وَمِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ من الـحلال الطيبِ ، فاشكروه سبحانه بتوحيدِه وطاعتِه واتِّباعِ رسلِه .

ولقد جاءت قصةُ سبأ في كتاب اللهِ عزَّ وجل للعظة والعبرة ، ولقد صارت مَثلًا يُضْرَبُ في التفرُّق بعد الاجتماع ، والتَّبدُّدِ والتشتُّت بعد التئامِ الشَّمْل ، فيُقال : « تَفَرَّقُوا أَيْدِي سَبَا » « وَتَفَرَّقُـوا أَيَـادِي سَبَـا » ، لأنهم لمَّـا غَرِق مكانُهم وذهبتْ جناتُهم تبدَّدوا في البلاد ، فأخذت كلُّ جماعةٍ منهم طريقًا ، واليدُ في اللغةِ : الطريقُ ، يقال : أَخَذَ القومُ يَدَبَحْرٍ : أي طريقَ بحْرٍ ، والعربُ لا

---

(١) النحل : ٥٣ .

تهمِزُ سَبا في هٰذا المثَل لكثرة استعمالِه في كلامهم .

وكانت سبأٌ تقطنُ اليمنَ ، وكانوا في نعمة وغبطةٍ في بلادهم ، وفي رغَدٍ من العيش واتساعِ الرزق ، وكثرةِ الزروع والثمار ، وبعَث اللهُ إليهم الرسلَ تأمُرهم أن يأكلوا من رزقه ، وينعَمُوا بفضله ، ويشكروه سبحانه بتوحيدِه وعبادتِه وطاعةِ رسلِه ، فكانت سبأٌ كذٰلك ما شاء اللهُ ، كانوا على التوحيد والطاعةِ فعاشوا في أمنٍ ورخاءٍ وعافيةٍ ، ثم أعرضوا عَمَّا أُمروا به ، فَعُوقبوا بإرسال السيل ، والتفرُّقِ في البلاد أيدِي سَبا ، شَذَرَ مذَر ، وصار تفرُّقُهم مَثَلًا للحالات المشابهة .

وقد جاء في مسند الإمام أحمدَ وعند الترمذيِّ وغيرِهما أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئل عن سبأ : أرضٌ أوْ امرأةٌ ، قال : « ليس بأرض ولا بامرأة ، ولٰكنَّه رجلٌ وَلَدَ عَشَرةً من العرب ، فَتيامَن منهم ستةٌ ، وتشاءَمَ منهم أربعةٌ ، فأمَّا الذين تشاءَمُوا : فلَخْمٌ وجُذَامٌ وغَسَّانُ وعامِلَةُ ، وأمَّا الذين تيامنوا فالأزْدُ والأشعريُّون ، وحِمْيرٌ ، وَكِنْدةُ ومَذْحِجٌ وأنْمار » .

قال علماءُ النَّسب : اسمُ سبأ هو : عبدُ شمسٍ بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بنِ قحطانَ ، وقيل : اسمُه عامر ، وَرُوي أنه بَشَّر برسول اللهِ ﷺ ، ونَسَبُوا إليه كما في البداية والنهايةِ قولَه :

وَيَمْلِكُ بعْد قَحْطَانَ نبيٌّ ... تقيٌّ خَبْتَةٌ خيرُ الأنَام
وَسُمِّيَ أحمدًا ياليْتَ أنِّي ... أُعَمَّرُ بعْد مَبْعَثِه بِعَام
فأَعْضُدُه[1] وأُحبُوه بِنَصْرِي ... بكلِّ مُدَجَّجٍ وبكُلِّ رَام
مَتَىٰ يَظْهَرْ فكونوا ناصِريه ... وَمَن يلقَاهُ يُبْلِغُه سَلَامِي

---

(١) أعضُده : بضم الضاد من عضَد بفتحها أعانه ونصره (من باب نصر ينصر) وأعضِده بكسر الضاد من عضَد بفتحها أيضا (من باب ضرب يضرب) معناه قطعه .

يقال رجلٌ فيه خَبْتَةٌ أي تواضُعٌ مِنَ الوصْف بالمَصْدر .

ومعنىٰ ما جاء في الحديث : « وُلِدَ له عَشَرةٌ من العرب » أي : كان مِن نسله هٰؤلاء العشَرةُ الذين يَرْجِعُ إليهم أصولُ القبائلِ من عَرَبِ اليمن ، لا أنَّهم وُلِدوا مِن صُلْبه ، بل منهم مَنْ بَيْنَهُ وبيْنه الأبَوَانِ والثلاثةُ والأقلُّ والأكثرُ .

ومعنى قولِه : « فتَيا مَن منهم ستةٌ ، وتَشَاءَم منهم أربعةٌ » أي : بعد ما أرسل اللهُ عليهم سيلَ العَرِم ، وانهيارِ سدِّ مأرِبَ ، مِنهم مَن أقام ببلادهم ، ومنهم مَن نَزَحَ عنها إلى غيرها .

وكان من أمر السدِّ أنه كان الماءُ يأتيهم من بين جَبلين ، وتجتمعُ إليه سيولُ أمطارِهم ، وأوديتِهم ، فَعَمَد ملوكُهم الأقادمُ ، فبَنَوْا بينهما سَدًّا عظيمًا مُحْكَمًا حتى ارتفع الماء ، وحَكَم على حافات ذَيْنِكَ الجَبلين ، فغَرسوا الأشجار ، واستغلُّوا الثمارَ في غاية ما يكونُ من الكثْرة والحُسن .

قال قتادةُ : إنَّ المرأةَ كانت تَمْشِي تحتَ الأشجارِ ، وعلى رأسِها مِكْتَلٌ أو زِنْبِيلٌ ، فيتساقطُ من الأشجار في ذٰلك ما يملؤُه من غير أن يحتاجَ إلى كُلفة ولا قُطَّافٍ ، لكثرة الثمارِ ونُضْجِها واستوائِها .

وكانَ السدُّ بمأرِبَ ، ويُعْرَفُ بسدِّ مأرِب .

وقد جاء في الأخبار : أنه لم يكن ببلاد سبأ شيءٌ من الذباب ، ولا البعوضِ ، ولا البراغيثِ ، وانعدمت الهوامُّ ، وذٰلك لاعْتِدالِ الهواءِ ، وصحَّةِ المِزاج[1] ، وعنايةِ اللهِ بهم ، ليوحِّدوه ، ويعبدوه ، فقد كانت بلادُهم وما فيها من البركات والخيراتِ آيةً وعلامةً دالةً على قدرة اللهِ تعالى ، وعلى أنَّ لهم خالقًا خلقَهم ، وأنَّ

---

(١) المقصود سلامة البدن والعقل ، والمزاج بكسر أوله : استعداد جسميّ وعقليٌّ خاص ، وكل نوعين امتزجا فكل واحد منهما مِزاج .

كلَّ الخلائقِ لو اجتمعُوا على أن يُخرِجوا من الخشبة ثمرةً لم يُمكنهم ذلك ، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناسِ الثمارِ وألوانِها ، وطعومِها ، وروائحِها ، وأزهارِها ، وفي ذلك ما يدلُّ على أنها لا تكون إلا من عالم قادرٍ سبحانه وتعالى جلَّ شأنُه ، وتباركت أسماؤُه ، دَلَّت مصنوعاتُه على كمال قدرتِه ، وكمالِ حكمتِه ، وكمالِ علمِه ، وكمالِ تدبيرِه ، وكمالِ رحمتِه ، ولفَت سبحانه العبادَ إلى آيات قدرتِه ورحمتِه ، وضَرَبَ لهم الأمثالَ ليتدبَّروا ، ويتَّعِظُوا ، ويسلكُوا مسالِكَ أهلِ النجاة ، ولنتدبرْ من سورة الرعد : ﴿ **وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾[1] .

ويقول سبحانه في سبأ : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ ، وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ (١٥) .

﴿ **آيَةٌ** ﴾ أي علامة دالةٌ على وجود اللهِ وقدرتِه ووحدانيتِه ، ثم فَسَّرها بقوله : ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** ﴾ أي من ناحيتي الجبلين ، والبلدةُ بين ذلك ، قال القُشيري : لم يُرِدْ جنَّتين اثنتين ، بل أراد من الجنَّتين يَمْنَةً ويَسْرة ، أي كانت بلادُ سبأٍ ذاتَ بساتينَ وأشجارٍ وثمارٍ تستتِرُ الناسُ بظلالها .

﴿ **كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ** ﴾ أي مَكَّنهم اللهُ من تلك النِّعم ، وأباح لهم الأكلَ من الحلال الطيبِ ، أو قالت لهم رسلُهم : قد أباح اللهُ تعالىٰ لكم أن تأكلوا من ثمار الجنَّتين ﴿ **واشكُرُوا لَهُ** ﴾ أي على مارزقَكم وأنْعَمَ به عليكم ﴿ **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ** ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ ، أي هٰذه بلدةٌ طيبةٌ ، وهٰذا من النعم أن يُرْزَقَ الإنسانُ

---

(١) آية : ٤ .

الإقامةَ في بلدة تطيبُ بها نفسُه ، ويجدُ فيها الأمنَ والسكينةَ ، وقد كانت البلدةُ طيبةَ الهواء، كثيرةَ الثمارِ والخيراتِ، ليس فيها هوامٌّ، وهٰذه كلُّها من النعم الظاهرة ، وقد أنعم اللهُ عليهم بالنعم الباطنةِ فبعَث إليهم الرسلَ يدعون إلى التوحيد وتطهيرِ القلبِ من الشرك والكفرِ ، ويَحثُّون على شُكر المنعمِ وطاعتِه ، ويُخبرون أنَّ المنعمَ الوهابَ ربٌّ غفورٌ يسترُ الذنوبَ ، ويعفو عن المسيءِ إذا تاب ، وهٰذا من أعظم النعمِ وأجلِّها ﴿ **وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ أي غفور لكم إنْ استمررتم على التوحيد ، فَجمع لهم بين مغفِرَة ذنوبِهم ، وطِيبِ بلَدهم .

كان القومُ مُسلمين مُوحِّدين ، وعاشوا آمنين في نعمة ورخاء ، وطيبِ نفسٍ، وكانت بلادُهم مَضْرِبَ الأمثالِ في الاستقرار والازدهارِ وكثرةِ الخيرات ، مع يُسْرِ سبلِ المعاش ، حتى أعرضوا عن الصراط السويِّ ، وغُرُّوا ، وبَطِرُوا ، وتَركوا توحيدَ اللهِ ، وعبادتَه ، وَغَفَلُوا عن شكره على ما أنعم به عليهم ، وَعَدلُوا إلى عبادة غيرِه ، كعبادة الشمسِ ، كما جاء في قصة بلقيسَ على لسان الهُدهدِ ، إذ قال لسليمانَ عليه السلام : ﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾[1] .

أي فزيَّن لهم الشيطانُ ما هم فِيه من الكفر ، ﴿ **فَصَدَّهُمْ عن السَّبِيلِ** ﴾ أي عن طريقِ التوحيدِ ، وقد ساءت عاقبتُهم لذٰلك ، يقول تعالى من سورة سبأ : ﴿ **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمَ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ (١٦) يعني أعرضوا عن أمر اللهِ واتِّباع رسلِه بعد أن كانوا مسلمين .

---

(١) النمل : ٢٢ : ٢٤ .

و ﴿ **العَرِم** ﴾ فيما رُوي عن ابن عباس : هو السدُّ ، فالتقدير : سيلَ السدِّ العَرِم ، وروي عنه أيضا : أنه المطرُ الشديد ، وقيل : هو الماءُ الغزيرُ فيكون من باب إضافةِ الاسم إلى صفتِه ، وقيل : العرِمُ من أسماءِ الفأْرِ ، وقد سلَّطه اللهُ عليهم فَنقَبَ السدَّ فانهار عليهم ، فَنُسِب السيلُ إليه لأنه بسببِه ، ومع انسيابِ الماءِ في أسفلِ الوادي خَرِبَ ما بين يديْه من الأبنية والأشجارِ وغيرِ ذٰلك ، ونَضَبَ الماءُ عن الأشجار التي في الجبَلين عن يمين وشمالٍ ، فَيَبِسَت ، وتحَطَّمت ، وتبدَّلت تلك الأشجار المثمرةُ الأنيقةُ النَّضِرَةُ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ .

والخَمْطُ : هو الأَراكُ ، وقيل : هو كلُّ شجَر ذي شَوك فيه مَرارة .

والأَثْلُ : شَبيهٌ بالطَّرفاء ، إلَّا أنَّه أعظمُ منه طُولًا ، ومنه اتُّخِذ مِنْبرُ النبى ﷺ ، وَمِن خَشَبِه تُصنَع الأبوابُ ونحوُها .

﴿ **وشيءٍ مِّنْ سِدْر قَلِيل** ﴾ ومن السِّدر بَرِّيٌّ يُسَمَّىٰ الضَّالَّ لا يُنْتَفع به ، ولا يَصْلحُ ورقُه للغَسُول ، وله ثمرٌ عفْصٌ لا يُؤكل ، ومنه ما يَنْبُتُ على الماء وثمرُه النَّبقُ ، وَوَرَقُه غَسُولٌ ، قال ابنُ كثير : فهٰذا الذي صار أمرُ هاتين الجنَّتين إليه ، بعد الثمارِ النضيجةِ ، والمناظرِ الحسَنةِ ، والظلالِ العميقةِ ، والأنهارِ الجاريةِ ، تبدَّلت إلى شجَرِ الأَراكِ والطَّرفاءِ والسِّدر ذي الشَّوكِ الكثير و الثمر القليل ، وذٰلك بسبب كُفرِهم ، وشِرْكِهم بالله ، وتكذيبِهم الحقَّ ، وَعُدولِهم عنه إلى الباطل ، ولهٰذا قال سبحانه : ﴿ **ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ، وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ** ﴾ . أي : عاقَبْناهم بكُفْرهم ، و « هل » هُنا جاءَت بِمَعْنَىٰ النَّفي أي ما نُجَازِي إلَّا الكَفُور ، فَفِي الكلامِ قَصْرٌ يؤكِّد المعنىٰ ويُؤثِّر في النفس .

نسأل اللهَ صحةَ العقيدةِ والتثبيتَ بالقول الثابتِ في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

٧٧ - و- فجعلناهم أحاديث .

كانت سَبأٌ تعيش في مواطنِها ومساكنِها باليمن آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقُها رغَدًا ، بفضل اللهِ ورحمته ، كانت السماءُ تُرسل ماءَها عليهم مِدْرارًا ، وتَجْري الأنهارُ من تحتهم ، وَهُدوا إلى إقامة سَدِّ مأرِبَ للانتفاع بالماء وقتَ الحاجة ، رَزَقَهم اللهُ بلدةً طيبةً خِصبة ، أخْرجت لهم أطيبَ الثمار ، مع طِيبِ هوائِها ، وَعُذوبةِ مائِها ، وسلامتِها من البعوض والذبابِ والحيةِ والعقربِ وغيرِها من المؤذيات ، وعاش أهلُها زمانًا يشكرون المنعمَ ، ويوحِّدونه ، ويُطيعونه ، ويتبعون الرسل ، فحَفِظ اللهُ عليهم النِّعْمةَ ، وزادهم من فضلِه سبحانه ، وقد أسبغ عليهم من نِعَمه في أسفارِهم ، ومسايرِهم ، ومتاجرِهم ، ومصالِحهم الخارجيةِ ، إذْ كانوا لاغِنَى لهم عن السفَر ، وقطْعِ المسافاتِ إلى بلاد الشامِ لتبادُلِ المنافعِ والخَيراتِ ، وكما آمنَهم اللهُ في مواطنهم ، ومَحالِّ إقامتِهم ، آمنَهُم بفضله في أسفارِهم ، فكان الطريقُ آمِنًا ، وكانت سُبُلُ الراحةِ وأماكنُها كثيرةً ومتقاربةً ، وَظَلُّوا في رغَدٍ وأَمْنٍ وخيرٍ واستقرارٍ والتئامِ شَمْلٍ حتى أشركوا وضَلُّوا وغُرُّوا ، وأعرضت أجيالٌ منهم عن الوفاء ، وكفَروا النعمةَ ، ولم يَعْرِفوا قَدْرَها ، وتعرَّضُوا للنِّقمة ، وضيَّعوا الشكْر ، فبدَّلوا ، وبُدِّل حالُهم ، وقالوا لبعضِ أنبيائِهم - كما جاء في بعضِ الأخبارِ - لَمَّا لفتوهم إلى نِعْمةِ اللهِ عليهم ، ودَعَوْهُم إلى الإيمان والطاعةِ ، قالوا : ما نَعْرِفُ له علينا من نِعمةٍ ، فَقُولوا لربِّكم فَلْيَحْبِسْ عنَّا هٰذه النعمةَ إنِ اسْتطاع[1] .

---

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان صفحة ٢٦٦ المجلد الثالث .

عاند القومُ وتعنَّتوا ، فأرسل اللهُ عليهم السيلَ الذي لا يُطَاقُ ، فَخَرَّبَ الديارَ ، وأغْرق الأموالَ ، وتبدَّد الشملُ ، وتفرَّق الجمْعُ فصاروا مَثَلًا .

وعن نعمة الله عليهم في سَفَرهم ومسايرِهم ومتاجرِهم يقول سبحانه من سورة سبأ : ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ** ﴾ (١٨) .

تُبين الآيةُ الكريمةُ ما كانت فيه سبأٌ من الغِبطة والنعمة ، والعيشِ الـهنيِّ الرغيد ، والبلادِ الرَّخِيَّةِ ، والأماكنِ الآمنةِ ، والقُرىٰ المتواصلةِ المتقاربِ بعضُها من بعض في أسفارهم ومسايرهم مع كثرةِ أشجارِها ، وزروعِها ، وثمارِها ، بحيث إنَّ مسافِرَهم لا يحتاجُ إلى حَمْلِ زادٍ ولاماءٍ ، بل حيث نزل وجَد ماءً وثمرًا ، ويُقيلُ في قرية ، ويَبيتُ في أُخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ، ولـهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ القُرَىٰ التِي بَارَكْنَا فِيْهَا** ﴾ قال مجاهدٌ وغيرُه : يَعني قُرى الشام ، أي إنهم كانوا يسافرون من الـيمن إلى الشام في قُرىً ظاهرةٍ متواصلةٍ .

وقال العَوْفي : القُرىٰ التي باركنا فيها : بيتُ المَقدِس ، وعنه أيضا : هي قُرىً عربيةٌ بين المدينة والشام .

وقال الـحسن : يعني بينَ الـيمنِ والشام .

﴿ **ٱلتِى باركْنا فِيها** ﴾ يعني بالمياه والأشجارِ والثمارِ والخِصْبِ والسَّعَةِ في العيشِ للأعلىٰ والأدْنىٰ ، والقريةُ : اسمٌ للموضِع الذي يَجتمع فيه الناسُ بلدةً كانت أو غيرَها ، و ﴿ **قُرىً ظَاهِرَةً** ﴾ يعني متصلةً على الطريق ، وقيل : كان على كل مِيلٍ قريةٌ بِسُوق ، وهو سببُ أَمْنِ الطريق ، وقيل : ظاهرةً أي مرتفعةً ، وقيـل ظاهـرةً : أي معروفـة ، يقـال : هـٰذا أمـرٌ ظاهـرٌ أي معــروف ،

وذلك لظهورها ، أي إذا خَرَجْتَ من هـٰذه ظهرتْ لك الأخرىٰ ، فهي ظاهرةٌ أي معروفةٌ .

ولكونها بَيِّنةً واضحةً ، يَعْرِفُها المسافرون ، قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾ أي : جعلناها بحسب ما يحتاجُ المسافرون إليه ، وكلُّ ذٰلك كان تكميلًا لِما أُوتوا من أنواعِ النَّعماءِ ، وتوفيرًا لها في الحضَرِ والسفَرِ ، فكانوا يَجِدون الأَمْنَ والزادَ والماءَ مع سُبل الراحةِ في مواطنهم وفي أَسفارهم .

﴿ سِيرُواْ فِيهَا ﴾ أي وقُلْنا لهم سِيروا فيها ، أي في هـٰذه المسافةِ فهو أمرُ تمكينٍ ، أي كانُوا يسيرون فيها إلىٰ مقاصِدِهم إذا أرادوا آمنين ، فهو أمرٌ بمعنىٰ الخَبر ، وفيه إضمارُ القول ﴿ لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ﴾ ظرفان ، أي متىٰ شِئتم من الليالي والأيام ، حالَ كونِكم ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من كل ما تكرهونه من الأعداء واللصوصِ والسباعِ بسبب كثرةِ الخلْق ، وآمنين من الجوع والعطشِ لكثرة الخيراتِ وتقاربِ المنازلِ والقُرىٰ .

وجاء عن قتادةَ : كانوا يَسيرون غيرَ خائِفين ولا جياعٍ ولا ظماءٍ ، وكانوا يسيرون مسيرةَ أربعةِ أشهرٍ في أمانٍ لا يُحرِّكُ بعضُهم بعضًا ، ولو لَقِيَ الرجلُ قاتِلَ أبيه لا يحرِّكُه .

البطَر والشرك :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1] وقال سبحانه من سورة الأنفال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) الرعد : ١١ .
(٢) الأنفال : ٥٣ .

ولقد جاء جيلٌ من سبأٍ بَطِروا ، وسَئِموا الراحةَ ،ولم يَصبروا على العافية ، وَغُرُّوا بالقوة ، فطلبوا الكدَّ ، والتَعبَ ، وتمنَّوا طولَ الأسفار ، وسألوا أن يَجْعَلَ اللهُ بينهم وبين الشامِ مفاوِزَ وَقِفارًا ليركَبُوا فيها الرواحلَ ويَحْمِلُوا معهم الزادَ ، ويَسيروا في الحرِّ والمخاوِف ، ويتطاولُوا في أسفارهم على أهلِ الضعفِ والحاجةِ : ﴿ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾[1] وذلك كما طلب بنو إسرائيلَ من موسىٰ أن يُخْرِجَ اللهُ لهم مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ من بقْلها وَقِثَّائِها وفُومِها وعَدسِها وبَصَلِها ، مع أنهم كانوا في عَيش رغيدٍ في مَنٍّ وسَلْوىٰ ، وما يشتهون من مآكلَ وملابسَ ومشاربَ ، فطلبوا الأدنىٰ والمشقةَ تَعنُّتًا وَعِنادًا لهـٰذا جاء فيهم : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[2] ، وفي سبأٍ ونحوِها جاء المَثَلُ القرآنيُّ : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[3] .. وقد قال سبحانه في حقِّ سبأ ﴿ وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾أي بكُفْرهم وشِرْكهم ، وتَرْكِهم الشكرَ ، وعدمِ الاعتدادِ بالنعمة : ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾[1] أي جعلْناهم أخبارًا وعِظَةً وعبرةً لِمَن بعدهم ، بحيث يَتحدثُ الناسُ بهم مُتعجِّبين من أحوالهم ، ومُعْتبرين بعاقبتهم ومآلِهم ، فقد تبدَّدُوا في الدنيا ، ومُزِّقُوا كلَّ مُمَزَّق ، وَجُعِلَ بينهم وبين الشامِ فَلَواتٌ ومَفاوزُ يركبون فيها الرواحِلَ ، ويتزوَّدون الأزوادَ : ﴿ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾[1] أي مزَّقناهم تمزيقًا لا غايةَ وراءَهُ بحيث تُضْرَبُ به الأمثالُ في كل فُرقةٍ ليس بعدها وِصَالٌ ، ولقد كان من سبأٍ : الأنصارُ بيثرب ، وغَسانُ بالشام ، والأزْدُ بعُمان ، وخُزاعةُ بِتِهامة .

---

(١) سبأ : ١٩ .

(٢) البقرة : ٦١ .

(٣) النحل : ١١٢ .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[1] أي إنَّ في المذكُور من قصةِ سبأٍ وما حلَّ بهم بسبب الشركِ ومعصيةِ الرسلِ والغرورِ والكبرِ عن طاعة المنعمِ الوهابِ « لآياتٍ » ودلالاتٍ عظيمةً ، وعبرًا كثيرةً ، وحُجَجًا واضحةً قاطعةً على وحدانية اللهِ عزَّ وجَلَّ وكمالِ قدرتِهِ وحكمتِه وَعِلْمِه ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أي عن المعاصي وعلىٰ الطاعات ، والصبارُ الذي يَصْبِرُ عن المعاصي ، وهو تكثيرُ صابرٍ يُمْدَحُ بهٰذا الاسم ، فإنْ أردتَ أنه صَبَرَ عن المعصية لم يُسْتَعْمَلْ فيه إلَّا صَبَّار عن كذا ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعم الإلٰهيَّةِ في كل الأوقاتِ والحالات .

جاء في مسند الإمامِ أحمدَ عن سعد بنِ أبي وقاص أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « عَجِبْتُ مِن قَضَاءِ اللهِ للمؤمن إنْ أصابَه خيرٌ حَمِدَ ربَّه وشَكَر ، وإن أصابَتْهُ مصيبةٌ حَمِدَ ربَّه وصَبَرَ ، يُؤْجَرُ المؤمنُ في كلِّ شيءٍ حتىٰ في اللُّقْمَةِ يَرْفَعُها إلىٰ فِي امرأتِه » .

وفي لفظٍ عند النَّسائي من رواية عمرَ بنِ سعد عن أبيه : « عَجَبًا للمؤمن ، لا يَقْضِي اللهُ له قَضاءً إلا كان خيرًا ، إن أصابتْه سراءُ شَكَر فكان خيرًا له ، وإنْ أصابتْه ضراءُ صَبَر فكان خيرًا له ، وليس ذٰلك لأحدٍ إلا للمؤمن » .

وكان بعضُ السلفِ يقول : نِعْمَ العبدُ الصَّبارُ الشكورُ ، الذي إذا أُعطِي شَكر ، وإذا ابتُلِي صَبر .

العدوُّ المتربصُ :

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالىٰ قصةَ سبأٍ ، وما كان من أمرهم في اتِّباعهم الشيطانَ والأهواءَ ، ووقُوعِهم في الشركِ بعد التوحيد ، والمعصيةِ بعد الطاعةِ ، والجحودِ

---

(١) سبأ : ١٩ .

بعد الشكرِ والحمدِ ، أخبر عنهم وعن أمثالهم كعادٍ وثمودَ وأهلِ مَدْيَنَ وأمثالِهم مِمَّن اتَّبَعَ إبليسَ والهَوىٰ ، وخالف الرشادَ والهُدىٰ ، وتَرَكَ التوحيدَ وطاعةَ الرسل ، أخبر سبحانه عنهم فقال : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ** ﴾[1] .

قال الحسنُ البصريُّ : واللهِ ما ضَرَبهم إبليسُ بعصًا ولا أَكْرَهَهُمْ علىٰ شَيء ، وما كان إلَّا غُرورًا وأمانيَّ دَعاهم إليها ، فأجابوه . ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ** ﴾ أي : إنما سلَّطناه عليهم لِيَظْهَر أمرُ مَنْ هو مُؤمنٌ بالآخرة وقيامِها والحسابِ فيها والجزاءِ ، فَيُحْسِنُ عبادَةَ ربِّه عزَّ وجلَّ في الدنيا ، مِمَّن هو في شكٍّ منها .

﴿ **وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ** ﴾[2] أي : عالمٌ بكل شيء ، وقيل : يحفظُ كلَّ شيءٍ علىٰ العبد حتىٰ يجازِيَهُ عليه ، وهو سبحانه : حافظُ السمواتِ والأرضِ ﴿ **وَلَا يَـُٔودُهُ حِفْظُهُمَا** ﴾ أي لا يُثْقِلُه ، ولا يَشُقُّ عليه ، وهو سبحانه حافظٌ كتابَه من التحريف والتبديل والتغيير : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ** ﴾[3] ، والحفيظُ البالغُ الغايةِ في الحِفْظ لِمَا يُريد حِفْظَه .

فسبحان مَنْ بِحِفْظِه وكَلاءَتِه سَلِم مَن سَلِم مِن المؤمنين أتباعِ الرسلِ عليهم السلامُ .

* * *

(١) سبأ : ٢٠ و ٢١ .
(٢) البقرة : ٢٥٥ .
(٣) الحجر : ٩ .

٧٨ - ز - إن في ذلك لآية .

اقتضت حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُرْسِلَ الرسل يدعون إلى الله عزَّ وجل ويأمرون الناسَ بشكر المنعمِ على نعمه ، ويُعلِّمونهم كيف يعبدونه ، وأَيَّدَ اللهُ عَزَّ وجل رسلَه بالمعجزات ، واصطفاهم ، وطهَّرهم ، فهم أَتَمُّ الناسِ خُلُقًا ، وأعظمُهم أمانةً ، وأصدقُهم ، وأعفُّهم ، وأوسعُهم صدْرًا ، وأكملُهم حِلمًا ، ولفَتَ الرسلُ الناسَ إلى آياتِ اللهِ في الكوْن ، وآياتِه في النفسِ الدالةِ على وجودِه سبحانه وعلى وحدانيته ، وقدَّموا الحججَ العقليةَ ، والبراهينَ الساطعةَ على كمال قدرتِه سبحانه ، وكمالِ حكمته ، وكمالِ سلطانه ، وكمالِ رحمتِه ، وعلىٰ أنه سبحانه المتفرِّدُ بصفات الكمالِ ، وبنعوتِ الجلالِ والجمال ، وأنَّه سبحانه ليس له نِدٌّ ولا ولَدٌ ، ولا شريكٌ ولا صاحِبة ، ولا يحتاج سبحانه في رحمته بعباده إلىٰ وسطاءَ ولا إلىٰ شفعاءَ بينه وبينهم ، وبيده وحده إرسالُ الرزقِ وإمساكُه ، وهو وحده القادرُ علىٰ جَلْب المنفعة ، وعلىٰ دَفْعِ المضرَّةِ ، وهو القاهرُ فوق عبادِه يُحْيي ويُميت ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ لا إلٰه غيْره ، ولا معبودَ بحقٍّ سِواه .

أرسل اللهُ عزَّ وجل الرسلَ رحمةً بالعباد ليرشدوهم ويسدِّدوهم ، ويُنيروا لهم الطريقَ ، ويُبيِّنوا لهم الخيرَ والشرَّ ، والحلالَ والحرامَ ، والنافعَ والضارَّ ، ويُبشِّروا أهلَ الطاعةِ والإخلاصِ بالنعيم المقيم ، ويُنذروا أهلَ المعاصِي والكُفْرِ والشركِ بالعذابِ الأليم . كما قال تعالىٰ من سورة النساء : ﴿ **رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ** ﴾[1] .

---

(١) الآية : ١٦٥ .

وإرسالُ الرسلِ وخاتَمِهم النبيِّ محمدٍ ﷺ من أعظم النعمِ على العباد ، ولولاهم لعاش الناسُ في ضَلالة وعمَىً ، وقد شَقِيَت الأممُ التي عاندت الرسلَ ، وكفَرت بأنعُم الله ؛ وسعت فى الأرض بالإفساد ، وعبدتْ مع اللهِ غيرَهُ ، أوْ ألْحَدت وجَحَدت ، ولم تشكر المنعمَ ، ولم تَعرِف للنعمة قدرَها ، وقد ضَرب الله الأمثالَ للناس في القُرآن الكريم ، يُذَكِّرُهم ، ويُعَلِّمُهم ، وقَصَّ عليهم من أخبار الماضين ما فيه عظةٌ واعتبارٌ ليرْتَدِعوا عن الباطل ، ويفكرُّوا في المآل ، ويتعلَّقوا بأسباب النجاةِ والأمنِ والسكينةِ مهتدين بنور دينِ اللهِ عزَّ وجل ، مقتدين برسوله ﷺ ، منتفعين بما جاءهم به من عند ربِّه ، وإن اللهَ عزَّ وجل يقول فيمن حادُوا عن الصراط المستقيم ، وكذَّبوا الرسل ، واتَّبعوا غيرَ سبيلِ المؤمنين من سورة النحل : ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾[1] .

أي جاءهم رسولٌ منهم يعرفون صِدْقَه ، وأمانتَه ، ويعرفون نسبَه فيهم ، ونعوتَه كما يعرفون أبناءَهم ، فلمَّا دعاهم إلى الهُدىٰ والخير ، وقدَّم لهم الدليلَ والبرهانَ كذَّبوه ، وتعنَّتوا معه ، وبالغُوا في التكذيب والإيذاء فابتلاهم اللهُ بالمِحَن والمصائبِ ، وأنزل بهم العذابَ وهم متلبِّسون بِظُلمهم أي بِشِرْكِهم وإلحادِهم وعنادِهم ، ولعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأمَرُّ .

عادٌ قَوْمُ هود :

وَمِمَّن صاروا مَثَلًا في التكذيب والعنادِ وسوءِ المصير عادٌ قومُ هودٍ فقد أمدَّهم اللهُ بالنعم الدنيوية ، وأرسل إليهم هودًا عليه السلام يدعوهم إلى شكر المنعم الوهَّاب ، ونَبْذِ الأصنام والأندادِ ، وإلى عبادةِ اللهِ وحده ، ويُذَكِّرهم

---

(١) الآية : ١١٣ .

بما هم فيه من الـخير والنعمةِ والقوةِ والغِنَى ، ليجعلوا ذٰلك في مرضاة الله عز وجل ، لِتثبُتَ النعمُ ، وتزدادَ ، ويكونوا أهلًا للسعادة الأُخروية ، ولكنَّهم كذَّبوا وعانَدُوا ، يقول اللهُ عزَّ وجلَّ من سورة الشعراء : ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ** ﴾[1] أي ألا تخافونَ اللهَ في عبادتكم غيرَهُ ؟ ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾[1] أي : إني رسولٌ من اللهِ إليكم ، أمينٌ فيما بَعثني به ، أُبلِّغُكم رسالةَ اللهِ ، لا أَزِيدُ فِيها ولا أُنْقِصُ منها ، وقيل : أمينٌ فيما بينكم ، فإنهم كانوا عَرفوا أمانتَه وصِدْقَه من قبلُ كمحمدٍ ﷺ في قُريش ، ﴿ **فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ** ﴾ أي فَاسْتَتِرُوا بطَاعةِ اللهِ من عِقابِه ﴿ **وَأَطِيعُونِ** ﴾[2] أي فيما آمُرُكم به من الإيمان والتوحيدِ وعبادةِ اللهِ عز وجل ﴿ **وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ** ﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نُصحي لكم ، بل أدَّخرُ ثوابَ ذٰلك عند اللهِ .

وكانت عادٌ تسكن الأحقافَ قريبًا من حضر موتَ ، متاخمةً لليمن ، وكان زمانُهم بعد قومِ نوح ، وقد زادهم اللهُ في الـخلْق بَسطةً ، فكانوا في غايةٍ من قوة التركيب ، والقوةِ والبطشِ الشديد ، والطولِ المديدِ ، كما يُسِّرت لـهم أسبابُ الأرزاقِ الدارَّةِ ، وكثرةِ الأموال ، مع البساتينِ والعيونِ ، والزروعِ والثمار ، وكانت عادٌ مع هٰذا يعبدون غيرَ اللهِ معه ، فَبَعَثَ اللهُ إليهم رجلًا فدعاهم إلىٰ اللهِ وحده ، وحذَّرهم نِقْمتَه وعذابَه في مخالفته ، وأنكر عليهم اشتغالَهم بما لا يُجْدي في الدنيا ، ولا في الآخرة ، كما أنكر عليهم صَرْفَهم كُلَّ جُهدِهم في غير طاعةِ اللهِ عز وجل : ﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** ﴾[3] . والريعُ : ما ارتفع من الأرض ، والتلُّ

---

(١) الآيات ١٢٣ : ١٢٥ .

(٢) آية : ١٢٦ .

(٣) الآيات : ١٢٨ : ١٣٠ .

العالي ، والآيةُ : العلامةُ ، ومن معاني المصانع : الحصونُ المشيَّدةُ ، فأنكر عليهم نبيُّهم إظهارَهم القوةَ في بناء الحصونِ والمعالمِ على الطريق يُتْعِبون الأبدانَ في ذلك ، ويُضَيِّعون الزمان ، ولا يفكِّرون في الموت والمصيرِ ، ولا يعملُون للآخرة . ثم عَادَ نبيُّهم هودٌ عليه السلامُ فدعاهم إلى تقوىٰ الله وطاعةِ نبيِّه ، ولَفَتهم إلى ما أنعم اللهُ به عليهم ليشكروه ، ويوحِّدوه ، ويَعْرِفوا قَدْرَ النعمةِ ، ويوجِّهوا الطاقةَ للخير .

﴿ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُواْ الَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1] .

إنَّها نِعَمٌ جليلةٌ ، نِعمةُ الرخاءِ والكفايةِ ، نعمةُ القوةِ والصحةِ ، نعمةُ الاستقرارِ والأمنِ ، إنها أُصولُ النعمِ الدنيويةِ ، تفضَّلَ اللهُ عزَّ وجلَّ بها ، فهو سبحانه المنعمُ ، وهو سبحانه الذي يجب أن يُعْبَدَ ويُشْكَر ولا يُكْفَر ، وتُحْفَظُ النعمُ بالشكر ، وتزدادُ بالحمد ، وتصانُ بتوجيه القُوى والطاقاتِ نحوَ الخيرِ والبرِّ ، والتنافسِ في ميادينِ التعاطفِ والتراحمِ وسائرِ المبرَّاتِ والطاعات ، أمَّا مع الكفرِ والجحودِ فتصيرُ النعمةُ نِقمةً ، ويُبدَّلون بالأمن خوفًا ، وبالرخاء شقاوةً وتعاسة ، مع سوءِ مصيرِ المكذبين الذين يُخالفون الرسلَ ، ويُلحدون ، ويعبدون غيرَ الله عَزَّ وجلَّ .

بَيَّن هودٌ عليه السلامُ لقومه الحقَّ ووضَّحه ، وأرشدهم إلى خيْري الدنيا والآخرة فسخِرُوا ، فجعلهم اللهُ آيةً للمتدبر ، وعظةً وعبرةً لذوي الضمائر والبصائرِ : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] لقد سلَّط اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم ريحًا شديدةَ الهبوبِ ، ذاتَ بَرْدٍ

---

(١) الشعراء : ١٣١ : ١٣٥ .

(٢) الشعراء : ١٣٩ .

شديد ، فكان استكبارُهم ، وغرورُهم بالقوة وبَالًا عليهم : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾[1] أي ريحًا شديدةَ البرد ، أو السَّموم ، أو الصوت : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[2] أي بَقُوا أبدانًا بِلا رؤوسٍ ، وذٰلك أنَّ الريحَ كانت تأتِي الرجلَ منهم فتقتلعُه ، وترفعُه في الـهواء ، ثم تُنَكِّسُه علىٰ أُمِّ رأسِه فتشدَخُ دماغَه ، وتَكسِرُ رأسَه ، وتُلقيه ، كأنهم أعجازُ نخْلٍ مُنْقَعِرٍ ، وقد كانُوا تحصَّنوا في الـجبال والكهوفِ ، والمغاراتِ ، وحفَروا لأنفسهم في الأرض إلى أنصافهم ، فلم يُغن عنهم ذٰلك من أمر اللهِ شيئا : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .. وقد ورد أنه لم يُسْلِمْ من عادٍ سِوىٰ ثلاثمائةِ ألفٍ وَمِئين ، وهلَك باقيهم .

ثمودُ قومُ صالـح :

وفي قصة ثمودَ مع نبيِّهم صالحٍ عليه السلامُ عِظَةٌ وعِبرَةٌ ، فقد كانوا يَعيشون في سَعةٍ ورخاءٍ ، وفي أمنٍ وطمأنينة ، أنبع اللهُ لـهم العيون ، وأَنْبَتَ لهم الـجنَّاتِ ، وأخرج لـهم الزروعَ والثمارَ ، وكانوا يعيشون في الحِجْرِ بين وادي القُرىٰ وبلادِ الشام فبعث اللهُ إليهم صالحًا يدعوهم إلى التوحيد وإلى طاعةِ اللهِ ، ويُذكِّرهم بأنعُم اللهِ عليهم فيما رزقَهم من الأرزاق الدارَّةِ ، وجعلَهم في أمنٍ من الـمحذُورات ، ويحثُّهم على تقوىٰ اللهِ واتباعِ نبيِّه ، وعدمِ طاعة الدعاةِ إلىٰ الشركِ والإلحادِ الذين يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون ، ليزيدَهم اللهُ بالشكر من نِعَمِه ، وليكونوا أهلًا

---

(١) فصّلت : ١٦ .

(٢) الحاقة : ٧ .

للسعادة الأُخروية ، ولنتدبر مالفتَهم إليه قال : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴾[1] .

إنه تذكيرٌ بالنعم ، وحثٌّ على عدم الغفلةِ عن المصير ، ليشكروا المنعمَ ، ويعبدوه ، ويُطيعوا رسولَه ، لذا قال : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[2] يعني الدعاةَ إلى الشركِ والكفرِ ومخالفةِ الحقِّ ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[3] .

وَعَظَهم نبيُّهم ، ودعاهم إلى الخير ، ودلَّهم على الهدى ، فاتَّهموهُ بالجنون وسَخِروا منه ، وطلبُوا منه آيةً ، أن يُخْرِجَ لهم من صخرةٍ أشاروا إليها ناقةً عُشراءَ لها صِفَاتٌ خاصةٌ ، فأخذ صالحٌ عليه السلامُ عليهم العهدَ لَئِن أجابَهم إلى ما سألوا لَيُؤْمِنُنَّ به ، ثم قام إلى الصلاة ، ودعا ربَّه ، فانفطرت الصخرةُ عن ناقةٍ عُشَراء على الصفة التي وصَفُوها ، فآمَن بعضُهم وكفَر أكثرُهم ، وتَمادَوْا في التعنُّت والمخالفَةِ ، وعقَروا الناقةَ بعد أن حَذَّرهم فأخذهم العذابُ ، ونَدِموا بعد الأوانِ : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4] لقد زُلْزِلَتْ أَرْضُهم زِلْزَالًا شَدِيدًا ، وجاءَتْهم صَيْحةٌ عظِيمةٌ ، فأصبَحُوا في دِيَارِهم هَلْكَىٰ جاثِمين .

فطوبَىٰ لمَن شَكَر المنعمَ ، ووحَّده ، وأطاع نبيَّه .

* * *

---

(١) الشعراء : ١٤٦ : ١٤٩ .

(٢) الشعراء : ١٥٠ و ١٥١ .

(٣) الشعراء : ١٥٢ .

(٤) الشعراء : ١٥٧ : ١٥٩ .

من سورة آل عمران

٧٩-أ - أنَّىٰ يكون لله وَلد ، وهو خالق كل شيء .

بعد أنْ بَعَثَ اللهُ نبيَّه محمدًا ﷺ هاديًا ومبشِّرًا ونذيرًا ، وخاتمًا للنبيين والمرسَلين ، وداعيًا إلى التوحيد ونَبْذِ الأندادِ والأوْثانِ ، وتنزيهِ الخالقِ العظيمِ عن الشريك ، والنِدِّ ، والولَدِ ، وعن مشابهة المخلوقين ، عَادَتْهُ طوائفُ الملحدين والمشركين مِمَّن عبدوا الأوْثانَ ، وَمِمَّن قالوا : عزيرٌ ابنُ الله أو قالوا : المسيحُ ابنُ الله ، أو ادَّعَوا أن الملائكة بناتُ اللهِ ، سبحانه وتعالىٰ جَلَّ شأْنه وتباركت أسماؤُه هو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لم يلِدْ ، ولم يُولَد ، ولم يكن له كُفوا أحدٌ .

وكانت اليهودُ يحاجُّون ويجادِلُون في أمور كثيرةٍ بالباطل ، جادلُوا في نُبوَّة محمدٍ ﷺ ، وهم يَعرفونه كما يَعْرِفون أبناءَهم ، ولكنَّهم كَتَموا الحقَّ الذي كانوا يعلَمُونه فِيما يَجِدون من نَعْتِه ﷺ في كِتابهم ، كما ادَّعَوا أنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليه السلامُ كان يهوديًّا وما أُنزِلت التوراةُ إلَّا من بعده ، ولٰكنَّهم كانوا يُجَادِلون بالباطل مع عِلْمِهم بالحق ، ومع وضوحِ الدليلِ علىٰ نقيضِ ما يَدَّعُون ، وعلىٰ غيرِ ما يتكلَّمون به من البُهتان والزور ، وكما جادل اليهودُ في أمر إبراهيمَ عليه السلامُ ، ادَّعىٰ النصارىٰ أن إبراهيمَ عليه السلام كان نصرانيًّا وما أُنْزِل الإنجيلُ إلَّا مِن بعْده عليه السلامُ ، وكان بين إبراهيمَ وموسىٰ ألفُ سَنةٍ ، وبين موسىٰ وعيسىٰ أيضا ألفُ سنة ، وما كان هؤٰلاء المجادلون يطلبون الحقَّ بالحجَّة والبُرهانِ ، ولٰكنَّهم كانوا يتمسَّكون بباطلهم ، ويحْرِصون عليه لغاياتٍ خاصةٍ ، ومقاصدَ دنيويةٍ ، وممَّا

جادل فيه النَّصارىٰ : ادِّعاؤُهم أنَّ عيسىٰ بنَ مريمَ عليه السلامُ هو اللهُ ، كما ادَّعت طوائفُ منهم أنه ابنُ اللهِ ، مع أنَّ الحقَّ ظاهرٌ في هـٰذه القضيةِ ، كما هو ظاهرٌ في جميع القضايا والمسائلِ التي جادلُوا فيها في عهد رسولِ اللهِ ﷺ ، وما زال الجِدالُ فيها قائمًا من غير استنادٍ إلى حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ ، لا مِن نَقْلٍ صحيح ، ولا منطِقٍ سديدٍ، ومن فضل اللهِ على العباد أن أَنْزلَ كتابَه لإرشاد الخلْقِ إلى الحق وإنارةِ السبيلِ أمامهم ، وقد جاء القرآنُ الكريمُ بالقول الفصْلِ في الأمور التي جادل فيها أهلُ الكتاب ، ودَحْضِ الأباطيلِ بالدليل القاطع ، والبرهانِ الساطع .

ومن القضايا التي أُثيرت : ادِّعاؤُهم أن عيسىٰ بنَ مريمَ عليه السلامُ إلـٰهٌ أو أنَّه ابنُ اللهِ ، أوأنَّه ثالثُ ثلاثةٍ ، مع أنَّ الفصْلَ في هـٰذه القضيةِ لا يحتاجُ إلَّا إلىٰ قليلٍ من التأمُّل والتدبُّر في أمرِ عيسىٰ نفسِه من مبدأِ حياتِه : فقد حملتْهُ أُمُّه ، ومرَّ بأطوار التكوينِ في رَحِمِها ، ثم بدأ مسيرةَ عُمْرِه يومَ ولدتْه ، وستنتهي هـٰذه المسيرةُ بموته عندما ينتهي أجَلُه عليه السلامُ ، وقد كان عيسىٰ رضيعًا ، ثم نَما وترعرع حتى اشتدَّ عودُه كغيره من الناس ، وقد كان عيسىٰ عليه السلامُ يُرَىٰ بالعين ، وَيَسْمَعُ الناسُ صوتَه وهو يتحدَّث إليهم ، وكان يَجلس ، ويقومُ ، ويَمشي ، ويرقُد ، ويَستريح ، ويتعبُ ، كما كان يشتري من الأسواق ما يحتاج إليه ، ويأكلُ الطعامَ ،ويشربُ الماء ، وكان يبولُ ، ويتغوَّطُ ، ويَحْزَنُ ، ويفْرَحُ ، ويصافِحُ غيرَه ، وقد اصطفاه ربُّه ، وأَنزل عليه الوحْيَ ، وأرسله إلى بني إسرائيلَ يدعوهم إلى توحيدِ اللهِ ، وعبادتِه ، وقد أُوذي في الله وصَبَر ، وعَبدَ خالِقَه وشكَره ، وخَشَع بين يَدَيْ مولَاهُ في ذلٍّ وخُضوعٍ خوفًا وطمعًا ، وهـٰذه قضيةٌ لا يُجادِل في صِحَّتها اثنان ، ولا يُخالِف فيها إنسان ، كما لا يُمكن الجِدالُ

في أنَّ عيسىٰ مِثْلُ غيره من البشر ، من لَحْم وعَظْم وعَصَبٍ ، وقد مَنَّ اللهُ عليه بعينين ولسانٍ وشفتيْن وهداه النَّجْدين ، وعَلَّمه الحِكْمةَ ، وأمدَّه بالمُعجزات الدالةِ على صِدْقه في أنه رسولُ ربِّ العالمين الذي يقول سبحانه للشيء كُنْ فيكون ، والمنفردِ بالإلٰهيةِ والسلطانِ ولا شريكَ له ، ولا ولدَ ، ولا نِدَّ ، ولا صاحبةَ .

لقد دعا القرآنُ الكريمُ أهلَ الكتابِ إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا – نحن المسلمين – وبينهم ، وهي كلمةُ العَدْلِ والحقِّ : أن لَّا نعبُدَ إلا الله ، ولا نُشْرِكَ به شيئًا ، لا وثنًا ، ولا صَنمًا ، ولا صليبًا ، ولا شخْصًا ، ولا طاغوتًا ، ولا نارًا ولا غيرَ ذٰلك من المخلوقات ، بل نُفْرِدُ العبادةَ للهِ وحده لا شريكَ له ، وهٰذه دعوةُ جميعِ الرسلِ عليهم أفضلُ الصلاة وأتمُّ التسليم ، وقَدَّم القرآنُ الكريمُ الأدلةَ والبراهينَ التي تُخاطِب العقلَ ، وتُرْشِدُه ، وتدلُّه على وحدانية اللهِ عزَّ وجل ، وَضَرَبَ الأمثالَ للناسِ للهدايةِ وإنارةِ السبيل .

وقد ساق القرآنُ الكريمُ مثلًا لهٰؤلاء الذين أنكروا إنسانيةَ عيسىٰ بنِ مريمَ عليه السلامُ متعلِّلين بأنه خُلِق من غير أبٍ ، ويَجيءُ الردُّ في هٰذا المثَلِ بأنه لا غرابةَ في ذٰلك ، لأنه إن كان عيسىٰ خُلق من غير أبٍ فإن آدمَ عليه السلامُ قد خُلق من غيرِ أبٍ ولا أُمٍّ ، قال سبحانه وتعالىٰ من سورة آلِ عمرانَ : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (٥٩) .

وقد نزلت هٰذه الآيةُ الكريمةُ بسبب وفْدِ نصارىٰ نجرانَ حين أنكروا علىٰ النبى ﷺ قولَه : « إنَّ عِيسىٰ عبدُ اللهِ وكلمتُه » فقالوا : أَرِنَا عبدًا خُلِقَ من غيرِ أبٍ ، فقال لهم النبيُّ ﷺ : « آدمُ ، مَنْ كَان أَبوه ؟ أَعَجِبْتُم مِن عِيسَىٰ ليس له أبٌ ، فآدمُ عليه السلامُ ليس له أبٌ ولا أمٌّ » فذٰلك قولُه تعالىٰ من سورة الفرقان : ﴿ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ** ﴾ أي في عيسىٰ عليه السلامُ وهو أنه خُلِق من غيرِ أب

﴿ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي في آدمَ وهُو أنه خُلِقَ من غيرِ أبٍ ولا أمٍّ ﴿ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾[1] .

وفي قصةِ نَصَارىٰ نجرانَ الذين وفَدوا علىٰ رسول اللهِ ﷺ جاء عن ابن إسحاقَ : كان وفدُ نصارىٰ نجرانَ ستين راكبًا فيهم أربعةَ عشرَ رجلًا من أشرافهم ، في الأربعةَ عشرَ منهم ثلاثةُ نَفَرٍ إليهم يَؤُول أمرُهم :

العاقبُ ، وهو أميرُ القومِ وذُو رأْيِهم ، وصاحبُ مشورتِهم ، والذي لا يُصدِرُون إلَّا عن رأْيه ، وآسمُه عبدُ المسيحِ .

والسيدُ : وهو ثِمالُهم أي الذي يقومُ بأمورهم وشئونِهم ، وصاحبُ رحْلِهم ومجتمعِهم ، واسمُه الأيْهَم .

وَأُسْقُفُّهم : أي عظيمُ النصارىٰ وحَبْرُهم وإمامُهم ، وصاحبُ مِدْراسِهم ، وهو أبو حارثةَ بنِ علقمةَ أحدُ بني بكرِ بنِ وائلٍ ، وكان ذا مكانةٍ لدىٰ ملوكِ الروم من النصرانية لِمَا يَبْلُغُهم عنه من عِلْمِه واجتهادِه في دينهم .

وقد كلَّم أبو حارثةَ رسولَ اللهِ ﷺ ، كما كلَّمه العاقبُ عبدُ المسيحِ ، والأيهمُ السيدُ وهم من النصرانية مع اختلافٍ من أمرهم ، يقولون : عيسىٰ هو اللهُ ، ويقولون : هو ولدُ اللهِ ، ويقولون هو ثالثُ ثلاثةٍ ، وكذلك قولُ النصرانية .

فهم يحتجُّون في قولهم « عيسىٰ هو اللهُ » بأنه عليه السلامُ كان يُحْيي الموتَىٰ ، ويُبْرِئُ الأسقامَ ، ويُخْبر بالغُيوب ، ويخلُق من الطِّين كهيئة الطيرِ ، ثم ينفُخ فيه فيكونُ طائرًا ، وذلك كلُّه بأمر اللهِ تباركَ وتعالىٰ : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾[2] .

---

(١) آية : ٣٣

(٢) مريم : ٢١ .

ويحتجُّون فى قولـهم : « إنَّ عيسىٰ ولَدُ اللهِ » بأنهم يقولون : لم يكن له أبٌ يُعْلَمُ ، وقد تكلَّم في المَهْد ، وهـٰذا لم يصنعْه أحدٌ من ولَد آدمَ قبله .

ويَحتجُّون في قولـهم : « إنَّه ثالثُ ثلاثةٍ » بقول اللهِ : فَعَلْنا ، وأمرْنَا ، وخَلقْنَا ، وقضيْنَا ، فيقولون : لو كان واحدًا ما قال إلا فعلتُ ، وقضيتُ ، وأمرتُ ، وخلقتُ ، ولـٰكنَّه هو وعيسىٰ ومريمُ ، ففي كلِّ ذلك من قولـهم نَزَلَ القرآن .

ثم يقول ابنُ إسحاقَ : فلمَّا كَلَّم الـحبْرانِ رسولَ اللهِ ﷺ ، قال لهما : « أَسْلِما » قالا : قد أَسْلَمنا ، قال عليه السلامُ : « إنكما لم تُسْلما فأَسْلِما » قالا : بلىٰ ، قد أَسْلمنا قبلَك ، قال : « كذَبْتُما ، يَمْنَعُكُما من الإسلام : دعاؤُكما لله ولدًا ، وعبادتُكما الصليبَ ، وأَكْلُكما الخنزيرَ » قالا : فَمَنْ أَبَواه يا محمدُ ؟ .

فأنزل اللهُ تعالىٰ في ذلك من قولـهم ، واختلافِ أمرِهم كلِّه صَدْرَ سُورةِ آلِ عمرانَ إلى بِضْعٍ[1] وثمانين آيةً منها ، فقال عزَّ وجل : ﴿ **الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ فافْتَتَح سبحانه السورةَ بتنزيه نفسِه عَمَّا قالوا ، وتوحيدِه إيَّاها بالـخلْق والأمْرِ ، لا شريكَ له فيه ، ردًّا عليهم مَّا ابْتَدعُوا من الكفر ، وجعلوا معَه من الأنْـداد ، واحتجاجًـا بقولـهـم عليهم في صاحبهم ، ليُعَرِّفَهـم بذلك ضَلالَتَهُمْ ؛ فقال : ﴿ **الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ** ﴾ ليس معه غيرُه شريكٌ في أمْره : ﴿ **ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ أيْ الحىُّ الذي لا يموتُ ، وقد مات عيسىٰ وَصُلِبَ في رَأْيِ النَّصارى أي ليس فى الـحقيقة لأنه لم يصلب ، ولم يمت بعد ، والقيوم : القائم بتدبير ما خَلق ، وقال ابنُ عباس معناه الذي لا يَحُول ولا يَزُول ، وقيل : هو

---

(١) البِضع : بكسر أوله ، فى العدد : من الثلاث إلى التسع ، تقول : بضعة رجال ، وبضع نساء ، ويركب مع العشرة فتقول : بضعة عشر رجلا ، وبضع عشرة امرأة ، وكذلك يستعمل مع العقود تقول : بضعة وثمانون رجلا ، وبضع وثمانون امرأة ولا يستعمل مع المائة والألف .

الذي لا ينام[1] ، أمَّا عيسىٰ فإنَّه قد زالَ عن مكانه الذي كان به ، وذهَب عنه إلى غيره ، وعيسىٰ ينامُ كما ينامُ سائرُ الناس .

وإن عيسىٰ عليه السلامُ مِمَّن صُوِّرَ في الأرحام ، وهم لا يَدفعون ذٰلك ولا يُنكرونه ، كما صُوِّر غيرُه من ولَد آدمَ ، فكيف يكون إلٰهًا ، وقد كان بذٰلك المَنْزِل : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ** ﴾ ، ثم قال تعالىٰ إنزاهًا لنفْسه ، وتوحيدًا لها مِمَّا جعَلُوا معه : ﴿ **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾[2] .

ثم أخْبَر السياقُ من صَدْر سورةِ آلِ عِمْرانَ بحالات عِيسىٰ التي يتقلَّبُ فِيها في عُمرِه ، كتقلُّب سائر بني آدمَ في أعمارِهم صغارًا وكبارًا إلَّا أنَّ الله خصَّه بالكلام في مهْدِه آيةً لنبوَّته ، وتعريفًا للعباد بمواقع قدرةِ الله عزَّ وجل : ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾[3] أمَّا كونُه جاء من غير أبٍ فهٰذه إرادةُ الخالقِ الحكيم يصنعُ سبحانه ما أراد ، ويَخْلُق ما يشاء من بشر أو غيرِ بشَرٍ من سائر المخلوقات التي تدلُّ على كمالِ القدرةِ وكمالِ الحكمة ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾[4] أي فلا يتأخَّرُ شيئًا ، بلْ يُوجَد عَقِيبَ الأمرِ بلا مُهْلَةٍ ، كما أراد ربُّ العباد .

---

(١) تفسير « القيُّوم » هنا عن تفسيرِ القُرطبي لا عن ابن إسحاق .

(٢) آل عمران : ٦ .

(٣) آل عمران : ٤٥ و ٤٦ .

(٤) آل عمران : ٤٧ .

ثُم ذكَر السياقُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رفَع عِيسىٰ إليْه حين اجتمعُوا لقتْلِه فقال : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾[1] ، ثم أَخْبرهم وَرَدَّ عليهم فِيمَا أَقرُّوا لليهود بِصَلْبه ، كيف رفَعه وطهَّرَه منهم : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي : إِذْ هَمُّوا مِنك بما هَمُّوا ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2] إلىٰ أن قال اللهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ أي يامحمدُ ﴿ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[3] أي في أمرِ عيسىٰ ومبدأِ ميلادِه وكيفيةِ أمرِه ، هو القاطعُ الفاصلُ الحقُّ الذي لا يخالطُه الباطلُ من الخبر عن عيسىٰ ، وعمَّا اختلفُوا فيه من أمرِه ، فلا تقبلنَّ خبرًا غيرَهُ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[4] .

* * *

(١) آل عمران : ٥٤ .
(٢) آل عمران : ٥٥ .
(٣) آل عمران : ٥٨ .
(٤) آل عمران : ٥٩ : ٦٠ .

٨٠ - ب - كَشْفُ شُبهه وَإبطال ادّعَاء.

إنَّ من آيات قدرةِ اللهِ عز وجل ، وبراهينِ وحدانيته وتفرُّدِه سبحانه بالإلٰهية ، وبالخَلْق والإبداعِ أنه جَلَّ شأنُه خَلَق آدمَ لامِن ذَكَرٍ ولا مِن أُنثىٰ ، وخَلَق حواءَ من ذَكرٍ بلا أُنْثىٰ ، وخلق عيسى من أُنْثىٰ بلاذَكر ، وخَلَق بقيةَ البريَّةِ من ذكرٍ وأنثىٰ ، ولهٰذا قال سبحانه في عيسىٰ عليه السلام : ﴿ **وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ** ﴾[1] .

ولقد كشف اللهُ عز وجل شبهةَ المفتونين بِخلْق عيسىٰ علىٰ غير السنَّةِ المعتادة ، والمحاجِّين فيه بغير علمٍ بقوله جلَّ شأنُه : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ** ﴾ أي إنَّ صفةَ عيسىٰ وشانَهُ البديعَ المنتظِمَ لغرابته في سِلْكِ الأمثالِ كصِفَةِ آدمَ وشأنِه وحالِه العجيبةِ التي لا يرتابُ فيها مرتَابٌ ولا يُنازِعُ فيها منازِع .

﴿ **خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ** ﴾ جملةٌ ابتدائية لا محلَّ لها من الإعراب مبيِّنةٌ لوجْه الشَّبه وهو الصفةُ المشْتَركةُ بين المشبه والمشبَّهِ به باعتبار أنَّ في كلٍّ من عيسىٰ وآدمَ الخروجَ عن العادة ، ويُحتَملُ أنه جِيءَ بهٰذه الجملةِ لبيان أنَّ المشبَّه به – وهو آدم – أغربُ وأخرقُ للعادة فيكونُ أقطعَ للخصْم وأحسمَ لمادَّةِ شُبْهَتِه ، فَمَن أَقرَّ بأنَّ الله عز وجلَّ خلَق آدمَ من التراب اليابسِ وهو أبلغُ في القدرة ، فلِمَ لا يُقِرّ بأن الله خَلق عيسىٰ مِنْ مريمَ من غيرِ أبٍ ، بل الشأنُ في خلْق آدمَ أعجبُ وأغربُ .

إن تَشْبِيه عيسىٰ بأبيه آدمَ عليهما السلامُ من قَبيل تشبيه الغريبِ بالأغربِ

---

(١) مريم : ٢١ .

ليكونَ أقوىٰ دفْعا لشُبهة الـخصْم ، وأَشدَّ إبطالًا لادِّعائِه ، إذْ لوجاز ادِّعاءُ البنُوَّة في عيسىٰ لكان جوازُ ذٰلك في آدم بالطريق الأولىٰ ، ومعلومٌ بطلانُ دَعْواها في آدم بالاتِّفاق فدعوىٰ البنُوَّة في عيسىٰ أشدُّ بُطْلانًا ، وأظهرُ فسادًا ، وفي هٰذا التشبيهِ دعوةٌ للعقل السليمِ أن يقارنَ بين المشبَّهِ وهو عيسىٰ والمشبَّهِ به وهو آدمُ لتصحيح أمرٍ عظيمٍ وهوالتوحيدُ الخالصُ وإزالةِ كلِّ شُبهةٍ من طريقه ، وقد بعَث اللهُ عز وجل جميعَ الرسلِ منذ آدَم ونوحٍ إلى إبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ ومحمدٍ عليهم جميعا أفضلُ الصلاةِ والسلامِ بعثهم اللهُ ليدعُوا الناسَ إلى توحيد اللهِ عز وجل وتنزيهه سبحانه عن مشابهةِ المخلوقين ، وعن الـحاجة إلىٰ الشريك أو الولدِ ، واللهُ عـز وجلَّ يقول لنبيه محمدٍ ﷺ : ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ * وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ** ﴾[1] .

وقولُه سبحانه ﴿ **كُن فَيَكُونُ** ﴾ قال ابنُ عباس أي : كُنْ فكَانَ ، فأُريد بالمستقبل الماضي ، والمستقبلُ يكون في موضع الماضي إذا عُرِفَ المعنىٰ ، والتعبيرُ بالمضارع مع أنَّ المَقَامَ مقامُ المُضيِّ لتصوير ذٰلك الأمرِ بصورةِ المشاهَدِ الذي يقعُ الآن إيذانًا بأنه من الأمور المستغرَبَة العجيبةِ الشأنِ ، وقيل معناه : ثم قال له كُن ، واعلَمْ يامحمدُ أنَّ ما قالَ لَهُ ربُّك كنْ فإنه يكونُ لا محالةَ .

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلَق آدمَ من تراب ثم قال له : صِرْ بَشَرًا فصار ، وإنَّ خَلْقَ عِيسىٰ ليس بأعجبَ من خلق آدمَ ، وهما عَبْدانِ لله عزَّ وجلَّ أوجدَهُما من

---

(١) الأنبياء : ٢٥ : ٢٨ .

العَدَمِ ، وأنْعم عليْهما بِنعَمِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، وأمرهُما بتوحيده وشكرِه فأطاعا ربَّهما ، وخضعا لأمره ، وشكراه على نعَمِه ، وَدَعَوَا غَيْرَهُما إلى ماهُدوا إليه ، ولفتا إلى مصنوعات اللهِ الدالةِ على وجوده سبحانه ووحدانيته ، وطلَبا كما طلب سائرُ المرسلين أن يتفكَّر ذوو العقولِ في خلْق السمٰواتِ والأرضِ ، وأن يتأمَّلوا عجائبَ الكواكبِ والنجومِ والبرِّ والبحرِ ، ليستدلُّوا بعظمَة المخلوقاتِ وتناسقها على عظمة الخالِق وكمالِ سلطانِه، وليعلَموا أنَّ خَلْقَ السمٰواتِ والأرضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ ومنهم آدمُ وعيسىٰ وحواءُ ، فالجميعُ عبيدُه سبحانه وتعالَىٰ وتحت قهْرِه وسلطانِه ، والجميعُ في أشدِّ الاحتياجِ إلىٰ رحمة اللهِ وعفْوِه ، وقد قال آدمُ عليه السلامُ : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾[1] .

وقد نادىٰ عيسىٰ بنُ مريمَ بتوحيد اللهِ ، وحذَّر بني إسرائيلَ من الشرك وخوَّفهم من عاقبة الاعتقادِ بأن لله ولدًا أو نِدًّا ، ودعاهم إلى عبادة اللهِ وحده وقال لهم :﴿ **يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾[2] .. لقد أنْذر المسيحُ كلَّ مَن قال أو يقولُ : إنَّ اللهَ هو المسيحُ بنُ مريمَ أو إنَّه ابنُ اللهِ أو إنه ثالثُ ثلاثة ، أنذر هٰؤلاء بالخلود في نار جهنمَ ، وفي يوم القيامةِ لا يَجدون شفيعًا ولا نصيرًا إذا ماتوا على شِركهم ومعتقدِهم الباطلِ .

إن اللهَ سبحانه وتعالىٰ هو خالقُ كلِّ شيء ، فكيف وَمِنْ أَيْنَ يكونُ له ولدٌ أو شريك ؟ وإنَّ الذين افتَرَوْا واختلقُوا لله سبحانه البَنِين والبناتِ لِفي

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

(٢) المائدة : ٧٢ .

ضلال بعيد ، والله سبحانه وتعالىٰ منزَّهٌ عن الحاجة إلى الولد والصاحبةِ وعمَّا يَفتري أهلُ الشركِ وعبادةِ المخلوق ، يقول الله عز وجلَّ لإرشاد الخلقِ وبيانِ بطلانِ معتقداتِ الذين جعلوا لله شريكًا أو ولدًا : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1] . ثم أمر الله عبادَه بتوحيده وعبادِته وحده لأنه سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ ومن المخلوقين عيسىٰ بنُ مريمَ وعُزَيرُ والملائكةُ فوجب علينا أن نشكُرَ الله ، وأن نطيعَه ، وأن نُخلِصَ العبادةَ له سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾[2] .

إنَّ جميعَ الأنبياءِ والرسلِ ومنهم عيسىٰ عليه السلام دعَوْا الناسَ إلى العِلْم بالله وبما ينبغي له من صفات الكمالِ ونعوتِ الجلالِ والجمال ، وإلىٰ أن يكونوا رَبَّانيين أهلَ عبادةٍ ، وأهلَ تقوىٰ ، وأهلَ علمٍ وفقهٍ وحكمةٍ ، وأمروهم بالتوحيد ، وخوَّفوهم من الشرك ، وإنَّ الرسولَ محمدًا ﷺ لمَّا دعا نصارىٰ نجرانَ إلى الإسلام قال أحبارُهم : أتريدُ يامحمدُ أن نعبدَك كما تعبدُ النصارىٰ عيسىٰ بنَ مريمَ ؟ فقال رسولُ ﷺ : « مَعَاذَ اللهِ أَنْ نعبدَ غيرَ الله ، أو أن نأمرَ بعبادة غيرِه ما بذٰلك بعثَني ، ولا بذٰلك أمرني » أو كما قال رسولُ الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل في ذٰلك : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟

---

(١) الأنعام : ١٠٠ و ١٠١ .

(٢) الأنعام : ١٠٢ .

﴿ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] أي ما ينبغي لبشَرٍ آتاهُ اللهُ الكتابَ والحكْمَ والنبوةَ مِثْلِ عيسىٰ عليه السلامُ أن يقولَ للناس : اعبدوني من دونِ اللهِ ، أي مع اللهِ إِذْ إِنَّ هـٰذا لا يصلحُ لأحد من الناس لالنبيٍّ ، ولا لمرسَل ، ولا لغيرِهم بطريق الأَوْلَىٰ والأَحْرَىٰ .

وإِنَّ أحدًا لا يملِكُ من اللهِ شيئًا إِنْ أراد سبحانه أن يُهلكَ مَن في الأرض جميعًا ، وأن يأمرَ في عباده بما يُريد ، وهو سبحانه مالكُ السمـٰواتِ والأرضِ ، وما بينهما ، ومَن فيهما وما فيهما ، وجميعُ العبادِ ومنهم عيسىٰ وعُزَيرُ واقعٌ تحت قهرِه سبحانه وسلطانهِ ، فكيف يقال : إِنَّ اللهَ هو عيسىٰ بنُ مريمَ ، وهو لا يملكُ من أمرِ نفسِه شيئًا ، ولا حولَ له ولا قوةَ ، إِنَّما هو سفيرٌ بين اللهِ وخَلْقِه أدَّىٰ ما أدَّاه إِخوانُه الرسلُ ما حمِلُوه من الرسالة ، وأبلغُوا الأمانةَ ، وقاموا بذلك أتمَّ قيام ، ونصحوا الخلْقَ ، وبلَّغوهم الحقَّ ، واللهُ عزَّ وجلَّ يقول تنبيهًا للعباد وتحذيرًا ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] وإِنَّ المسيحَ عبدٌ من عباد اللهِ وخَلْقٌ من خَلْقِه ، وقد حكم اللهُ عزَّ وجلَّ بكفر مَن يَدَّعِي في المسيح بنِ مريمَ أنه هو اللهُ ، تعالىٰ اللهُ عن قولهم عُلوًّا كبيرًا .

إِنَّ الثباتَ على اليقين في أمر عيسىٰ بنِ مريمَ عليه السلامُ بأنه عبد من عباد اللهِ آتاه اللهُ الكتابَ ، وجعله نبيًّا ، وبأَنَّ خَلْقَهُ من غير أبٍ ليس بأعجبَ من خلْقِ آدمَ من تراب ، إِنَّ الثباتَ على هـٰذا اليقينِ هو الحقُّ الذي ينبغي لأهل العقلِ

---

(١) آل عمران ٧٩ و ٨٠ .

(٢) المائدة : ١٧ .

والبصيرةِ أن يكونوا عليه ، قال اللهُ سبحانه وتعالىٰ بعد المَثَل الذي شبَّهَ فيه عيسىٰ بآدمَ : ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ والمخاطَب النبيُّ محمدٌ ﷺ ، والمرادُ أمتُه ، لأنه ﷺ لم يكن شاكًّا في أمر عيسىٰ عليه السلامُ ، وقال الخازن : فهو كقوله تعالىٰ أي في خطاب النبي والمرادُ الأمةَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[1] والمعنىٰ : فلا تكن من الممترين يا أيها السامعُ كائنًا مَنْ كان لهٰذا التمثيلِ والبرهانِ ، فهو من باب الحثِّ على زيادة الثباتِ والطمأنينةِ ، وتنويرِ السبيلِ لمن فُتنوا بخَلْق عيسىٰ علىٰ غير السنَّةِ المعتادةِ ، لتزولَ الشبهةُ ، ويعودوا إلى الحق والإيمانِ بأن عيسىٰ بشَرٌ ، وبأنه آيةٌ على قدرة الله عز وجل : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[2] .

وإن عيسىٰ بنَ مريمَ مُتَبرٍّ مِمّن كذَبوا علىٰ الله وعلىٰ رسوله ، وجعلوا لله نِدًّا وصاحبةً وولَدًا : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾[3] .

إنَّ عيسىٰ نبيٌّ مُرْسَلٌ صادقٌ أمينٌ وما قال للناس إلَّا ما أمره اللهُ بإبلاغه وهو : أن يعبدُوا اللهَ وحده ، ويُخلِصوا العبادةَ له ، ويُطهِّروا الاعتقادَ من أدران الشركِ وشوائبِه : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[4]

---

(١) الطلاق : ١ .

(٢) مريم ٣٤ : ٣٦ .

(٣) المائدة : ١١٦ .

(٤) المائدة : ١١٧ .

أي هـٰذا الذي قلتُ لهم ياربّ .

هـٰذا هو الحقُّ ، وهو العِلمُ الصحيحُ ، الذي يُطَهِّرُ القلبَ ، ويُنير العقلَ ، ويرشدُه ، ويُسدِّدُه ، وقد قال الله لنبيِّه : ﴿ **فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُم وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِين** ﴾ .

فإلىٰ قصة المباهلة .

* * *

٨١ ـ ج ـ قصة المباهلة ... والدعوة إلى كلمة سواء .

الابتهالُ إلىٰ اللهِ معْناه : التضرُّعُ والاجتهادُ في الدُّعاء ، وتقول : ابتَهل القومُ : باهَل بعضُهم بعضًا أي اجتمعُوا فتَداعَوْا فاستنزلُوا لعنةَ اللهِ على الكاذب أو الظالمِ منهم ، وفي حديث ابنِ عباس : « مَن شَاء باهلْتُه ، إنَّ الحقَّ مَعي »[1] ، وفي حديث أبي بكر : « مَن وَلِي من أمُور الناسِ شيئًا ، فلم يُعْطِهم كتابَ اللهِ ، فعليه بَهْلَةُ ٱللهِ[1] أي لعْنَتُه مِنْ بَهَل : بفتح وسَطه بَهْلًا ، يقال : بَهَلْتُ فلانًا : أي خَلَّيتُه وإرادتَهُ ، وبَهَلْتُ الشيطانَ لَعَنْتُه ، ويقال : أبْهَلَه بمعنىٰ بَهَلَهُ ، وتَباهَل القومُ : ابْتَهَلُوا ، وتبهَّل القومُ : تَباهَلُوا ، وفي التنزيل : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[2] .

وإنَّ قصةَ مباهلةِ الذين عانَدُوا الحقَّ في أمرِ عيسىٰ بعد تقديمِ البرهانِ علىٰ أنه بشرٌ ، وبعد ضرْبِ المَثَلِ له بأبيه آدمَ ، وظهورِ الحقِّ في أنَّ خلْقَ عيسىٰ من غير أبٍ ليس بأعجبَ من خَلْق آدمَ من تراب ، وكِلاهما عَبْدانِ للهِ عزَّ وجل وآيتَان من الآيات الدالةِ على قدرةِ خالقِهما من العدم ، الذي يقول للشيء كن فيكون سبحانه وتعالىٰ جل شأنه ، إنَّ قصةَ المباهلةِ جاءت في سياق الآياتِ من سورة آلِ عمرانَ في المحاجَّة بين رسولِ الله ﷺ ووفد نصارىٰ نجران ، يقول اللهُ عز وجل لنبيِّه : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ ﴾[2] أي فَمَن جادَلكَ وخاصمَك يا محمدُ في عِيسىٰ مِن وفْد نصارىٰ نجرانَ إذْ هُم المُتَصدُّون لذلك ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾[2]

---

(١) النقل من شواهد المعجم الوسيط مادة : بهل .

(٢) آل عمران : ٦١ .

أي الآيات الموجبةِ للعلم بأنَّ عيسىٰ عبدُ الله ورسولُه وآيةٌ من آياتِه سبحانه وتعالىٰ ﴿ فَقُلْ ﴾[1] أي لمَنْ حاجَّك يا محمدُ ﴿ تَعَالَوْا ﴾[1] أي أَقْبِلُوا بالرأي والعزيمةِ أي لا بالأبدان لأنهم كانوا مُقْبلين وحاضِرين عنده ﷺ بأجْسَامهم و« تَعَالَ » فِعْلُ أمرٍ جَامِدٌ لا ماضِيَ له ولا مُضارِعَ ، وهو في الأصْل لطلَبِ الإقبالِ إلى مكانٍ مُرتفِع ، ثم تُوُسِّعَ فيه فاستُعْمِل في مجرَّد طلبِ المجيءِ .

﴿ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ أي يدْعُ كلٌّ منا ومنكم أبناءَه ونساءَه ونفسَه للمباهلة ، والفعلُ « نَدْعُ » مجزومٌ في جوابِ شرْطٍ محذوفٍ دَلَّ عليه فِعْلُ الطَلَبِ المذكورُ ، وعلامةُ جَزْمِهِ حَذْفُ الواوِ والضمةُ قَبْلَها دليلٌ عليها ، والتقديرُ : أي تَعَالَوْا فإن تَأْتُوا نَدْعُ أبناءَنا ، ولايجوزُ أن يُقدَّر فإن « تَتَعَالَوْا » لأن الفعْلَ تَعالَ أمرٌ جامدٌ فيقدَّر مضارعُه أو ماضيه بمعناه مِثْل : فإن تَأْتُوا أو تُقْبِلُوا[2] ، ولهٰذا تَوَهَّم بعضُهم أنَّ « تَعَالَ » اسمُ فِعْلِ أمْر .

وقد اكتُفِيَ في الآية الكريمةِ بذكْر الأبناءِ عن ذكْر البناتِ ، والآيةُ تشملُ الأولادَ بنينَ وبناتٍ ، وقد ورد أنَّ النبيَّ ﷺ جاء بالحَسَن والحُسين وفاطمةُ تَمْشي خلفَه ، وعليٌّ خلْفَها ، وهو يقول : « إنْ أنا دعوْتُ فأَمِّنُوا » ومعنىٰ قولِه : ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أي نتضرَّعْ في الدعاء كما نُقِل عن ابن عباس ، وقال أبو عبيدةَ والكسائيُّ : نَلْتَعِنْ ، وأصلُ الابتهالِ : الاجتهادُ في الدعاء باللعْن وغيرِه ، والأصلُ في البُهْلَةِ – بضمِّ أوَّله والبَهْلَةِ بفتْحِه – كما قيل – اللعنةُ والدعاءُ بها ، ثم شاعَت في مُطْلَقِ الدعاءِ ، وَعَدَّ صاحبُ أساسِ البلاغةِ من المَجَاز قولَنا :

---

(١) آل عمران : ٦١ .

(٢) وكذلك : فإن أتيتُم أو أقبلتُم ، فالطلَبُ في الآية الكريمة يُقَدَّر بعده فِعل شرْطٍ بمعناه لا بلفظه ومعناه ، لأن « تعال » أمرٌ ليس له ماضٍ ولا مضارِعٌ من لفظِه .

ابْتَهَلَ فلانٌ إلى الله : أي تضرَّع واجتهَد في الدعاء اجتهادَ المُبْتهلين ، وقال الراغبُ : بَهْلُ الشيءِ والبعيرِ إهمالُه وتخليتُه ، ثم استُعمِل في الاسترسالِ في الدعاء سواءٌ كان لعْنًا أَوْ لا إلّا أنَّه يُفسَّرُ في الآية باللَّعْن لأنه المرادُ الواقعُ كما يُشير إليه قولُه تعالىٰ : ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ أي في أمرِ عيسىٰ عليه السلامُ ، فإنه معطوفٌ على « نَبْتَهِلْ » مُفسِّرٌ للمراد منه ، أي نقول : لعنةُ اللهِ على الكاذبين ، أوْ : اللهُمَّ الْعَنِ الكَاذبين .

قال ابنُ إسحاقَ ، فلمَّا أَتَىٰ رسولَ اللهِ ﷺ الـخبرُ من الله ، والفصلُ من القضاءِ بينه وبين وفدِ نصارىٰ نجرانَ ، وأُمِرَ بما أُمِر به من مُلاعنتِهم ، إنْ رَدُّوا ذٰلك عليه – أي إنْ أَبَوا الإيمانَ بأنَّ عيسىٰ عليه السلامُ بشَرٌ وآيةٌ علىٰ قدرة اللهِ كأبيه آدمَ ، فلَمَّا نزلت آيةُ المباهلةِ – دعاهم إلى ذٰلك ، فقالوا : دعْنا ننظُرُ في أمرنا ، ثم نأْتيك بما نُريد أن نفعَل فيما دعوتَنا إليه ، فانصرفُوا عنه ، ثم خَلَوْا بالعاقب وكان ذا رأْيهم ، فقالوا : يا عبدَ المسيح ، ماذا ترىٰ ؟ فقال : واللهِ ، يامعشرَ النصارىٰ لقد عرفتُم أنَّ محمدًا لَنَبِيٌّ مُرْسلٌ ، ولقد جاءكم بالفصل من خبرِ صاحبِكم – أي عيسىٰ – ولقد علِمْتُم أنه مَا لاعَنَ قومٌ نبيًّاقطّ فبقِىَ كبيرُهم ، ولا نبَتَ صغيرُهم ، وإنَّه لَلاسْتِئْصالُ منكم إنْ فعلتُم ، فإنْ كنتُم أبيتُم إلَّا إلْف دينِكُم والإقامةَ على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم – أي عيسىٰ – فوادِعُوا الرجلَ – أي صالِحُوا وهادِنُوا محمدًا – وانْصرِفُوا إلى بلادكم .

فأتَوْا النبيَّ ﷺ ، فقالوا : يا أبا القاسمِ ، قد رأْينا أن لَّا نلاعِنَكَ ، ونتركَكَ على دينِك ، ونرْجِعَ علىٰ ديننا .

وعند الإمام أحمدَ ، قال ابنُ عباس : لو خَرج الذين يُباهِلون رسولَ اللهِ ﷺ لرَجَعُوا لا يَجِدُون مالًا ولا أهْلًا .

وَرُوي أنّ أُسْقُفَّ نجرانَ لمَّا رأىٰ رسولَ اللهِ ﷺ مُقبلًا ومعه عليٌّ وفاطمةُ والحسنَان رضِيَ اللهُ عنهم ، قال : يامعشرَ النصارىٰ ، إنِّي لأرىٰ وجُوهًا لو سألُوا اللهَ تعالىٰ أن يُزِيلَ جَبلًا من مكانه لأزالَهُ ، فلا تُبَاهِلُوا ،وَتَهْلِكُوا .

وفي هـٰذه القصةِ أوضحُ دليلٍ على نبوتِه ﷺ وَإلّا لَمَا امتنَعُوا عن مباهلتِه ، قال القرطبيُّ : هـٰذه الآيةُ مِن أعلام نبوةِ محمدٍ ﷺ ، لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبَوْا منها ، ورَضُوا بالجزية بعد أن أعلَمهم كبيرُهم العاقبُ أنهم إنْ باهلُوه اضطَرَمَ عليهم الوادي نارًا ، فإن محمدًا نبيٌّ مرسَل ، ولقد تعلمون أنه جاءَكم بالفصْل فى أَمْر عيسىٰ ، فتركوا المباهلةَ وانصرفُوا إلى بلادهم على أن يُؤَدُّوا في كل عامٍ ألفَ حُلَّةٍ في صَفَر ، وألْفَ حُلَّةٍ في رجَب ، فصالحهم رسولُ اللهِ ﷺ علىٰ ذٰلك ، ورجعُوا علىٰ دينِهم .

أَقَامَ القرآنُ الكريمُ الحجةَ العقليةَ على الغَالين في عيسىٰ بنِ مريمَ عليه السلام بِجَعْلِه ربًّا وإلـٰهًا ، ثُم دُعِيَ فريقٌ من علماء النَّصارىٰ وَرُهبانِهم إلىٰ المباهَلة وسؤالِ اللهِ أَنْ تُصَبَّ لعنتُه علىٰ الكاذب من الفريقين ، فخافُوا وأبَوْا لإيمانهم بصدْقِ النبيِّ محمدٍ ﷺ ، وعِلْمِهم من التوراة والإنجيلِ أنه النبيُّ العربـيُّ المنتظرُ ،وقالوا فيما بينهم : لا نلاعنُه ،فواللهِ لئِنْ كان نبيًّا فلاعنَنا لا نُفلِحُ أبدًا ولا عَقِبُنا مِن بَعْدنا ، ثم إنَّ وفدَ النصارىٰ ذهب إلى يهودِ المدينةِ فاستشاروهم في أمر الملاعَنة ، فأشاروا عليهم أن يُصالحوا النبيَّ ﷺ ، ولا يُلاعِنُوه ، وقالوا : هو النبيُّ الذي نجدُه في التوراة .

بعد هـٰذا أكَّد السياقُ من سورة آلِ عمرانَ أنَّ ما جاء في شأن عيسىٰ مِمَّا قَصَّه اللهُ علىٰ نبيِّه محمدٍ ﷺ هو الـحقُّ الذي لا مَعْدِلَ عنه ولا مَحِيدَ ، وما عداه مِثْلُ ظَنِّ القائلين باتِّهام الطاهرةِ النقيةِ مريمَ كما أشارت إليه الآيات من سورة مريم :

﴿ قَالُوا يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا * يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[1] ومِثْلُ قَوْلِ الغَالين فيه : إنَّه اللهُ أو ابنُ اللهِ فباطلٌ وزورٌ غيرُ مقبولٍ لدىٰ أصحابِ العقولِ السليمة ، والفكرِ المستقيم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾[2] أي هـٰذا الـذي قصصْنـاه عليك يا محمدُ في شأنِ عيسىٰ من أنَّه آيةٌ كأبيه آدمَ ، وأنه عبدُ الله اصطفاه وأرسلَه يدعو الناسَ إلى توحيد الله .

﴿ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[2] و ﴿ مِنْ ﴾ زائدةٌ للتوكيد ، والمعنىٰ وما إلـٰهٌ إلا اللهُ الذي خَلق كلَّ شيء وليس كمثْلِه شيءٌ ، فأيَّ معنىً تَتَصَوَّرُ من معاني الألوهيةِ فهو له وحدَه .

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغْلَب و ﴿ الحَكِيمُ ﴾ ذو الحِكْمة ، وله سبحانه صفاتُ الكمالِ لا يُساويه أحدٌ في عِزَّته في مُلْكِه ، ولا يُساميه مُسَامٍ في حِكْمتِه في خَلْقه فيكونَ شريكًا له في أُلوهيته ، أو نِدًّا في رُبوبيته ، وما الولَدُ كما يعلمُ الناسُ إلَّا نسخةٌ من الوالد يُساويه في جِنسه ونَوْعِه ، وهو تعالىٰ فَوْقَ الأجناس والأنواع ، وكُلُّ ما خَطَر ببالِكَ فالله بخلاف ذٰلك ، له سبحانه كمالُ القدرة ، وكمالُ الحِكمة ، وكمـالُ العِلم ، وكمالُ السلطان ، وجميعُ الـخلْق عبيدُه وتحت قهْرِه وسلطانِه ، فأنَّىٰ يكونُ له ولد ؟ أو شريكٌ ؟ أو صاحبةٌ ؟ أو نِدٌّ ؟ .

وقد جاء الخبرُ مؤكَّدًا بإنَّ ولامِ الابتداءِ لدفْع أيِّ تَوهُّم ، وإزالةِ كلِّ شُبْهةٍ ،

---

(١) مريم : الآيتان : ٢٧ و ٢٨ .

(٢) آل عمران : ٦٢ .

وقَطْعِ الطريقِ أمامَ كلِّ مجادلٍ مُتَرَدِّدٍ أو مُنْكِرٍ للحقِّ الواضحِ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ .

فقد أُكِّد الكلامُ بإنَّ الناسخةِ ولامِ الابتداءِ المزَحْلَقَةِ إلى الخبرِ لئلّا يتوالىٰ حَرْفَا التأكيد، و﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ صفةُ الخبرِ وهو ﴿ ٱلْقَصَصُ ﴾ ، وهٰذه الصفةُ هي المقصودةُ بالإفادة ، أي : إنَّ هٰذا هو الحقُّ لا ما يدَّعيه النصارىٰ مِن كونِ المسيح عليه السلامُ إلٰها ، أو ابنَ اللهِ سبحانه وتعالىٰ عمّا يقولُه الظالمون عُلُوًّا كبيرًا ، كما جاء التأكيدُ بإنَّ واللام في ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ وفي العبارتين قوةٌ وتأكيدٌ – أيضًا – مَنْشؤُه القصرُ في : ﴿ لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ ﴿ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ إذ الاسمان فيهما مَعْرِفتان ، والجملةُ الثانيةُ تذييل لما قبلها ، والمقصودُ منها قَصْرُ الإلٰهيةِ عليه تعالىٰ ردًّا على النصارىٰ ، فتأمَّل التأثيرَ لما في الآيةِ الكريمةِ من إعجازٍ وإيجازٍ وثَرَاءٍ في المعاني وقوةِ التعبيرِ مِمَّا يَعْجَزُ البلغاءُ عن الإتيان بمثلِه .

ثم أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ مَن عدَلَ عن الحق إلى الباطل ، ولم يَقْبَلْ عقيدةَ التوحيد الخالصِ أَخْبَر أنه هو المفْسِدُ ، واللهُ عليمٌ به وسَيَجْزِيه علىٰ ذٰلك شَرَّ الجَزاء ، وهو سبحانه القادرُ الذي لا يفوتُه شيء ، ولنتدبر قولَه تعالىٰ : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ وهؤلاء هم أشْرارُ الناسِ لأنهم يُفْسِدُون العقائدَ بإصرارهم على الباطل تقليدًا وجمُودًا لا بُرهانَ لهم ، ولا بصيرةَ تساندُ فِكْرَهم ، وإن إفسادَ العقائدِ إفسادٌ للعقل وللضمائر وهو رأسُ كلِّ فساد .

ثم أمر اللهُ نبيَّه أن يدعُوَ نصارىٰ نجرانَ وغيرَهم مِمَّن هم علىٰ معتقداتِهم ويدعُوَ اليهودَ إلى الكلمة العادلةِ المستقيمةِ التي ليس فيها ميْلٌ عن الحق وهي أنْ يَعبدوا

اللهَ وحده ، ولا يُشرِكوا به شيئًا لا وثنًا ، ولا صنمًا ، ولا صليبًا ، ولا طاغوتًا ولا نارًا ، ولا شيئًا بل نُفْرِدُ العبادةَ لله وحده ، ولا نَعْبدُ الأشخاصَ ولا نَقْبَلُ فَتاواهم وأحكامَهم في تَحْريمِ ما أحلَّ اللهُ ولا تحليلِ ما حَرَّم اللهُ فقال سبحانه : ﴿ **قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ (٦٤) .

* * *

٨٢ - د - ما ضربوه لك إلا جدلًا

جاء في بعض كتبِ التفسيرِ أنَّ بعضَ المشركين الذين يعبدون الملائكةَ لمَّا سَمِعوا قولَه تعالى : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ قالوا : نحنُ أهْدىٰ من النصارىٰ ، لأنهم عبدوا آدميًّا ، ونحن نعبدُ الملائكة ، فنزلَ قولُ اللهِ تعالىٰ من سورة الزخرف : ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ** ﴾ (٥٧ : ٦٠) .

قال صاحبُ روح المعاني : فالمَثَلُ ما في قوله تعالىٰ : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ** .. ﴾ الآية ، والضاربُ هو اللهُ تعالىٰ ، أي ولمَّا بَيَّن اللهُ سبحانه حالَ عِيسىٰ العجيبةَ اتَّخذه قومُك يا محمدُ ذريعةً إلى ترويج ما هم فيه من الباطل : بأنَّه مع كونِه مخلوقًا بشَرًا قد عُبِدَ ، فنحن أهْدىٰ حيث عَبَدْنا ملائكةً مطهَّرين ، مُكْرَمين عليه ، وهو الذي عَنَوْه بقولهم : ﴿ **ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ** ﴾ فأبطل اللهُ تعالىٰ ذٰلك بأنه مُقَايَسَةُ باطلٍ بباطل ، وأنَّهم في اتِّخاذهم العبدَ المنعَمَ عليه إلٰهًا مُبطِلُون مِثْلُكم في اتِّخاذ الملائكةِ ، وهم عبادٌ مكرَمُون ، ثم قال سبحانه : ﴿ **وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ** ﴾ دلالةً على أنَّ الملائكةَ عليهم السلامُ مخلوقون مثلُ عِيسىٰ عليه السلام ، وأنه سبحانه قادرٌ علىٰ أعجبَ من خلْقِ عيسىٰ ، وأنَّه لا فرقَ في ذٰلك بين المخلوقِ توالُدًا ، وإبْداعًا ، فلا يصلحُ القسمان للإلٰهية .

لقد أراد هـٰؤلاء الـمجادلون من مشركي العربِ أن يقولوا : إنَّهم أصَحُّ نظَرًا ، وأسلمُ عقيدةً ، وأصوبُ اتجاهًا ومنطِقًا من النصارىٰ الذين يعبدون عيسىٰ بن مريم ، لأنهم يعبدون الملائكةَ ، أَمَّا هم فإنّهم يعبدون بشَرًا ، ولو أنهم تفكَّروا في الأمر ، وتدبروا في حالهم تدبُّرَ طالبِ الـحقِّ لأدركوا أنهـم على باطل ، وأنَّ قِياسَهم يؤدِّي إلى مساواتهم بِمَن عبَدُوا المسيحَ لأنهم عبدُوا مخلوقًا ، والنصارىٰ تعبدُ مخلوقًا ، وكِلا الفَرِيقَين على ضلال لأنه لا معبودَ بحقٍّ سِوىٰ اللهِ تعالىٰ خالقِ كلِّ شيءٍ ، ومنهم الملائكةُ وعيسىٰ ابنُ مريمَ وعزيرُ ، واللهُ واحدٌ لا شريكَ له في مُلكه ، ولا منازعَ له في سلطانه يفعلُ ما يشاء ، ويحكُم ما يريد .

قال صاحبُ الكشَّاف : ويجوزُ أن يقولوا لمَّا أُنكَر عليهم قولَهم : الملائكةُ بناتُ اللهِ ، وعبدوهم ؛ ما قلنا بِدْعًا من القول ، ولا فعَلْنا نُكْرًا من الفعل ، فإنَّ النصارىٰ جعلوا المسيحَ ابنَ اللهِ ، وعبدوه ، ونحن – أي مَن يعبدون الملائكة – أشفُّ منهم قولًا وفِعْلًا ، فإنَّا نَسبْنا إلى اللهِ الملائكة ، والنَّصارىٰ نسبوا إليه الأناسيَّ ، فقيل لـهم : مذهبُ النصارىٰ شِركٌ باللهِ ، ومذهبُكم شِرْكٌ مثلُه ، وما تَنَصُّلُكم مَمَّا أنتم عليه بما أُوردْتموه إلَّا قياس باطلٍ بباطل ، وما عيسىٰ ﴿ **إِلَّا عَبْدٌ** ﴾ كسائر العبيدِ ﴿ **أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ** ﴾ حيث جعلناه آيةً بأنْ خلقْناه من غير سببٍ كما خَلقْنا آدم ، وشَرَّفناه بالنبوة ، وصيَّرناه عِبرةً عجيبةً كالمَثَلِ السائرِ لبني إسرائيلَ .

إنَّ جميعَ الرسلِ الكرامِ عليهم الصلاةُ والسلامُ دَعَوْا إلىٰ ما دعا إليه النبيُّ محمدٌ ﷺ ، دعَوا الناسَ إلى عبادة اللهِ وحده لا شريكَ له ، ونهَوْا عن عبادة الأصنامِ والأندادِ ، كما قال سبحانه وتعالىٰ من سورة النحل : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ** ﴾(1) . وقد قال اللهُ عز وجل لنبيه

---

(1) آية : ٣٦ .

محمدٍ ﷺ ﴿ وَسْئَلْ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾[1] وسببُ هـٰذا الأمْرِ بالسؤال أنَّ اليهودَ والمشركين قالوا للنبى ﷺ : إنَّ ما جِئْتَ به مُخالِفٌ لِمَن كانَ قبلك ، فَأَمَرَه اللهُ بسؤاله الأنبياءَ علىٰ جهة التوقيفِ والتقريرِ لا لأنَّه كان في شكٍّ منه ، وقد جاء أنَّ النبىَّ ﷺ سألهم ليلةَ الإسراءِ ، فقالت الرسلُ : بُعِثْنا بالتوحيد ، وقيل : إنَّـه لم يسألْهم لِيَقينهِ باللهِ عزَّ وجلَّ ولأنه كان أعلمَ باللهِ منهم ، كما ورد عن ابن عباس ، حتى حَكَىٰ ابنُ زيد أنَّ ميكائيلَ قال لـجبريلَ : «هل سألَك محمدٌ عن ذٰلك؟» فقال جبريلُ : هو أشدُّ إيمانًا وأعظمُ يقينًا من أن يسألَ عن ذٰلك ، وقد جاءت هـٰذه الآيةُ الكريمةُ في إبطالِ مزاعمِ الذين جعلوا للهِ ولدًا أو نِدًّا وعبدوا مع اللهِ غيرَه ، ولمَّا نزلت هـٰذه الآيةُ : ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ تعلَّق المشركون بأمرِ عيسىٰ ، وقالوا : ما يريد محمدٌ إلّا أن نتخِذَه إلـٰهًا كما اتَّخذتْ النصارىٰ عيسىٰ ابنَ مريمَ إلـٰهًا ، قال مجاهد : إنَّ قريشًا قالت : إنَّ محمدًا يريدُ أن نعبدَه كما عَبَدَ قومُ عِيسىٰ عِيسىٰ ، فأنزل اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ .

إنَّ أهلَ الباطلِ يتخذون من الجدَل وسيلةً لإثارة الشبهاتِ ، وتأييدِ ظنونهم ومزاعمهم دون استنادٍ إلىٰ برهانٍ ، أو دليلٍ ، أو منطقٍ سديدٍ ، أو الاستنارةِ برأيٍ رشيدٍ ، وهـٰذا دأبُ الملحدين وأهلِ البدعِ والضلالِ في كلِّ عصر ، ولو أنهم أنعَمُوا النظرَ ، وجالُوا بالفكر في آيات اللهِ ، راغبين في معرفة الحقِّ ، لوجدُوا السبيلَ بيِّنًا ، والطريقَ مستقيمًا ، ولأُضيئت القلوبُ بنور الإيمانِ الصحيح ، والتوحيدِ الخالصِ ، ولـٰكنَّ للهوىٰ سُلطانًا علىٰ نفوس أهلِ الشقاوةِ والتعاسةِ

---

(١) الزخرف : ٤٥ .

يُعْمِي عن اتباع الصراطِ المستقيم ، ويُصِمُّ عن سماع الحقِّ سماعَ تدبُّرٍ وتأمُّلٍ ورغبةٍ .

وَمِن جَدَلـهم في أمر عيسىٰ عليه السلامُ واتخاذِ ذٰلك الـجدل ذريعةً لتأييد الباطلِ والإقامةِ علىٰ الشركِ ما جاء عن ابن عباسٍ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال لقريش : يا مَعْشَرَ قُرَيش ، إنَّه ليس أحدٌ يُعْبَدُ من دونِ اللهِ فيه خيرٌ » – وقد عَلِمَت قريشٌ أنَّ النصارىٰ تَعْبدُ عيسىٰ بنَ مريمَ ، وما تقولُ في محمد – فقالوا : يامحمدُ ، ألستَ تزعمُ أنَّ عيسىٰ كان نبيًّا وعبْدًا من عباد اللهِ صالحًا ، فإنْ كان كما تزعمُ فقد كان يُعْبَدُ من دون اللهِ ، فأنزل اللهُ تعالىٰ : ﴿ **وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ** ﴾ أي يضجُّون كضجيج الإبلِ عند حَمْـل الأثقال ، وقال ابنُ عباس ﴿ **يَصِدُّونَ** ﴾أي يضحكون .

وفي أسباب نزول هٰـذه الآياتِ جاء – أيضا – أنَّ ابنَ عباس قال : أراد به مناظرةَ عبدِ اللهِ بنِ الزِّبَعْرَىٰ مع النبيِّ ﷺ في شأن عيسىٰ وأنَّ الضاربَ لـهٰـذا المثَلِ هو عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرِىٰ السَّهْمىُّ حالةَ كُفْرِه لمَّا قالت قريش: إنَّ محمدًا يتلُو: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ**﴾[1] فقال : لو حَضَرْتُه لَرددْتُ عليْه ، قالوا : وما كنتَ تقول له ؟ : قال : كنتُ أقولُ له : هٰـذا المسيحُ تعبدُه النَّصارىٰ واليهودُ تعبدُ عُزَيزًا ، أَفهُمَا من حَصَب جهنَّمَ ؟ فعجبتْ قريشٌ من مقالته ورأوا أنه قد احْتَجَّ وخاصَم ، وذٰلك معنىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ **يَصِدُّونَ** ﴾ أي ترتفع لهم جَلَبةٌ وضجيجٌ فرحًا وجذَلًا وضَحِكًا بما سَمِعوا منه من الجَدَلِ . فأنزل الله تعالىٰ من سورة الأنبياء : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ**

---

(١) الأنبياء : ٩٨ .

سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[1] .

يقول القرطبيُّ : ولو تأمَّلَ ابنُ الزِّبعرىٰ الآيةَ ما اعترض عليها ، لأنه قال : ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ولم يقُل : ومَنْ تعبدون ، إنما أراد الأصنامَ ونحوَها ممَّا لا يَعقِل – أي فاسْتُخدمت ما الموصولةُ وهي لغير العاقل – ولم يُرِد الملائكةَ ولا المسيحَ وإن كانوا معبودين – أي بغير حقٍّ – .

إن المسيحَ وعُزيرَ وغيرَهما من أولياء اللهِ الصالحين الذين عُبِدوا من دون الله إنما هم عِبادٌ مُكرَمون ، وقد نَهَوْا عن الشرك ، ودَعَوْا إلى التوحيد ، ومَضَوا على طاعة اللهِ عزَّ وجلَّ فهم أهلٌ لرحمة اللهِ عز وجل ، مُبْعَدون عن مصير مَن اتَّخذوهم أربابًا من دون اللهِ من أهل الضلالةِ والشركِ ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي آلهتُنا خيرٌ أم عيسىٰ ؟ قاله السّدىُّ وقال : خاصموه وقالوا : إنَّ كلَّ مَن عُبِدَ من دون الله في النار ، فنحن نرضىٰ أن تكونَ آلهتُنا مع عيسىٰ والملائكةِ وعُزير ، فأنزل الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[1] ، وقال صاحبُ الكشاف : يَعْنُون : أنَّ آلهتَنا عندك يا محمدُ ليست بخيرٍ من عيسىٰ ، وإذا كان عيسىٰ من حصَب النارِ كان أمرُ آلهتِنا هَيِّنًا ﴿ مَا ضَرَبُوهُ ﴾ أي ما ضَربوا هـٰذا المَثَلَ ﴿ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أي إلّا لأجْل الجَدَل والغلَبةِ في القول لا لطَلَبِ المَيْزِ بينَ الحقِّ والباطل ، و﴿ جَدَلًا ﴾ حال ، أي جَدِلينَ – كما عند القرطبى – يعني : ما ضربوا لك هـٰذا المثلَ إلَّا إرادةَ الجَدَل لأنهم عَلِموا أنَّ المرادَ بحصَبِ جهنَّمَ ما اتَّخذوهُ من المَوات ، وقال ابنُ كثير : ﴿ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أي : مِراءً ، وهم يعلمون أنه ليس بواردٍ على الآية ، لأنها لما لا يَعقِل ، وهي قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ثم هي خطابٌ لقريش ، وهم إنَّما كانوا يعبدون الأصنامَ والأندادَ ، ولم يكونوا يعبدون المسيحَ حتىٰ

---

(١) آية : ١٠١ .

يُوردوه ، فتعيَّن أن مقالتهم إنما كانت جَدَلًا منهم ، ليسوا يَعتقدون صِحَّتها . وفي الحديث الذي رواه أبو أمامةَ : « ما ضَلَّ قومٌ بعْد هُدىً كانوا عليْه إلَّا أُورِثُوا الجَدَل » ثم تلا رسولُ الله ﷺ هـٰذه الآية : ﴿ **مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾ أي لُدٌّ شِدادُ الخصومةِ مُجادلون بالباطل .

إنَّ عِيسىٰ ابنَ مريمَ ما هو إلَّا عبدٌ من عباد اللهِ أنعم اللهُ عليه بالنبوة والرسالةِ وجعلَه مثَلًا ودلالةً لبني إسرائيلَ وغيرِهم على قدرة اللهِ تعالىٰ ، فإن عيسىٰ كان من غير أبٍ ، ثُم جُعل إليه من إحياءِ الموتىٰ ، وإبراءِ الأكْمَهِ والأبْرصِ والأسقامِ كلِّها ما لم يُجعل لغيره في زمانه ، فما يَليقُ بعاقل أن يجعلَه إلـٰهًا ، أو ابنًا لله ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم** ﴾ أي بدلًا مِنكم ﴿ **مَلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ** ﴾ أي يكونون خَلَفًا عنكم ، أو ملائكةً يَعْمُرون الأرضَ بدلًا منكم ، والمرادُ : لو نشاء لأسْكنَّا الأرضَ الملائكةَ ، وليس في إسكاننا إيَّاهم السماءَ شرفٌ حتى يُعْبَدوا ، أو يقال لهم بناتُ الله .

﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا** ﴾ أي إنَّ نزولَ عيسىٰ من السماء قُبَيْلَ قيامِ الساعةِ شرْطٌ من أشراطِها تُعْلَمُ به ، فسُمِّيَ الشرطُ عِلْمًا لحصول العِلْمِ به ، وإنَّ ظُهور عيسىٰ أمارةٌ ودليل على وقوع الساعةِ ، وقد تواترت الأحاديثُ بأنَّ المسيحَ عيسىٰ ابنَ مريمَ سينزِل قبلَ يومِ القيامةِ إمامًا عادلًا وحَكَمًا مُقْسِطًا ، وسَيَكْسِرُ الصليبَ ، ويقتُل الخنزيرَ ، وسينزلُ مجدِّدًا لدين النبيِّ محمدٍ ﷺ لِلّذي دَرَسَ منه لا بِشَرْعٍ مُبْتَدأ ﴿ **فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا** ﴾ أي لا تَشُكُّوا في الساعة أنَّها واقعةٌ وكائنةٌ لا محالةَ ﴿ **وَاتَّبِعُونِ** ﴾ أي فيما أُخْبِرُكم به وفيما دعوتُكم إليه من التوحيد ﴿ **هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ أي طريقٌ قويمٌ إلىٰ الله ، أي إلىٰ جنَّته التي أعدَّها لأهل التوحيدِ الخالِص والطاعةِ والإخلاص .

من سورة آل عمران

٨٣-أ - حبل الله المتين ، لا يضل المتمسك به ، ولا يهتدى تاركه .

الحَبْلُ لفظٌ مشترَكٌ ، وأصلُه في اللغة : السببُ الذي يُوصَلُ به إلى البُغية والحاجةِ ، وكلُّ شيءٍ يُتوصَّلُ به إلىٰ غيره فهو سببٌ .

ويُطْلَقُ الحَبْلُ علىٰ : ما فُتِل من لِيفٍ ونحوِه لِيُرْبَطَ أو يُقَادَ به ، وجمعُه : أَحْبُلٌ وأَحْبالٌ وحِبالٌ وحبولٌ ، والحَبْلُ : الرملُ المستطيلُ ، والرَّسَنُ : وهو ما كان من الأَزِمَّةِ على أَنْفِ الناقةِ ونحوِها ، ويُطلَق الحبْلُ - أيضًا - علىٰ : العهْد والذِّمَّةِ ، والأمانِ والثِّقَل ، والداهيةِ ، والوِصَالِ ، والتواصُلِ ، والعاتِق : أو الطريقةِ التي بين العُنقِ ورأسِ الكَتِفِ ، أو هو عَصَبَةٌ بين العُنقِ والمَنْكِبِ[1] ، ويطلق أيضا على عِرْقٍ في الذِّراع وفي الظَّهر ، ومَوْقِف خيْلِ الحلبَةِ قبل أن تُطْلَقَ ، وحَبْلُ الوريد : عِرْقٌ في العُنُق ، ويُضْرَبُ به المَثَلُ في القُرب وفي التنزيل : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ** ﴾[2] ، ويقال : هو علىٰ حبْلِ ذِراعِك : أي هو ممكنٌ لك مُستطَاعٌ ، وفي المَثَل : رُمِيَ بحبْله أو برَسَنِه على غَارِبه : أي خُلِّيَ سبيلُه فلم يمنعْه أحدٌ مِمَّا يُريد ، ويقال : إنَّه لحَبْلٌ من أحبالها : أي داهيةٌ في الأمور ، وَيُضْرَبُ أيضًا للقائم علىٰ المال الرفيقِ بسياسته ، ويقال : ثار حابلُهم على نابلهم : أي أُوقِدَت نارُ الشَّرِّ بينهم ، وفي حديث مُبايعةِ الأنصارِ : « إنَّ بيننا وبين

---

(١) المنكب : مجتمعُ رأسِ العَضُد والكتِف « مذكَّر » وجمعُه : مناكب .

(٢) ق : ١٦ .

القومِ حِبَالًا ونحن قَاطِعوها » أي عهودًا ومواثيقَ وَوُصَلًا ، كما يقال أيضًا في المَجاز : وكانتْ بينهم حِبالٌ فقطعوها » وفي حُسْن الخُلُقِ وسَعةِ الصدرِ وَضيقِه يقال : إنه لواسعُ الحَبْلِ وضَيِّقُ الحَبْلِ : يَعْنُون خُلُقَه ، وفي الإعانة والنُّصرةِ يقال : فلانٌ يَحْطِبُ في حَبْلِ فلانٍ : إذَا أعانَهُ ونصَرَهُ .

وفي التنزيل من سورة آل عمرانَ : ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ والعِصْمَةُ : المَنَعَةُ ، تقول : نحن في عِصْمةِ اللهِ تعالىٰ أي في حِفْظه ورعايتِه سبحانه . تقول : عَصَمَ إليه عَصْمًا : لجَأَ ، وعصَمَ اللهُ نبيَّه من الشرِّ أو الخَطأِ ؛ عِصْمَةً : حَفِظَهُ ووقَاهُ ومَنَعَهُ ، واعْتَصَمَ به : امتَنَعَ ولجَأَ ، وتقول : دُعِيَ إلىٰ مكروهٍ فاستَعْصَمَ : أي أبىٰ وطَلَب العِصْمةَ والحمايةَ منه .

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يأمُرنا في الآية الكريمةِ باللجوء إلى أسباب الحِفْظِ والحمايةِ والمنعَةِ والقوةِ والرفعةِ في الدنيا ، والفوزِ برضوان اللهِ في الآخرة ، يأمُرنا بالاعتصام بالحقِّ والالتفافِ حولَه ، والتعاضدِ ، والتناصرِ ، والتسانـدِ ، والتساعـدِ ، ويتحققُ ذٰلك لخلوِّ الباطنِ من أسباب الشقاقِ والبغضاءِ والشحنـاءِ ، فلا حسدَ ، ولا حقدَ ، ولا كبْرَ ، بل يكون هناك محبةٌ ، وإخـلاصٌ ، وإرادةٌ للخير ، وتعاونٌ على البرِّ والتقوىٰ وتكاتُفٌ ، وتماسكٌ كأننا نُمسِكُ بحبل متين نتعلقُ به لا ينقطع أبدًا ؛ بل هو سبيلُ الأمانِ والسكينةِ والطمأنينة ، ثم أُكِّدت الدعوةُ إلى الاعتصام بالحق ، والتـمسكِ به ، والالتفافِ حَوْلَهَ بالنهْي عن التفرق ﴿ **وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ أي لا تَتفرَّقُوا عن الحق الذي أُمِرْتم بالاعتصام به ، ولا تتفرَّقوا عن طريق رسولِ اللهِ ﷺ ، وإيَّاكُم والأهواءَ التي تُمزِّقُ الجماعةَ الواحدةَ ، وتُوهِن القُوىٰ ، وتُثير الشقاقَ والحروبَ .

والحَبْلُ في الآية الكريمةِ مَجازٌ عن : العهْد كما جاء عن ابن عباس ، وقال ابنُ

مسعود : حبلُ اللهِ هو القرآنُ ، وأخرج غيرُ واحد عن أبي سعيدٍ الخدريِّ « كتابُ اللهِ هو حبلُ اللهِ الممدودُ من السماءِ إلىٰ الأرض » شُبِّهَ الكتابُ العزيزُ بالحبْل الوثيقِ الموصِّل إلى رحْمَة اللهِ عزَّ وجلَّ ، وباللجوءِ إليه تكونُ العِصْمةُ والمنَعَةُ والرِّفْعَةُ والحِفظُ والقوَّةُ والهِدَايةُ ، وفي هٰذا جاء قولُ النبيِّ ﷺ فيما رواه عبدُ اللهِ : « إنَّ هٰذا القرآنَ هو حبلُ اللهِ المتينُ ، وهو النورُ المبينُ ، وهو الشفاءُ النافعُ ، عِصْمَةٌ لِمَن تَمسَّكَ به ، ونَجاةٌ لمن اتَّبعَه » ، وفي حديث الحارثِ الأعورِ عن عليٍّ في صفة القرآن : هُوَ حَبْلُ اللهِ المتينُ ، وصِراطُه المستقيمُ .

وجاء عن ابن مسعود : ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ قال : الجماعةُ ، وقيل : المرادُ بحبْل اللهِ : الطاعةُ ، وقد ورد من خُطبةٍ لابن مسعودٍ كما عند ابنِ أبي حاتمٍ من طريق الشعبيِّ عن ثابتِ بنِ قُطنةَ المُزَنيِّ : أيُّها الناسُ عَلَيْكُم بالطاعة والجماعةِ ، فإنهما حبْلُ اللهِ تعالىٰ الذي أَمَرَ به ، وقال أبو العاليةِ : إنه الإخلاصُ للهِ تعالىٰ وحْده ، وعن ابن زيدٍ قال : إنه الإسلامُ ، وعن قتادةَ : إنَّه عهدُ اللهِ تعالىٰ وأمرُه ... وكلُّها متقاربةٌ متداخِلَةٌ ، فإن اللهَ تعالىٰ يأمرُ بالأُلفة ، ويَنهىٰ عن الفرقة ، فإن الفُرقَةَ هَلَكةٌ ، والجماعةَ نجاةٌ .

ومن حِكَم ابنِ المبارك :

إنَّ الجماعةَ حَبْلُ اللهِ فاعتَصِمُوا مِنه بِعُرْوَتِه الوُثْقَىٰ لِمَنْ دَانَا

وإن تَمسُّكَ الأُمةِ بالإسلام ، واعتصامَها بالقرآن ، واقتداءَها بالنبي ﷺ ، وإخلاصَها لعقيدة التوحيدِ ، وثَباتَها على منهجها الربَّانيِّ لا تزيغُ عنه ، ولا تتشعَّبُ بها الطرق ، ليَدْفَعُ بها في مَراقِي الفلاحِ والازدهارِ ، ويجعلُها مرهوبةَ الجانبِ ، عظيمةَ الشأنِ ، تَسُرُّ الحبيبَ ، وتُحْزِنُ العدوَّ والحاقدَ والحاسدَ ،

وهٰذا غايةُ ما يسعىٰ إليه ذوو البصائرِ والضمائرِ الحيَّةِ ، والعقولِ المستقيمةِ ، والآراءِ الرشيدةِ السديدة .

ومع قوةِ المعانِي في الآية الكريمةِ وثرائِها وجمالِها وسموِّ الغايةِ التي تدعونا إليها ، وجلالِ المقصِدِ نرىٰ الإيجازَ والإعجازَ ونقاءَ اللفظِ وقوتَه وَدِقَّتَه وإيحاءَهُ ، وشدةَ تأثيرِه في النفوس ، وهدايتَهُ للقلوب والعقول ، وقد نَقَلَتْ إلينا الصورةُ الجميلةُ الرائعةُ المعانِيَ التي تُدْرَكُ بالعقْل في صورةٍ مُحسَّةٍ ، ودَعَت إلى التأمُّل والتفكُّرِ في الحالة الحاصلةِ : مِنْ تَمسُّكِ المتدلِّي مِنْ مكانٍ عالٍ بِحَبْلٍ وثيقٍ مأمونِ الانقطاع ، وقد شُبِّهَت بها الحالةُ الحاصلةُ لأهلِ الإيمانِ من استظهارِهم بالحقِّ ، وتَمَسُّكِهم بمبادئِ الإسلامِ ، واعتصامِهم بالقرآن ، وسَيْرِهِم في نور الوحْي ووثُوقِهم بحماية الدينِ الحقِّ . وقد استُعيرت ألفاظُ المشبَّه به للمشبَّه : ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا** ﴾ ففي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ ، وقد يكونُ في الكلام استعارتان مُتَرادِفَتانِ بأنْ يُستعارَ الحبلُ لِلْعهْد أو لدينِ الإسلامِ أو لِكِتَابِه ، ويُستعارَ الاعتصامُ للوثوق بالعهْد والتمسكِ بما جاء به الوحْيُ ، أو قد تكونُ الاستعارةُ في الحَبْل فقط ، ويكونُ الاعتصامُ باقيًا على معناه ترشيحًا للاستعارة .

يقول مفسِّرٌ : فلفْظُ الحَبْلِ مستعارٌ للإسلام أو لكتابِه ، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُشبِهُ الحبْلَ ، فإنَّ مَن سَلَك طريقًا صعْبًا يُخَافُ أن تَزْلِقَ رِجْلُه فيه فإذا تَمسَّكَ بحَبْلٍ مشدودِ الطَّرفين بجانِبَي ذٰلك الطريقِ أَمِنَ من الخوف ، كذٰلك طريقُ السعادة الأبديةِ طريقٌ زَلِقٌ ودواعِي الضَّلالِ عنها مُتَكاثِرةٌ زَلِقَ رِجْلُ أكثرِ الخَلْقِ فيها ، فَمَن اعْتَصَم بالقرآن العظيمِ ، وبقوانينِ الشرْعِ القويمِ فقد هُدِيَ إلىٰ صراطٍ مستقيم ، وَأَمِن من الغَواية المؤدِّيةِ إلى نار الجحيم .

﴿ جَمِيعًا ﴾ حالٌ من فاعل ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ ﴾ أي مجتمعين في الاعتصام ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ يعني : كما تفرَّقت اليهودُ والنصارىٰ ، أو كما كنتم مُتفرقين في الجاهلية مُتدابرين يُعادِي بعضُكم بعضًا ، ويَقْتلُ بعضُكم بعضًا ، وقيل : معناه لا تُحْدِثُوا ما يكونُ عنه التفرُّق ، ويزولُ معه الاجتماعُ والألفةُ التي أنتم عليها ، ففيه النهْيُ عن التفرُّق والاختلافِ ، والأمرُ بالاتفاق والاجتماع ، لأنَّ الحقَّ لا يكون إلَّا واحدًا ، وما عداه يكون جهْلًا وضَلالًا ، وإذا كان كذلك وَجَب النهْيُ عن الاختلاف في الدِّين ، وعن الفُرْقَة لأنَّ كلَّ ذلك كان عادةَ أهلِ الجاهليةِ ، وما أَهْلَكَ الأُممَ السابقةَ إلا تفرُّقُها . وفي النهي عن التفرُّق والأمرِ بالائتلاف يقولُ الرسولُ ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرةَ : « إنَّ اللهَ يَرْضَىٰ لكم ثلاثًا ، ويَسْخَطُ لكم ثلاثًا ، يَرْضَىٰ لكم أَنْ تَعبدوه ولا تُشْرِكوا به شيئًا ، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بحبْلِ اللهِ جميعًا ولا تَفَرَّقوا ، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَن ولَّاه اللهُ أَمْرَكم ، ويَسْخَطُ لكم ثلاثًا : قيل وقَال ، وإضاعةَ المالِ ، وكثرةَ السؤالِ » .

ثم أمر اللهُ عزَّ وجل في الآية الكريمةِ بتذكُّرِ نِعَمِه ، وأعظمُها نعمةُ الإسلام ، واتباعُ النبيِّ محمدٍ عليه الصلاةُ والسلام ، فإنَّ به زالت العداوةُ والفُرقةُ ، وكانت المحبةُ والألفةُ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ أي صِرْتُم بنعمة الإسلامِ إخوانًا في الدين ،وكلمةُ ﴿ أَصْبَحْتُم ﴾ في القرآن معناها صِرْتُم[1] ، كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾[2] أي صار غائرًا ، والإخْوانُ : جَمْعُ أَخٍ ، وسُمِّي أخًا لأنه يَتوخَّىٰ مذهبَ أخيه أي يقصدُه .

---

(١) القرطبي تفسير آل عمران الآية : ١٠٣ .

(٢) الملك : ٣٠ .

لقد صار الجاهليُّون بفضل نعمةِ اللهِ عليهم إخوانًا متحابين بعد أن كانوا قبائلَ مُشتَّتةً ، وجماعاتٍ متناحرةً ، ودَمَّرت الحروبُ حياتَهم كالحرب التي طالت وتطاولت بين الأوس والخزرج مائةً وعشرين سنةً ، وحربِ البسوسِ التي دامت طويلًا ، فانتقلوا بفضل هدايةِ الإسلامِ إلى المحبة والأُلفةِ ، وزالت الأحقادُ والأضغانُ التي كادت تُؤدِّي بهم إلى الهلاك والشقاءِ الدائم : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ .

وشَفا كلِّ شيءٍ حَرْفُه ، وكذلك شَفِيرُه ، أي وكنتم على طَرَفِ حُفْرَةٍ من جهنَّمَ إذ لم يكن بينكم وبينَها إلا الموت ، فأنقذكم اللهُ منها بمحمد ﷺ ، وخلَّصكم بالإيمان به من الوقوع في النار ، وهو تمثيلٌ لحياتهم التي تُتَوَقَّعُ بعد الوقوع في النار بالقعود على حَرْفها مُشرِفين على الوقوع فيها .

وقال المهدويُّ : « وهذا تمثيلٌ يُرَادُ به خروجُهم من الكفرِ إلىٰ الإيمان » .

﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مِثْلُ ذلك التبيينِ الواضحِ ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ أي دلائلَه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي لكي تدوموا على الهُدىٰ ، وتَثْبُتُوا عليه ، وفي هٰذا عِبرةٌ وَعِظةٌ لذوي البصائر ، وأربابِ العقولِ الراجحةِ ، إذ عليهم أن ينقادوا لأمر اللهِ ، ويُطيعوه ، ويَعتصموا بحبْله ، وأن يكونوا يدًا واحدةً ، وعلى قلبِ رجُلٍ واحدٍ ، وألَّا يتفرَّقَ أهلُ التوحيد في الدِّين ، وأن يَلْزَموا صراط اللهِ المستقيم ، وأن يُبادروا دَوْمًا إلى رأْبِ كلِّ صَدْعٍ ، وإصلاحِ كلِّ خَلَل ، ليكونوا كالبنيان المرصوصِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا ، وكالجسَد الواحدِ يشعرُ كلُّ منهم بالألم الذى يَحِلُّ بإخوانه المؤمنين ، كما قال الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في الحديث الذي رواه

النعمانُ بنُ بَشيرٍ واللفظُ في البخارى : « تَرَىٰ المؤْمنين في تَراحُمِهم وتَوَادِّهم وتعاطُفِهم كَمَثَل الجَسَدِ إذا اشتَكَىٰ عُضْوًا تَدَاعَىٰ له سائرُ جسَدِه بالسَّهَرِ والحُمَّىٰ » وتشبيهُ المؤمنين بالجسَد الواحِد تمثيلٌ صحيحٌ ، وفيه تقريبٌ للفهْم ، وإظهارٌ للمعاني في الصُّور المرئيةِ المحسَّة بالعين والمسموعة بالأذن .

* * *

٨٤ - ب - وَكونوا عبادَ الله إخوانا .

أَمر اللهُ عزَّ وجلَّ عباده الموحِّدين بلزوم أمرِه ، والاعتصامِ بدينه ، والسير في طريق نبيِّه محمدٍ ﷺ لأن في ذلك صيانةً لهم من الاختلاف والتفرُّق تبعا لتعدُّد الأهواءِ ، وكثرةِ الشبهاتِ ، وتعارضِ الأَفكارِ والنِّحَلِ والمقاصدِ ، لأنَّ في لزوم شرعِ اللهِ القويمِ النجاة من أسباب الوهَنِ ودواعي الـهلَكةِ ، ولأن في الـتمسك بما جاء به الوحْيُ في حياتهم الـخاصةِ والعامةِ خيْرَهُم وصلاحَهم واستقامةَ أمورِهم وسلامةَ نفوسهم .

ولو أنَّ أمةَ الإسلامِ اعتصمت بكتاب ربِّها ، وتمسكت بسنَّه نبيِّها ﷺ ، والتقت على وِجْهَة واحدةٍ لعَلا بنيانُها ، وارتفع شأنُها ، ونهضت بمسؤولياتها الـجسام على خيرِ وجهٍ وأتمه ، ولكان النصرُ حليفَها بإذنِ اللهِ في كل ميدان ، ولـحققت بفضل التكامل فيما بينها ، والتعاونِ والتساندِ الازدهـارَ والرخـاءَ والاستقرارَ ، ولصارت أمةُ الإسلامِ سَنَدًا للعدْل والسلام ، وأُنمُوذجًا رائعًا في كل ميادين الحياةِ الاقتصاديةِ والعلميةِ والأدبيةِ ، كما كان السلفُ الصالحُ الذين أقاموا أعظمَ صرْحٍ حضاريٍّ في ظلال دولةِ الإسلام ، لم تشهد الدنيا له مثيـلًا في أيِّ عصرٍ من العصور ، وقد تمَّ ذلك بفضل تمسكِ الأمةِ بدينها وحرصِها على تطبيق شرعِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وسيرِها في نور الإسلامِ وهدايته : واللهُ عزَّ وجلَّ يقول لعباده الموحِّدين : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾[1] ومن حقِّ الأخِ أن يُعانَ ، وأن يُنْصَحَ ، وأن

---

(١) الحجرات : ١٠ .

يُحْتَرَمَ ، ولا يُخْذَلَ ، ولا يُظْلَمَ ، وفي الحديث الشريف : « المسْلمُ أَخُو المُسْلم لايَظْلِمُه ، ولا يَخْذلُه ، ولا يَعِيبُه » .

ودعا اللهُ عبادَهُ إلى أن يكونوا في اجتماع الكلمةِ كالبنيان المرصوصِ وإنما يتحققُ ذلك بلزومهم أمرَ الله ، وباستظهارِهم بالحق ، واعتصامِهم بالمنهج الذي بَعَثَ اللهُ به خاتَمَ رسلِه ﷺ ، واللهُ عز وجل يُحِب عبادَه الموحِّدين الذين يَثْبُتون في ساحات الجهادِ في سبيل اللهِ صفًّا واحدًا كثبوت البناءِ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[1] .

قال قتادةُ : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ ألم تَرَ إلى صاحب البنيانِ ، كيف لا يُحِبُّ أن يختلفَ بنيانهُ ؟ فكذلك اللهُ عزَّ وجلَّ لا يختلفُ أمرُه ، وإنَّ اللهَ صَفَّ المؤمنين في قتالهم ، وصَفَّهم في صلاتهم ، فعليكم بأمر اللهِ ، فإنَّه عصمةٌ لِمَن أخذ به .

ولا يتمُّ هٰذا التراصُّ إلا بإخلاص القلوب ، ومحبةِ المسلم لأخيه المسلم ، وسعْيِه فيما يُحقِّقُ الخيرَ له ، وأن يولِّيَ المسلمون وجوهَهم ونياتِهم ومقاصدَهم نحو الغايةِ التي تُرضي ربَّهم ، وتُعلي كلمةَ اللهِ ، وتجعلُ دينَ اللهِ هو الظاهر العالي على سائر الأديانِ ، وأن يَلْزموا الجماعةَ ، ويَجتنبوا أسبابَ الفُرقة والخِلاف ، وكما قال عمرُ رضي الله عنه في إحدىٰ خُطبه التي أخرجها الترمذيُّ ورواها ابنُ عمر : « عليْكُم بالجَماعة ، وإيَّاكُم والفُرْقةَ : فإنَّ الشيطانَ مع الواحِد ، وهو من الاثنين أبْعَدُ ، مَنْ أراد بُحبوحةَ الجنةِ فَلْيَلْزم الجَماعة » .

إن الأمةَ التي يَتبددُ شملُها ، وتتناقضُ مذاهبُ أبنائِها ، وتتفرقُ كلمتُها ،

---

(١) الصف : ٤ .

تذهبُ ريحُها ، وتَضعُفُ أمام الاعداءِ المتكالبين على خيراتها ، الحاقدين عليها ، وقد حذَّر اللهُ أهلَ الإيمانِ من التنازع الذي يؤدِّيهم إلى الفشل ، قال سبحانه من سورة الأنفال : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] وإن في طاعة اللهِ ورسولِهِ منجاةً من الاختلاف والتمزُّق وأسبابِ الفشلِ والهلاك ، وقد حذَّر اللهعبادَه الموحِّدين مِمَّا وقع فيه أهلُ الكتابين من الاختلاف والتفرق وغلبةِ الأهواءِ عليهم ، ولْنسمع اللهَ عز وجل يقول للمؤمنين : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[2] ينهىٰ الله عز وجل هذهٰ الأمةَ أن تكونَ كالأمم الماضين في تفرُّقهم واختلافِهم ، وتركِهم الأمرَ بالمعروف والنهْيَ عن المنكر ، وابتعادِ فِرقِهم التي ابتُدِعت عن حقائق الدين وما جاء به الوحْيُ ، مع قيام الحُجَّةِ عليهم ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ .

وقد خَوَّف النبيُّ محمدٌ ﷺ الأمةَ من اتِّباعِ الأهواءِ ، والابتداعِ في الدين ، ومن الابتعاد عَمَّا جاء به الوحْيُ ، لِيتمسَّكَ أهلُ الإسلامِ بالكتاب والسنةِ ، ولا يُجَاروا أهلَ البِدَعِ والأهواءِ ، وقد وردت في ذٰلك أحاديثُ كثيرةٌ ، منها ما أخرجه أبو داودَ عن معاويةَ بنِ أبي سفيان قال : قام فينا رسولُ اللهِ ﷺ فقال : « أَلَا إِنَّ مَنْ كَانَ قَبلكم من أهلِ الكتابِ افترقُوا على اثنتَيْن وسبْعِين مِلَّةً ، وَإِنَّ هٰذه الأمةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعين فِرْقَةً : ثنتان وسبعون في النَّار ، وواحدةٌ في الجنَّة وهي الجماعةُ » أي الذين يلزمون ما كان عليه النبيُّ ﷺ وأصحابُه معتصمين بكتاب اللهِ وسنةِ نبيِّه الأمين .

---

(١) آية : ٤٦ .

(٢) آل عمران : ١٠٥ .

وزاد في رواية : « سيخرجُ من أمتي أقوامٌ تَتجارَىٰ بهم الأهواءُ كما يَتجارَىٰ الكَلَبُ بصاحبه ، لا يَبْقَىٰ منه عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلَّا دخلَه » والتَّجارِي : تفاعُلٌ من الجَرْي ، و « تَتَجارىٰ بهم الأهواءُ » : أي يتواقعون في الأهواء الفاسدةِ ، وَيَتَداعَوْن فيها ، تشبيهًا بِجَرْي الفرسِ ، أما الكَلَبُ : بتحريك اللام : فهو داءٌ معروفٌ يَعْرِضُ للكلْب ، إذا عَضَّ إنسانًا عرضت له أعراضٌ رديئةٌ فاسدةٌ قاتِلة ، فإذا تَجارىٰ بالإنسان ، وتمادىٰ به هَلَكَ ، فانظُر هٰذا التمثيلَ البديعَ الذي يُبرز الفكرةَ ، ويزيدُها وضوحًا ، ويؤثِّرُ في النفس ، فقد شَبَّه تنافسُ أربابِ الأهواءِ الفاسدةِ وتداعِيهم فيها وحِرْصُهم علىٰ وقوع الناسِ في شِرَاكِها بِجرْي الفرس ، ثم صوَّر التمادِي في هٰذا المِضْمارِ والحرصُ على التمسك بالبِدَع والشركياتِ والأهواءِ المُضِلَّةِ بداءِ الكَلَبِ إذا لم يُبَادَرْ إلى العلاج منه ، واتخاذِ الأسبابِ الصحيحةِ لإيقاف سَريانِه في البَدن ، فإنه يُؤدِّي بصاحبه إلى الهلاك ، إذ الأهواءُ الفاسدةُ تَسْرِي في النفوس سَرَيانَ السُّمِّ في البدن ، فتدمِّرُها وتُضِلُّها وتدفعُ بها في مَهاوِي الباطل ، وتحجُبها عن الحق وعن أسباب النجاةِ والفوز والعزِّ والتأييد : ﴿ **وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾[1] . يعني يومَ القيامة ، حين تبيضُّ وجوهُ أهل السُّنةِ ، والجماعةِ ، وتسْوَدُّ وجوهُ أهلِ البدعةِ والفُرقةِ ، كما جاء عن ابن عباسٍ ، وقال مالكُ بنُ أنس : هي في أهل الأهواء .

وإنَّ كلَّ مَنْ بدَّل أو غَيَّر أو ابْتَدع في دين اللهِ مالا يرضاه اللهُ ، ولم يأذنْ به اللهُ ، فهو من الأشقياء التُّعَساءِ ، المطرودين عن حوض الحبيبِ المصطفى ﷺ ، المُبْعَدين منه المُسَوَّدِي الوجوهِ لمَا يَرَوْن من سوء المصير ، وهٰذا مآلُ

---

(١) آل عمران : ١٠٥ و ١٠٦ .

كلِّ مَن خَالفَ جماعةَ المسلمين وفارقَ سُبلَهم ، وخرج مِن الدنيا علىٰ عقائدَ تناقضُ التوحيدَ الخالصَ ، وفي صحيح البخاريِّ عن سهل بنِ سعد قال ، قال رسولُ اللهِ ﷺ : « إنِّي فَرَطُكم علىٰ الحَوْضِ مَنْ مَرَّ علىَّ شَرِب ، وَمَن شَرِبَ لم يظمأْ أبدًا ، لَيَرِدَنَّ علىَّ أقوامٌ أعرِفُهم ، ويعرِفوني ثم يُحَالُ بيني وبينهم » .

وفي زيادةٍ في رواية أبي سعيد الخدرى « فأقولُ إنهم مِنِّي ، فيقالُ إنك لا تَدرِي ما أحدَثُوا بَعْدك ، فأقول : سُحْقًا سُحْقًا لمَنْ غيَّر بَعْدي » .

وفي رواية أبي هريرة في صحيح البخارى : « حَتَّى إذَا عرفتُهم خَرج رجلٌ بيني وبينهم ، فقال : هَلُمَّ ، قلتُ : إلى أين ؟ قال : إلى النار واللهِ ، قلتُ : ما شأنهم ، قال : إنهم ارتدُّوا بعْدك علىٰ أدبارهم القَهْقَرىٰ ، فلا أُرَاهُ يَخلُصُ منهم إلا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَم » .

« فقال هلُمَّ » أي قال الملَكُ لهم تَعَالَوا ، يريد صَرْفَهم عن الحوض الذي يَقصِدونه ، وقولُ الملَكِ : « إلىٰ النارِ واللهِ » إنما أقسم باللهِ ليُدخِلَ عليهم الحسرةَ ، بأَنَّ صَرْفَهُمْ إلى النار مقطوعٌ به ، لا تنفعُهم فيه شفاعةُ الشافعين ، وذلك بسبب رجوعِهم عَمَّا كان عليه النبيُّ محمدٌ ﷺ بعد إيمانِهم به : و « القهْقَرىٰ » لفظٌ مؤنَّثٌ منصوبٌ على المصدرية من غير لفظِ الفعلِ مبيِّنٌ للهيئة ، وهو الرجوعُ إلى الخلْف من غير أن يُدِيرَ وجْهَهُ إلى جهة رجوعِه . « فلا أُرَاهُ » أي فلا أظنُّه ، والضميرُ للشأن « يَخْلُصُ » أي يصلُ إلى الحوض « منهم » أي من الزمرة « إلّا مِثْلَ هَمَلِ النَّعَم » أي إلَّا عددٌ قليلٌ يُشبه في ذلك المُهملَ من الإبل بلا راعٍ ، واحدُها هَامِلٌ ، أي فلا ينجو من هٰذه الزمرةِ إلا القليلُ .

إن الإسلامَ يدعو المسلمين إلى أن يكونوا في دين اللهِ إخوانًا ، وألَّا يتفرقُوا متابِعين للهوىٰ والأغراضِ المختلفة ، وأنْ يَجتنِبُوا أسبابَ

التقاطعِ والتدابُرِ والخِصَامِ ، وألَّا يتشبَّهوا بالمُلْحدين والكفارِ الذين تُمزِّقُهم الأهواءُ ، ويَضْرِب بعضُهم رقابَ بعضٍ ، وفي الحديث الذي أخرجه التِّرمذيُّ عن ابن عباسٍ ، وأخرجه أبو داودَ والنَّسائيُّ عن ابن عمرَ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « لا تَرجِعُوا بعْدي كفَّارًا يَضْرِب بعضُكم رِقابَ بعضٍ » أي لا تصيروا فِرَقًا مُختلِفةً متعادِيةً يقتلُ بعضُكم بعضًا بسبب العداوةِ ، وتناقضِ الاتجاهاتِ والأغراض .

وفي الحديث الذي أخرجَهُ الشيخان والترمذيُّ عن أبي موسىٰ وابنِ عمرَ قالا : قال رسولُ اللهُ ﷺ : « مَنْ حَمَلَ علينا السلاحَ فليس مِنَّا » أي إذا حَمَلَهُ علىٰ المسلم لكونه مسلمًا فليس بمسلم ، فأمَّا إذا حَمَلَه لغير هٰذا المعنىٰ ، فمعناه : أنه ليس مِثْلَنا ، وليس متخلِّقًا بأخلاقنا وأفعالِنا ، — والله أعلم — وفي هذا تقبيحٌ لعَمل مَن يُروِّعُ المسلمين ، ويسعىٰ لبثِّ الفتنةِ ، وإيقادِ نارِ القتالِ بينهم .

وفي النهْي عن تعاطي أسبابِ البُغْضِ من الأهواء المضلَّةِ وغيرِها يَروي أنسُ ابنُ مالك — كما في صحيح البخاري — أنّ رسول الله ﷺ قال : « لا تباغضُوا ، ولا تحاسَدُوا ، ولا تدابَرُوا ، وكونُوا عبادَ اللهِ إخوانًا ، ولا يَحِلُّ لمسلم أن يهجُرَ أخاه فوقَ ثلاثةِ أيام » .

والتباغضُ مذمومٌ سواءٌ وقع بين اثنين أو أكثرَ أو كان من أحدهِم ، وهو ما كان في غيرِ اللهِ تعالىٰ ، أمَّا مَن أبغضَ شخصًا لبدْعَتِه أو لمعْصِيَتِه فهو يُثَابُ لتعظيمِه حقَّ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّ الحسدَ مذمومٌ ومنهيٌّ عنه كلَّ النهْي ،سواءٌ وقَع من واحدٍ أو وقَع بين اثنين فصاعدًا ، أمَّا النهيُ عن التدابُر ، فالمقصودُ به النهْي

عن التهاجُر ، مأخوذٌ من تولية الرجلِ دُبُرَهُ وإعراضِه عن أخيه حين يراه . وجملةُ « وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا » تُشْبِهُ النتيجةَ لِمَا تقدَّم ، كأنه قيل : إذا تَركتم هٰذه المنهياتِ كنتم إخوانًا ، ومفهومُه : إذا لم تتركوها كنتم أعداءً ، أو أن يكونَ المرادُ عامًّا : أي اكتَسِبوا ما تَصِيرون به إخوانًا كإخوانِ النَّسبِ : مِن الشفقةِ والرحمةِ والمؤاساةِ والنصيحةِ ، وعدم التباغضِ والتحاسدِ والتدابر ؛ لتكونوا – ياأهلَ الإيمان – أهلًا لرحمةِ اللهِ ونَصْرِهِ وَتَأْييدِه .

* * *

والحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاةُ والسلامُ على أشرف المرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

وأسأله سبحانه التوفيق والسداد والرشاد ، وأن يجعله عملا خالصًا لوجهه الكريم ، وأن ينفع بهذا البحث عباد الله ، وأن يغفر لي ولأبي وأمي ويهديني ويهدي أولادي وأحفادي للعمل الصالح الذى يرضيه ، إنه نعم المولى ونعم المجيب .

ولقاؤكم مع الكتاب الثالث بإذن الله تعالى .

أحمد بن محمد طاهون

كشاف الكتاب

الرقم	البيان	الصفحة
	تقديم	٥ (٢٥١)
١	من سورة الحديد	
	٤١-أ- القلب القاسي ودواؤه .	٨ (٢٥٥)
	٤٢-ب- إحياء القلوب .	١٦ (٢٦٢)
	٤٣-ج- كمثل غيث أعجب الكفار نباته .	٢٢ (٢٦٨)
	٤٤-د- المبادرة إلى أسباب المغفرة والرضوان وأدب النفس المطمئنة .	٢٨ (٢٧٤)
	٤٥-هـ- الدنيا في نظر المسلم .	٣٦ (٢٨٢)
٢	من سورة البقرة	
	٤٦-أ- طوبى لمن استمسك بالعروة الوثقى .	٤٢ (٢٨٨)
	٤٧-ب- أولياء الله ... وأولياء الشياطين .	٤٨ (٢٩٤)
٣	من سورة البقرة	
	٤٨-أ- ولنجعلك آية للناس	٥٤ (٣٠٠)
	٤٩-ب- إن لنا في قصة عزير والقرية لعبرًا .	٦٠ (٣٠٦)
	٥٠-ج- من علم اليقين ... إلى عين اليقين	٦٦ (٣١٢)
٤	من سورة إبراهيم	
	٥١-أ- ويأتيه الموت من كل مكان .	٧٢ (٣١٨)
	٥٢-ب- أعمالهم كرماد اشتدت به الريح .	٧٨ (٣٢٤)
	٥٣-ج- الكلمة الطيبة .	٨٤ (٣٣٠)

الرقم	البيان	الصفحة
	٥٤ - د - الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .	٨٩ (٣٣٥)
	٥٥ - هـ - الويل لمن يبدل نعمة الله كفرًا .	٩٥ (٣٤١)
٥	من سورة عبس	
	٥٦ - أ - يوم يفر المرء من أخيه والمسئولية الفردية	١٠٠ (٣٤٦)
٦	من سورة التحريم	
	٥٧ - ب - من التربية الصالحة في محيط الأسرة .	١٠٧ (٣٥٣)
	٥٨ - ج - لا نجاة إلا بإيمان صحيح وعمل صالح .	١١٣ (٣٥٩)
	٥٩ - د - آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران .	١١٩ (٣٦٥)
٧	من سورة الأعراف	
	٦٠ - أ - آمن لسانه وكفر قلبه .	١٢٥ (٣٧١)
	٦١ - ب - النموذج البلعامي .	١٣١ (٣٧٧)
	٦٢ - ج - فاقصص القصص لعلهم يتفكرون .	١٣٧ (٣٨٣)
	٦٣ - د - الملحدون والأنعام أيهما أضل طريقا .	١٤٣ (٣٨٩)
٨	من سورة البلد	
	٦٤ - أ - سورة البلد وتنبيه العباد .	١٤٩ (٣٩٥)
	٦٥ - ب - هلا شكرها المنعم ، وهلا اقتحمنا العقبة .	١٥٥ (٤٠١)
	٦٦ - ج - هيا نتواصى بالصبر على اقتحام العقبة .	١٦١ (٤٠٧)
٩	من سورة الحجرات	
	٦٧ - أ - فضائل وآداب عالية والتحذير من أكل لحوم الناس .	١٦٨ (٤١٤)

الرقم	البيان	الصفحة
	٦٨ - ب - كل المسلم على المسلم حرام .	١٧٤ (٤٢٠)
١٠	من سورة الفتح	
	٦٩ - أ - تشريف النبي صلى الله عليه وسلم والثناء على الصحابة .	١٨٠ (٤٢٦)
	٧٠ - ب - خيرُ أهل الأرض .. وقد رَضِيَ اللهُ عَنهمْ .	١٨٦ (٤٣٢)
	٧١ - ج - مثلهُمْ في التوراة والإنجيل .	١٩٢ (٤٣٨)
١١	من سورة النحل	
	٧٢ - أ - تقرير أمر التوحيد بأبلغ الأمثال .	١٩٨ (٤٤٤)
	٧٣ - ب - هل يستويان مثلاً .	٢٠٤ (٤٥٠)
	٧٤ - ج - بشكر المنعم يدوم الأمنُ والرخاء وهما أعظم النعم الدنيوية .	٢١٠ (٤٥٦)
	٧٥ - د - فأذاقها الله لباس الجوع والخوف .	٢١٦ (٤٦٢)
	٧٦ - هـ - وفي سبأ آية ، وقد صارت مثلاً .	٢٢٢ (٤٦٨)
	٧٧ - و - فجعلناهم أحاديث .	٢٢٨ (٤٧٤)
	٧٨ - ز - إن في ذلك لآية .	٢٣٤ (٤٨٠)
١٢	من سورة آل عمران	
	٧٩ - أ - أنَّى يكون لله ولد ، وهو خالق كل شيء .	٢٤٠ (٤٨٦)
	٨٠ - ب - كشفُ شُبهه وإبطال ادّعاء .	٢٤٧ (٤٩٣)
	٨١ - ج - قصة المباهلة ... والدعوة إلى كلمة سواء .	٢٥٤ (٥٠٠)
	٨٢ - د - ما ضربوه لك إلا جدلاً	٢٦١ (٥٠٧)

الرقم	البيان	الصفحة
١٣	من سورة آل عمران	
	٨٣-أ - حبل الله المتين ، لا يضل المتمسك به ، ولا يهتدى تاركه .	٢٦٧ (٥١٣)
	٨٤-ب - وكونوا عباد الله إخوانا .	٢٧٤ (٥٢٠)

* * *

دعاء

« اللهمَّ اغفِرْ لي ولوالدَيَّ وارحَمْهما كما ربَّياني صغيرًا » .

« اللهمَّ بَارِكْ في ذرِّيَّتي واجعلني وإيَّاهم من عبادك الصالحين يا ربّ العالمين » .

تذكرة :

« حين أعددت (كتاب الشكر) للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا ، تمنيت لو أن المؤلف قدم نفسه ليعين من يجيئون بعده ، فالكلمة بعد صدورها عن صاحبها تصير في حوزة التاريخ ، لهذا أقدم هذه الوجازة » :

١ – مؤلف هذا الكتاب هو العبد الفقير إلى عفو الرحمن ورحمته : أحمد بن محمد إبراهيم طاحون ، المولود في عام ١٩٢٧ من الميلاد في « شما » من قرى مركز أشمون بإقليم المنوفية في مصر ، حرسها الله .

٢ – مات أبوه وهو دون الثالثة ، وعُنيت به أمه الصالحة – رحمهما الله وغفر لهما – فبعثت به إلى « مكتب القرية » ليحفظ القرآن الكريم ، ثم إلى القاهرة ليتم حفظه هناك ، لأن حفظ القرآن كان شرطًا لدخول الأزهر .

٣ – بعد أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد شبين الكوم الديني التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٥ من الميلاد ، ثم على دبلوم في التربية من معهد التربية العالى للمعلمين بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد .

٤ – الحياة العلمية :

○ اشتغل بتدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية في إقليم الجيزة بمصر من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ من الميلاد ، ثم بمدارس الصومال ثلاث سنوات دراسية ، عاد بعدها إلى المدرسة السعيدية بالجيزة .

○ وفي عام ١٣٩١ من الهجرة (١٩٧١ من الميلاد) تعاقد مع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية في مدرسة الفلاح الثانوية بجدة حتى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧ من الميلاد) .

○ التحق بالبنك الإسلامى للتنمية في جدة منذ عام ١٣٩٧ من الهجرة ، ومازال في عمله حتى تاريخ صدور هذا الكتاب في عام ١٤١١ من الهجرة ١٩٩٠ من الميلاد .

○ متحدِّث وخطيب وكاتب .

○ قدم أحاديث عبر إذاعة المملكة العربية السعودية على مدى التسع عشرة سنةً الأخيرة .

○ وأعدّ صفحة « دعوة الحق » في صحيفة البلاد – ومقرها جدّة – لسنوات عديدة ، وكتب فى عدد من الصحف والمجلات العربية .

○ وهو يسأل إخوانه وأخواته أن يذكروه بالدعاء له بالهداية وبالعفو والعافية والمغفرة ، ولأبويه بالرحمة ، ولأولاده بالهداية والمغفرة .

○ والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

يسرنى أن أعبر عن خالص الشكر للقائمين على مطبعة هجر بالقاهرة ٤ ش ترعة الزمر – بالمهندسين على العناية بطبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة إحدى عشر وأربعمائة بعد الألف من الهجرة (عام تسعين بعد التسعمائة والألف من الميلاد)

أحمد طاحون

رقم الإيداع ٧٥٣٧ / ١٩٩٠ م

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر – المهندسين – جيزة

☎ ٣٤٥٢٥٧٩ – فاكس ٣٤٥١٧٥٦

المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل

أرض اللواء – ☎ ٣٤٥٢٩٦٣

ص . ب ٦٣ إمبابة